# المختار من
# تفسير القرآن الكريم

الشيخ محمد متولى الشعراوى

## الجزء الثالث

عنيت بطباعته ونشره
مكتبة التراث الإسلامى
ص . ب ٥٨ الأهرام

# فهرس

# المختار من تفسير القرآن الكريم

## الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

# سورة ﴿الأعلى﴾

احمدك ربي على فضائل ذاتك وفواضل نعمائك . وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ومسك ختامك سيدنا محمد ﷺ . وبعد :

سورة « الأعلى » جاء موضعها من الكتاب بعد سورة « الطارق » . وسورة « الطارق » قد تعرضت فيما تعرضت له ﴿والسَّماءِ والطَّارِقِ . وَمَا أدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ . إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ . فَلْيَنْظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ثم تعرضت بعد قضية الخلق وهو الإيجاد من عدم تعرضت إلى القومية التي تمد ذلك الموجود من العدم بما يبقي عليه حياته من مادة حياته . فقال الحق ﴿ والسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

وإذا ما استعرضنا هذه السورة جملة ، وجدنا أولا اسمها ( الأعلى ) لأن ( الأعلى ) وردت فيها كحيثية من حيثيات الأمر بتسبيح الله ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فسميت السورة بذلك الاسم وهذه السورة كما فهمنا من الروايات الحديثة ، التي رواها الامام أحمد ، ورواها الترمذي ، وابن ماجه ، وأبو داوود ، والبيهقي ، كانت حبيبة إلى رسول الله ﷺ . وهي أحب المسبحات اليه . ومعنى احب المسبحات ، انها أحب السور التي ابتدأت بما يشتق من ( سبح ) ، « كسبحان » ، ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض﴾ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فهي أفضل المسبحات .

لذلك كان رسول الله ﷺ ، حريصا على أن يقرأها دائما في صلاة الجمعة ، وحريصا على أن يقرأها أيضا في صلاة العيدين ، حتى لو اجتمعت الجمعة مع العيد قرأها في العيد صباحا ، ثم قرأها في الظهر زوالا . وهذا مما يدل على أن رسول الله ﷺ ، وهو أمي في أمة أمية ، ينزل عليه الوحي فيقول : ( اقرأ ) ، وذلك أمر عال . ورسول الله ببشريته الأمية ، يجيب جوابا طبيعيا فيقول : ( ما أنا بقارىء ) . فيصر

الوحي قائلا : ( اقرأ ) فيصر رسول الله قائلا ما أنا بقارىء ، يقول له الوحي بعد ذلك ( اقرأ ) اذن فهناك حوار بين أمر ، وبين عجز عن أداء ذلك الأمر . الأمر منطقي لأنه صادر من أعلى . والنفي من رسول الله منطقي لأنه صادر من البشر ، لا وسائل عنده للقراءة . لم يرتض عليها ، ولم يتعلمها ، ولم يجلس إلى معلم ، فكيف يؤدي مدلول هذا الأمر .

اذن فقول رسول الله : ( ما أنا بقارىء ) كلام منطقي مع قانون بشريته والكلام الأعلى في ( اقرأ ) كلام منطقي مع قدرة من يأمر . . هنا تبدو ذاتيتان : ذاتية آمرة جازمة ، وذاتية ممتنعة نافية . هذا يدلنا على أن الرد على من يقول : ان القرآن انما كان خواطر محمد ، أو صفائية اشراقية في نفسه ، وهو الآمر ، نقول : لو كان الآمر لما كان الممتنع . كيف يجتمع امر وكيف يجتمع معه امتناع ؟ لو أن الأمر لما كان الامتناع . اذن فهنا تأكيد على أن هناك ذاتين : ذات أعلى ، وذات بشرية . فالذات الأعلى تأمر برصيدها من الاقتدار والذات البشرية تنفي بما عندها من العجز . اذن فالموقف موقف صدق من الآمر ، ومن الممتنع .

حين ذلك ما الذي ينهي هذا النزاع ؟ أمر من أعلى بجزم ، ونفي من أدنى . ما الذي يخرجنا من هذا الأمر ؟ لا يخرجنا موقف الضعيف ، وانما يخرجنا منطق القوي . لماذا ؟ لأن القوي في قدرته أن يفيض على الضعيف ما يجعله يؤدي مدلول هذا الأمر . فقال ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ وانظروا إلى أفعل التفضيل في ( الأكرم ) ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فمن علم أول بقارىء ؟ .

اذن لا بد أن تنتهي المسألة الى ان أول بقارىء ، لم يكن معلما من مثله . بل معلم ، من أعلى منه . وما دام معلماً من أعلى منه ، فأنت لماذا تنفي ؟ أنا لا آمرك ان تقرأ لأنك تعلمت ، وانما آمرك أن تقرأ لأني أردت لك أن تقرأ . وأنت لن تقرأ باسم ما تعلمت ، أو باسم ما ارتضت ، وانما تقرأ ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ثم يعطي الحقيقة القوية فيقول : ﴿الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ والأكرم أفعل تفضيل من كريم . فإذا كان الكريم سبحانه قد أمد خلقه بالأسباب التي توصلهم إلى أن يتعلموا ، ويتواضعوا على رسم الأصوات بحروف تقرأ ، تلك صفة الكريم ،

وهبت جميع الخلق ، فما هو مدلول الإكرام هو أن يجعلك تتعلم وإن لم تتلق ذلك .

الرسول حينما يتعرض لهذه المسألة ، نحن نعرف في تاريخ السيرة ، كيف أجهد الوحي رسول الله ﷺ ؟ وكيف كان يقول في أول الوحي بعده : زملوني دثروني . . وكيف قال في أول اتصال الوحي به : فغطني حتى بلغ مني الجهد . وكيف تروي السيرة : وان جبينه ليتفصد عرقا . . كل ذلك ظواهر مادية ، هذه الظواهر المادية ، لا بد أن يكون فيها اجهاد مادي . وما دام فيها اجهاد مادي ، لا بد أن تكون فيه كما سبق أن قلنا تحولات كيماوية في ذاتيته البشرية ﷺ لأن ملكا أعلى سيلتقي ببشر ، فلا مفر من أحد امرين : الأمر الأول اما أن ينتقل الملك من ملكيته إلى بشرية تساوي بشرية الرسول فيتكلم معه ، وحينئذ لا يكون عند البشر مجهود ، لأن العملية صارت من الملك : وتمثل له بشر وكلمه فهو لا يزال على طبيعته البشرية . . واما أن يحصل التحول منه ﷺ ، فتصفو نفسه ، وتهتز بشريته ، حتى يمكن أن تلتقي البشرية بالملكية . ذلك هو أشق أنواع الوحي على رسول الله ﷺ . وان كان هذا هو أشق أنواع الوحي على رسول الله ﷺ ، الا أنه اكد الوسائل في صدق بلاغة عن الله . لأن الملك اذا تمثل ربما يكون الظن بشرا أعلى من بشريتي يكلمني ويخاطبني وينقل لي كذا فليس في ذاتيته ﷺ دليل الاتصال الخارجي .

أما أن يحدث في تكوينه شيء ، ترتجف بوادره ، ويتفصد جبينه عرقا ، ويحصل له ما يحصل ، فهذا أمر ذاتي فيه . فحينما يأتي له علم عن هذا الطريق ، يعرف أن ذلك علم عن طريق غير عادي ، يقوم يثبت فيه ما على رسول الله ﷺ ، ومعه دليله ، ان ذلك ليس أمرا عاديا ، لا ببشر ، ولا بكلام من وراء حجاب .

ولذلك اذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ . اذن وسائل اتصال الحق بالخلق ثلاث : وحي ، يعني الهام يقذفه الله في قلبه . ( وان روح القدس نفث في روعي ) وقلنا الفرق بين هذا وبين أي خاطر بشري ، أن الذي ينفث في روعه يكون مع النفث في الروع دليل صدقه وأنه من الله ، لا يشك فيه . بدليل اننا قلنا عندما قال الحق لأم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قلنا هل امتثلت أم لم تمتثل ؟

امتثلت . . . أروني أية امرأة تخاف على وليدها ، فقل لها : لما تخافي على ولدك ارميه في البحر . أي منطق الواحد يصدقه . لو لم يكن مع هذا الخاطر الذي جاء في روعها انها تلقيه في البحر ، انه خاطر ليس بشريا . وليس شيطانيا ، وانما هو خاطر من الله ، ما انصاعت الى تنفيذ الأمر المخالف للفطرة البشرية . كيف تنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ من الجائز أنها لما لا ترميه في البحر ان جنود فرعون لا يجدوه ، ان فرعون يلغي أمره ، انهم لما يبحثوا عنه تخبئه في أي مكان . فكيف تنقذه من موت مظنون وترميه في البحر وهو موت محقق ، لو لم يكن الأمر معه أنه من الله ؟ ويطمئنها الطمأنة البشرية « ولا تخافي » أي في أمر يأتي مستقبلا « ولا تحزني » على أمر يفوتك ماضيا وهو أنك ستلقيه ﴿انَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني نجاته ليس لأمر يهمك أنت ، ولكن نجاته لأمر يهمني أنا لأن له عندي مهمة . وما دام له عندي مهمة وسأبعثه رسولا ، فأنا الذي أحافظ عليه . ولذلك سألقي أوامري الى كائن من كوني هو البحر ، ﴿إقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ساعة ما قال لها اقذفيه في التابوت في ساعة ما صدر هذا الأمر لها ، صدر الأمر للبحر يا بحر ألقه في الساحل ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ أمر باللام .

اذن فهذا ادل على أن النفث في الروع من جهة علوية الهية . اذن ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ الاَّ وَحْياً﴾ هذه هي الطريقة الأولى ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم الحق سبحانه وتعالى موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ يرسل رسولا الذي هو واسطة الوحي ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ جاء من الملائكة اصطفى رسولا ، قمة ومن البشر اصطفى قمة ، فالقمتان تلتقيان . حين تلتقي القمتان : قمة الاصطفاء الملكية ، وقمة الاصطفاء البشرية ، لا بد أن يحدث تحويل في واحد منهما . هذا على طبيعته ، وذلك على طبيعته لا ينفع .

وبعد ذلك لما اجهد رسول الله ﷺ ، بهذه المسألة ، الحق أراد أن يطمئنه على شيئين : على أن المسألة لن تكون هكذا باستمرار ، ولكنا سنرفع ذلك الحمل الذي تتكلفه ماديتك ، وتبقى حامله وتعبان عليه قال له بعد ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ قال له ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ ولذلك ما اشتكى رسول الله ﷺ الوحي بعدها .

لماذا ؟ لأنه ربيت فيه طاقة الشوق إلى الوحي ، وتربية طاقة الشوق للأمر الشاق تهون المشقة وتجعل الانسان لا يشعر بها ، فاذا جاء الانسان وعرض على انسان أمرا شاقا ثم رأى ثمرة ذلك الأمر الشاق حلوة ، بعدما يهدأ وبعدما يرتاح ، ذهب التعب وبقيت حلاوة ما أوحي اليه . حلاوة ما أوحي هذه تجعله يشتاق ان غاب عنه الوحي ، ساعة ما يشتاق وجدت في نفسه الطاقة الاقبالية ، ساعة ما توجد في نفسه الطاقة الاقبالية والشوق تجعله لا يشعر بالمتاعب بعد ذلك .

وبعد ذلك الرسول ﷺ ، كما أنه كان أميا لا يعرف يقرأ ، فهو في هذه السورة سمع ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ وبعدين قال له أيضا ﴿فَلَا تَنْسَى﴾. الرسول لم يشتهر عنه أنه راوية . لم يكن راوية اخبار . ولا راوية شعر ولا حافظ انساب ونسابة . يعني لم يعتد ذهنه على أنه يتلقى معلومات وبعدين يقولها . كالحافظة في غيره . فلما يجيء بوحي ويجعله يقرأ ، انما يقرأ عليه النجم ، قد يطول النجم ، ربعين ، ثلاثة أرباع . كيف يقوله بعد ذلك ؟ قرأه انما كيف ؟ قال له ﴿ سنقرئك ﴾ هذه واحدة و ﴿فلا تنسى﴾ بشرتان اثنتان . هذه أول حيثية جعلت السورة حبيبة على رسول الله ﷺ . وبعدين قال له : انك تتلقى ، ستقرأ ، وبعد ذلك ستنقل ، يبقى لا تنسى ، تريد أن تطبق ، لما تطبق يعني تخرج الكلام المبدئي النظري ، والقضايا المطلوبة منك الى حيز السلوك ، سيكون فيه مشقة اخضاع حركة حياتك لمنطق ، قال له : لا تخف من هذه أيضا ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ سنيسر لك الأمور . . فاذا ما استقر لك الاقراء ، وعدم النسيان لتبلغ الناس ، وتيسير تطبيق السلوك ، اذن ماذا عليك أن تعمله ؟ تنقل ذلك الاشراق والنور الى غيرك . ولا تظن أبدا أن الناس كلهم سيكون على قلوبهم ختم ، فانه ما من ذكرى الا وهي نافعة ، ان لم تنفع الكل تنفع البعض . قال له ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ، سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ . وبعدين يكرر على الذي سمع الذكرى ويقول ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ . ثم يختمها بمبدأ عام ، وهو أن ما أتيت به من أصول ذلك الدين والتكليف ، أمر موجود من أزله . يعني أنت لم تخرج بذلك الأمر الجديد عليك هذا ، عما جاء أولا ﴿إِنَّ هَذَا

لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ . اذن فتلك هي حيثيات حبه ﷺ لهذه السورة .

وبعد ذلك ننتقل الى فقه السورة في ذاته ، نجدها بدئت بأمر هو « سبح » وسبح معناها طلب المتكلم وهو الحق ، من المخاطب أساسها وهو رسول الله ومن كل من يتبعه بالتسبيح . فما معنى التسبيح ؟ التسبيح هو التنزيه . وما معنى التنزيه ؟ أن يوجد شيء لم يوجد له نظير في الشكل ، أو نظير في الجملة ، فتتوهم أن هذا يساوي هذا . نقول : لا . . هذا ليس من هذه الطبيعة . يعني لله وجود ، ولخلقه وجود ، ولكن نزه وجود الله عن وجود الناس . لأن وجود الناس عن عدم ، ووجودهم الى عدم . ووجود الحق لا عن عدم ، ولا الى عدم . اذن فصفة الوجود قدر مشترك الا انك نزهت الحق سبحانه وتعالى ، ان وجد وصف في مخلوقاته يساوي وصفه في شكلية اللفظ . فاذن التسبيح معناه التنزيه . تنزيه المأمور به « سبح » يعني أمر مني بأن أنزه .

لكن يلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى قال ﴿سبح اسم ربك﴾ فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : ( اجعلوها في سجودكم ) . ولذلك نقول الآن : سبحان ربي الأعلى . لو على منطق لقال رسول الله ؛ قولوا سبحانه اسم ربي الأعلى . الا أن القرآن لما قال ﴿سبح اسم﴾ الرسول قال : سبح ، سبحان رب . وأيضا فالآية نفسها ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ثم جاء بالحيثية . الحيثية الأولى انه أعلى . ومعنى التنزيه انك تنزه الأعلى أن يكون مثل الأدنى . وما دام هو أعلى وليس عال ، لأن عالي هذا وصف من خلقه ، يعني يوصف به بعض خلقه . يقول الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم مع ابليس لما امتنع عن السجود قال له ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ما معنى من العالين ؟ كأن الملائكة كانوا مقسومين قسمين : قسم له علاقة بتلك الخليقة في الكون ، من حفظة ومن رقيب ومن عتيد ، ومن الملائكة الموكلين بتدبير كثير من الأمور ، وهؤلاء لهم علاقة بهذا المخلوق الذي هو آدم . فاذا كان الله قد أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فإنه انما أمر الملائكة الذين لهم علاقة بهذا المخلوق . . يديرون أمره ، أمر النواميس ، أمر الكون . . أما هناك ملائكة لا يدرون من آدم ، ولا يعرفون شيئا وهم اسمهم المهيمون في الله . لا يعرفون الا الله . فمعلومات ثانية ليست عندهم أبدا . فقال له أنت استكبرت

عن الأمر أم ظننت نفسك من العالين الذين لم يشملهم الأمر ؟ اذن فكلمة عال أطلقها الله على بعض خلقه . فلما يقول ( الأعلى ) يبقى أخذ وضع آخر .

وبعد ذلك قال وكيف لا يكون الأعلى ؟ يبقى اذن ( الأعلى ) حيثية تنزه . والذي خلق فسوى ، حيثية الأعلى ، لماذا كان أعلى ؟ لأنه خلق ، وما دام خلق ينفعل لها اعداما . اذن الذي خلق حيثية لمن ؟ يبقى هو أعلى من المخلوق ، لأن المخلوق انفعال للقدرة الخالقة . وما دام منفعل للقدرة الخالقة ايجادا ، حيثية للأعلى .

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ﴾ ولم يخلق فقط وأوجد من عدم على أي صورة ؟ لا . . . ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ وبعد ذلك يشرح هذه التسوية فيقول ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ جعل لكل شيء قدرا ، جنسا ، ونوعا ، وتشخصا ، وعمرا . . وبعد ذلك هدى كل مقدور الى ما قدر إليه . . كيف ؟ تجيء تستقرىء الكون تجد العجب ، الانسان العاقل الذي سما بفكره في الكون ، وفكره يجعله يستنبط أشياء كثيرة ، وهو فاهم أنه تميز عن ذلك الكون ، نقول : لكي نفهم أن المسألة ليست نتيجة عقلك . ان عقلك قد يدلك على كثير من الخطأ والبوار . لأن عقلك سيصادمه حاجة ثانية ، هواك . وآفة الرأي دائما الهوى . الهوى يزين للواحد أمرا فيجعله يلجأ الى هذا الطريق لماذا ؟ ليس لأن عقله قال هكذا . بل لأن الهوى أفسد على العقل حكمه . فيقول : التي ليس لها فكر من المخلوقات انظر اليها . لكي ترى أنني ساعة ما قدرت هديت كل حاجة أم لا ؟ مثلا جنس النبات هذا من بذرة ، والبذرة نبات بالقوة لا نبات بالفعل . ومعنى نبات بالقوة أنها صالحة لأن تكون نباتا ان هيأت لها بيئتها . تظل في مخزنها تبقى هكذا . انما نضعها في تربة خصبة ورويناها تبقى صالحة للنماء . تبقى الحبة نبات بالقوة . يعني فيها قوة أن تكون نبتة . وبعدين تبقى نبتة بالفعل عندما تضعها في بيئتها وترويها . أنظر التقدير . يقول لك امسك هذه الحبة تجدها لما توضع في التربة ، مثلما تقول نبتها مثل النابت ، تبتدي فلقتاها تتضخمان قليلاً وبعد ذلك تطلع الزينة البسيطة التي في الوسط والتي تكون الجذر وتظل الفلقتان تغذيان الجذر الى أن يقوى ويصبح له شعيرات تمتص من الأرض تعطيان له الغذاء . ولذلك كل ما يأخذ الجذر خطه ، كل ما الفلقتان ترقان . اذن الحبة نفسها ، الفلقتان فيهما قوتها إلى أن

يصبح لها قوت ذاتي وبعد ذلك لما يصبح لها شعيرات وتمتص فعلماء النبات لما جاؤ وا يتكلمون قالوا : ان النبات يأخذ بخاصية الأنابيب الشعرية . نقول : صحيح والأنابيب الشعرية يعني الأنابيب الدقيقة جدا التي قطرها ضيق جدا جدا جدا . ولذلك تجد ضيق قطرها يجعل السائل يرتفع فيها عن منطقة الاستطراق مع أن السائل ضروري يستطرق ، ان اتسعت لتنزل وتبقى مستطرقة . شعرية جدا فيطلع يتغذى بقانون الاستطراق .

سأجيء بحوض واضع فيه عدداً كبيراً من العناصر وأذيبها في الماء. وبعد ذلك سأجيء ببعض الأنابيب الشعرية وأضعها في الحوض . وأنظر ماذا ستأخذ هذه الأنابيب ؟

ستأخذ السائل بكل خواصه الذائبة فيه . لكن هل فيه أنبوبة تأخذ سائل عنصر وتترك عنصرا لا تأخذه ؟ هذا هو الكلام الدقيق . يبقى اذن نحن لما نرى الشعيرات نقول ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وجاء بالماء لأنه هو المذيب للعناصر ، وبعد ذلك ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ لأن الأنابيب الشعرية التي يقولون صحيح ترتفع ، انما التميز هذا كيف ؟ الشعيرة هذه تميز أن هذا العنصر هو غذاؤ ها وتدع العنصر الثاني ؟ هل فيه أنبوبة شعرية تأخذ عنصرا من السائل وتترك عنصرا آخر ؟ لا تأخذه كله . لماذا ، لأن الذي عمل الأنابيب لم يهدها بخلقته انها لا تأخذ الا الذي تريده. لكن الحق سبحانه وتعالى « قدر فهدى » فيقولون : خاصية الانتخاب . نقول : لا تلف وتقول خاصية الانتخاب . ما معنى خاصية الانتخاب ؟ ان معنى خاصية الانتخاب يعني خاصية الاختيار . يعني تنتخب ما يريده ، وما دام خاصية اختيار لازم يكون فيها ما ترجع به الاختيار . لماذا اختارت هذه ؟ . . اذن أيضا وأنت قلت التسمية خاصية الانتخاب الغذائي ، يبقى معنى هذا ان فيه انتخاب يعني معناها أنها تأخذ المختار وتدع غير المختار ، فمن ألهمها هذه المسألة ، ونحن نعلم أنها ليس عندها فكر على نظرنا نحن ؟ تبقى التي تعمل هذه العملية تقول : انها أحذق من الذي له فكر . لأن الذي له فكر يمكن شيء يكون ضارا ويشمط ، ومع ذلك يقول جربه . انما هي،الذي لا يصلح لها لا تأخذه أبدا . تجيء للانسان وقد شبع وأكل ، فتحلف عليه والله لتأكل هذه فيأكلها . كمان هذه فيأكلها .

لكن تعال لحيوان بعدما شبع أمسكه وافتح فمه واعط له عود برسيم زائد عن حاجته لا يمكن . اذن هو بغير فكره ، بما قدره الله وبما هداه الى صالحه ، لا ينحاز الى شيء غير ذلك .

اذن تقدير الله ، وهداه لمخلوقاته دون الانسان يقول له : ان الفكر الذي تظن أنك متميز به . . فأنا معطي لحاجة ليس لها فكر ، خواصا ، وخاصيات أنت لا تقدر عليها . أنت مثلا تجد شجرة ، هذه الشجرة امتنع عنها الماء لا يوجد شيء يذيب العناصر . فهي بطبيعتها تستغني عن المهم وتأخذ الأهم . تجعل الورق يذبل لكي يغذي الساق . والفروع الصغيرة تذبل وتضحي بنفسها لكي يبقى هذا الساق ، ويذبل الساق لكي يغذي الجذر . ما دام الجذر باق سليما ، من الممكن لما يجيء له قليل من الماء تعود الحياة للشجرة . اذن كل الشجرة : أوراقها ، وأزهارها ، وأغصانها الرفيعة والكبيرة كلها تضحي لكي تخدم السيد ، ومن هو السيد في النبات ؟ هو الجذر .

لكن في الإنسان ، الإنسان السيد فيه هنا في العقل . مادام هذا سليم خلاياه لم يجر لها شيء يبقى كل حاجة ممكن تعوض . ولذلك تنظر الى حكمة الحق فيما لا يدخل تحت عقلي ، وتحت عملية الفكر في الانسان الذي يدخل تحت عملية الفكر ، مثلما قلنا : يبقى عارف أن هذا يضر ومع ذلك . يجربه لآخر لا يعملها أبدا . فالحق سبحانه وتعالى لا يحرم الانسان أيضا من ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ بدون تدخله . فيأكل الانسان وبعد ذلك تطرأ عليه فترة النمو . معنى فترة النمو ، أن الداخل له من الغذاء أقل من الخارج منه من الفضلات .. الداخل من الغذاء هذا جاء لكي يعوض الحرارة التي راحت من الحركة والطاقة . زاد عن هذا فيبني خلايا زائدة في الجسم . هذه ليست من شغل الانسان ولا يعرف عنها حاجة . وتعمل له بعض الشحم ، تضخم عضلاته ولحمه . تعمل عملية فيه ، بحيث اذا امتنع عنه أسباب الحياة ، أو أسباب البقاء ، الذي هو الطعام ، يبتدىء ﴿قدر فهدى﴾ تعمل عملها هنا البعيد عن فكري تماما يبتدىء الجسم يتغذى الغذاء الذاتي وليس لي فيه حشرة أبدا يأخذ من الدهن الذي تراكم عنده من الزائد الذي أكله فيبتدىء يحللها له التحليل الذي يصلح غذاء ووقودا له . ومن

العجب انها مادة واحدة وهي الدهن وتتحوّل الى كل عناصر الغذاء . هذه أيضا من مشكلات العلم . مادة واحدة تتحول الى كل حاجة . وبعدين الشحم يبتدىء يأخذ من اللحم من العضلات . وبعدين لما خالص كده المخ يريد أن يبقى السيد يريد أن يبقى فيبتدىء العظم له الغذاء . يبقى آخر مخزن للقوت الذاتي في الانسان ، الذي ليس بفكره ولا باختياره ، بل بقانون ﴿قدر فهدى﴾ هو العظام . فالقرآن لما يلمح لهذا لا يقول نظرية في كذا ، انه يقولها مباشرة على أنها قضية كونية فيقول عند سيدنا زكريا ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ يعني آخر مخزن ذاتي ضاع وانتهى .

الأعرابي القديم ، أو الأعرابية القديمة تفطن إلى هذا فتقول : ( لقد مرت علينا سنة أذابت الشحم ، وسنة محت اللحم ، وسنة محت العظم ) .

اذن العملية الذاتية هذه ، هي التي تطرأ لنا ، لما الانسان مثلما يقولون يفوت معاد غداه ، يقول إن نفسي انصدت عن الأكل . لا يا سيدي ، لا تكون كاذبا . أنت أصلك تغذيت . لما فات معاد أكلك الذي في فكرك وبارادتك وتذهب تأكل ، ابتدأ الجسم من قانون ﴿قدر فهدى﴾ يعطيك من الشحم فتغذيت . لا تقول نفسك انصدت . يبقى هذا قانون ﴿قدر فهدى﴾ .

تجيء مثلا الحيوانات . طبعا « العلم يدعو الى الايمان » كتاب مؤلف وفيه صور مثل هذه كثيرة . ورحم الله الشيخ سيد قطب نقل في ظلال الاسلام فصول كاملة من كلام الرجل الذي هو رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك عما شرح به قول الحق سبحانه وتعالى ﴿قدر فهدى﴾ طبعا الذي قاله أنا لا أكرره لكي يرجع تاليه من يحب . الذي ذكره عن العلماء يقول مثلا : ان ثعابين السمك ، من الأشياء المدهشة في العلم . ما هي ثعابين السمك ؟ ثعابين السمك توجد في البرك والنهيرات والأنهار . انما لا تخصب الا في برمودا في أمريكا . بمجرد ما يبلغ الثعبان سن المراهقة تجده جاري على مكانه في برمودا ، في هذا المكان من العالم بالذات ولا مكان سواه ، وبعد ذلك يخصب ، ولما يبتدىء يخصب يلقي الاشياء وبعدين يموت . المهم هنا ليس كيف انه عرف يذهب الى برمودا في الأمواج والمسافات الطويلة ؟ والمهم أيضا ان معمول نسبة الذي يعيش في نهيرات وبرك أوروبا . والذي يعيش في نهيرات نيويورك ، لأن الآخر سيأخذ مسافة

أطول . فتعطى له طاقة أكثر من الآخر ، ولذلك قال : العجيب اننا لم نجد ثعبانا أمريكيا في مياه أوروبية ، ولا ثعبانا أوروبياً في مياه أمريكية ، وبعدين الصغير الذي انفقس هناك كيف يرجع الى المكان الذي جاء منه أبوه ، ولا يخطئه أبدا ؟ يذهب الى مكانه ، وبعد ذلك تجيء المسافة فيعود . يبقى هذه أيضا بقانون ﴿قدر فهدى﴾ وجاء عن السلامون ، وعن النحل ، وعن النمل .

يقول : العجيب تمسك النحل العامل ، وترى الخلية ، أخضع هذه الخلية لأدق مقاييس الهندسة لكن أضلاعها كيف صنعت ، وبعد ذلك هات أي مقياس واعطني ضلعا ليس قدر الثاني . . ويقول : لا وليست واحدة على غرفة مخصوصة تعلمها بهذا الشكل . لا . . لهم حجرة قدر كذا الذكران التي ستلقح الملكة لها قدر كذا . الملكة لها حجرة قدر كذا . وفي الافرازات تفرز حاجة تغذي الملكة فقط . . . وفي النمل لما تنظر يقول لك : هات قطعة تمر حلوة ، أو قطعة لحمة ، أو قطعة سمك وارمها . بعد مدة لازم تجد نملا . ما الذي قال للنمل ان هنا هذا الشيء ؟ لا نعرف . وتلاحظ النمل فتجده يحوم حول هذه القطعة . بعد ما يحوم حول هذه القطعة نملة أو اثنتان أو ثلاث ، يتركونها ، وبعد مدة تلتفت تجد عددا من النمل جاء ، هذا العدد لما يحتاط على هذه القطعة يكون في قدرته أن يحملها كيف قدر ثقلها ؟ ولكي تتأكد من صدق هذه النظرية . يقول لك : اعمل هذه ربع جرام وانظر كم نملة ستحضر لحملها ؟ وبعدين اقطع قطعة ثانية نصف جرام وارمها وانظر كم ستجيء تحملها ؟ تجدها ضعف الأولى . شيء من أعجب ما يمكن .

يبقى اذن من قانون ﴿قدر فهدى﴾ لكي يقول ربنا سبحانه وتعالى للانسان المتعالي ، لأن الذي يبعد الانسان عن السماء ، غروره بعقله . يقول له : ان عقلك هذا دون الذي ليس له عقل . لماذا ؟ لأنني أعطيت هذا قوانين . مثلا الصقر قوة أبصاره أكبر من تلسكوب . الهدهد . أولا هذا الهدهد الحيوان الذي غذاؤه ليس من على ظهر الأرض أبدا . غذاؤه لازم من تحت الأرض . كيف يتنبه الى أن هذه فيها غذاء وينقرها ويحضر غذاءه .

ولذلك تجد العجب في عرض القرآن لهذه القضية لما قال سيدنا سليمان ﴿ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ ، لأُعَذِّبَنَّهُ عَذابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾ انظر هذا كلام ملك ، لكن انظر كلام النبوة ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ ملك انما بعدالة ، عدالة نبوة . بعد ذلك يقول له ﴿أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ هذا كلام في الملك كله . أليس كذلك ؟ انما ملك نبي يقول له وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله لازم يهوج عليها من الجهتين الخاصتين بسليمان : جهة الملك . وجهة الملك ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وجهة النبوة ﴿وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ أنظر إلى دقة الأداء البياني ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ لماذا الهدهد لم يلفته من القدرة الا الذي يخرج الخبء ؟ لأن قوت حياته من الخبء . فأخذ الملحظ الذي مسه هذا الملحظ الذي مسه ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ مقومات حياته . فجاء بالحيثية ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ يلفتنا من هذا إلى أن الانسان حين يتجه الى الحق سبحانه وتعالى ، يجب إن لم يتجه اليه لفضائل ذاته . فليتوجه اليه لفواضل أنعامه . يعني ان لم تكن الذات تستحق ، انك تذهب فقط إلى نعم الذات عليك . ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ . اذن ذلك كله من قانون ﴿قدر فهدى﴾ . .

الطيور التي تهاجر من الشمال الى الجنوب ، وبعد ذلك لا تضل مسارها الطويل الى أن تعود الى بلادها . الفراشة التي تدخل عندك الحجرة ، بعد ما تظل مدة ، تلتفت تجد ذكرها جاء . لما تحجزها في حجرة ، بعد مدة الرادار على ما مشى ، تجد الذكر جاء ، فان وجد النافذة مفتوحة يدخل ، فان كانت مغلقة يظل يحوم حولها من الخارج ، من الذي أعطى له الخبر ؟ . . والنمل عند اعاشته تفاجأ بأنك تجد أشياء بيضاء صغيرة في حجم نصف السمسمة وتتعجب الناس لماذا نجد هذا عند أعشاش النمل . وبعدين أخذوه وحللوه ، فوجدوا هذا الشيء الأبيض هو الزبانة الموجودة في الحب . لا يدخل

النمل حبا بزبانة في عشه ويحفظها . لماذا ؟ لأنها عرضة لما تأتي الرطوبة فتنمو فتهدم عشه كله ، لذلك ينزع الزبانة منها ويرميها خارج العش . ما هذه المسألة ؟ مسألة لافتة . اذن ذلك كله من باب ﴿قدر فهدى﴾ .

هنا الحق لما قال ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ طلب من محمد ﷺ أن يسبح ، وأن ينقل ذلك الطلب إلى أمته ليسبحوا الله الأعلى بحيثيات ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ .

التسبيح ورد في كتاب الله بصور شتى : ورد ( سبحان ) وهذه في أول سورة الاسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ سبحان هذا تنزيه الله لنفسه . فكأن الله منزه نفسه قديما قبل أن يخلق خلقا يطلب منه أن ينزهه . مثلما قال في الوحدانية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اذن الحق يقول : ( سبحان ) لم يطلب من أحد . فكان التنزيه ثابت لله قبل أن يخلق خلقا يأمرهم بأن ينزهوه ، ومادام التنزيه ثابت لله ، اذن تنزيهي لله لن يوجد التنزيه ، ثابت لله قبل أن يخلق ، اذن لله لن يوجد التنزيه . فهو موجود له سبحانه وتعالى . اذن فالفائدة ليست على المنزه الفائدة عائدة الى المنزه .

وبعد ذلك قبل ما يجيء في أوائل السور هذه ، أول سورة سبحان ، التسبيح ذائب في القرآن بأساليب شتى ، لكن في بدايات السور ، التي هي الاستهلاليات ( سبحان ) هذا تسبيح الذات للذات . وبعدين جاء ( سبح ) بمعنى الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مرة ﴿وَسَبَّحَ لِلَّهِ ما في السَّماوَات وَالْأَرْضِ﴾ بالماضي . . يبقى التسبيح ثابت قبل أن يخلق المسبح ، ولما خلق المسبح ، سبح . وهل سبح مرة وانقطع عن التسبيح ؟ لا . . . ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ اذن فيا أيها الانسان الذي تريد أن تعيش في منهج ربك ، لا تشذ عن نغم الوجود في التسبيح . مادام ( سبحان ) لله . ومادام السماء والأرض وكل المسخرات سبحت ، ومادام تسبيحها مستمر ( يسبح ) فلا يكن تميزك عن سائر المخلوقات بفكرك ، مانعا لك من أن تشترك مع الكون كله في نغم ذلك التسبيح . يبقى يقول له ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ حتى لا تكون شاذا . لا تكون الحيثية التي أعطيت لك ، وهي الزيادة في الفكر ، لا تكن عائقا لك عن أن تكون مع من هو أدنى منك . لا تشذ ،

لا تكن نغمة شاذة في الوجود . ومعنى نغمة شاذة في الوجود . ان الوجود كله مسبح ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿وإن مِّن شيْءٍ إلَّا يُسبِّحُ بحمْدِه ولكن لَّا تفْقَهُونَ تسْبيحَهُمْ﴾ نحن نفهم التسبيح على لغتنا بلغة وصوت ، عملية قال : لا . . الأداء لا يشترط فيه الصوت ، لأنك مرة تعمل اداء بدون صوت ، وبدون حركة بالنظرة تعمل أداء . بالنظر الى ابنك أو للخادم ، أو لأي واحد فيفهم ما تريد . اذن فالأدا لا لا يشترط فيه أن يكون بصوت . أنت لما يكون فيه أداء صوتي من فصيلة اللغات ، وبعد ذلك جئت لقوم يتكلمون لغة غير لغتك ، أنفهم عنهم؟ اذن فالصوت في ذاته لا يفهم الا بالتواضع على معناه . . اذن فما دمت لا تفهم التواضع على المعنى المراد ، يستوي أن يوجد صوت أو لا يوجد فاذا كنت أنت لا تفهم ان الدلالات لا تأتي الا بالأصوات . . لا . . كل كوني لكل جنس لغته التي يتفاهم بها ولغته التي يسبح بها ، وان كنت أنت لا تعرف ذلك فليس بدعة . لماذا ؟ لأنك تسمع أصواتا هي شريكة اصواتك اللغوية في مخارجها ، ولكن مؤداها الوضعي لا تفهم منه شيئا .

اذن فأنا أعلم كل جنس اللغة التي يتفاهم بها في صالح ذاته ، واللغة التي يسبح بها .

اذن فاذا ما قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى ﴿وسخَّرنا مع داوُدَ الجِبالَ يُسبِّحْنَ﴾ لا نقول : هذا تسبيح دلالة . لماذا ؟ لأن بعضهم يقول ان التسبيح تسبيح دلالة على الخالق . تبقى أنت فهمته أم لم تفهمه ؟ أنت قلت انه تسبيح دلالة ، تبقى فهمته لكن الذي خلقك ، وعلمها وعلمك قال ﴿ولكِن لَّا تفْقَهُونَ تسْبيحَهُمْ﴾ ان كان تسبيح دلالة تبقى أنت فقهته . يبقى لابدانه ليس تسبيح دلالة فقط . انه تسبيح أدائي ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ . . ﴿يا جِبالُ أوِّبي معهُ﴾ معنى أوبي معه ، يعني أوبي الى الله معه ، ان الجبال مع غير داود أيضا ، لكن ميزة داود ان الحق سبحانه وتعالى أفهمه لغة ذلك الجماد . فجعل تسبيحه يوافق تسبيح الجماد . يبقى مثلما يكونوا يعملون كورس تسبيحي مع بعض ﴿يا جِبالُ أوِّبي معهُ والطَّيْرَ﴾ اذن فقول الحق ﴿وإن مِّن شيْءٍ إلَّا يُسبِّحُ بحمْدِه﴾ لا نقول انه تسبيح الدلالة ، بل تسبيح الدلالة هذا أمرجانبي ، لأن تسبيح الدلالة معناه أن الذي خلقها يبقى نسبحه ، يبقى الطلب منا ، وهي تدل . . لا هي أيضا

مسبحة . ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ .

وبعد ذلك يأتي الحق ويعرض لنا سور ثانية ، سيدنا سليمان والنملة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يبقى هذه متعلمة قانون صيانة جماعتها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وبعدين انظر الحيثية ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ يبقى معنى شكر النعمة هنا انه علمه منطق هذه الأشياء . . .

نجيء مثلا لقصة الهدهد ، وقصة الهدهد عملية عقدية ، ولذلك ما الذي حز في نفس الهدهد قال ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كان الهدهد يعرف القضية العقدية الأصلية ، وانه ينبغي أن لا يسجد الا لله . مادام عارف ا لقضية العقدية الأصلية هذه ، تبقى المسألة تمام اذن فالمهم ان نفهم لغة ذلك التسبيح . ولذلك لما كانوا يقولون : ان الحصى سبح في يد رسول الله . قلنا لهم : لا تقولوا هكذا . قولوا سمع رسول الله تسبيح الحصى في يده . والا فالحصى يسبح أيضا في يد الكافر . يبقى الميزة ما هي ؟ ان رسول الله ﷺ ، سمع تسبيح الحصى . النبي ﷺ يخرج فيجد قوما قد أوقفوا دوابهم ، وظلوا يتحدثون والدواب واقفة بهم وهم يتحدثون ، قال لهم : لا . . اما تجعلوها تمشي بكم ، أم تدعوها وتتحدثوا . . لا تجعلوها كراسي تجلسون عليها . ( انهم يسبحون الله أكثر منكم ) فلا تستذله وتعمله كرسيا لأنه ليس مخلوقا لهذه ، انه مخلوق ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ لما تريد تقعد أرحه .

اذن فالكون كله ، بأجناس وجوده ، مسبح للحق سبحانه وتعالى . والذي يفيء الله عليه ببعض فضله ، يسمع ذلك التسبيح ، ويفهم لغة ذلك التسبيح .

اذن فتقول الحق في استهلال السورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي يا محمد ، كن مع الوجود كله منسجما معه ، وأنا بعثتك لتعيد انسجام الانسان مع ذلك الوجود فلا يصح أن تكون النعمة العليا التي خلقتها له ، وهي الفكر ، سببا صارفا ، بل يجب أن تكون سببا داعيا ، ولا تجعل الإنسان يشذ عن ذلك الكون كله ، ويخرق ذلك النغم . فقول الحق ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ تلك حيثيات الأعلى ،

الأعلى حيثيات ( سبح ) .

انتهينا الى تحديد حيثيات أمر الله سبحانه وتعالى ، في قوله ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وذكرنا أن كل ما ورد في السورة انما هو حيثيات لهذا التسبيح خلقا ، وتسوية وتيسيرا لرسول الله ﷺ في استقبال الوحي ، واحتفاظ بما استقبله . وتكلمنا عن المبادىء الأساسية التي طرحتها السورة في قوله سبحانه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ وذلك هو أمر العقيدة ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ وهذا بالسلوك الحركي وهو أمر النطق باللسان والإقرار ﴿ فَصَلَّى ﴾ وهذا هو أمر السلوك الحركي في الحياة . وبينا كيف أن الحق سبحانه وتعالى حينما جاء في الحياة بقوله ﴿فَصَلَّى﴾ انه جمع كل ألوان العبادة الشعائرية والعبادة التعاملية للمجتمع الإسلامي . ثم بينا أن الحق سبحانه وتعالى لم يكلف هذه الأمة أمرا يكلفه الأمم السابقة وانما جاء على نظام أن العقيدة أساس استصحبته الحياة من لون آدم ، واستصحب الحق سبحانه وتعالى تذكير الغافلين بارسال الرسل . وقلنا إنه أشار الى ذلك بقوله ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ .

وبقي أن نبين أن الصحف الأولى لم تكن مقصورة على صحف ابراهيم وموسى ، وانما الصحف التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله ، أنزل على ( شيس ) ، وأنزل على ( ادريس ) وأنزل على ( ابراهيم ) وأنزل على ( موسى ) والصحف غير الكتب التي قال الحق عنها أيضا التي هي التوراة ، والانجيل ، والقرآن ، والزبور .

والحق سبحانه وتعالى حينما قال ﴿انَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ يؤكد حقيقة عقدية ، الحقيقة العقدية التي لا تتغير مع كل رسول أبدا ، وان تغيرت بعض التشريعات فانما هو التغيير المناسب للبيئات وبما يجد فيها من أقضية تقتضيها الحياة بالطموحات الذهنية في الوجود . فالتشريعات حين تختلف ، تختلف في هذا القدر فقط ، وهو حركة الإنسان في هذه الحياة . أما الأسلوب العقدي ، أما الصلة الشعائرية التي بين الله وبين عباده ، فهذا قاسم مشترك بين كل الديانات .

وقد ورد في كتب الحديث بأن أبا ذر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عما كان في ﴿الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ فأخبره رسول الله ﷺ ان ما كان في

الصحف لابراهيم انما هو أمثال وعظات وعبر . ومعنى ذلك انه يتعلق بوجدانيات الدين ، لا يتعلق بها تشريع حركي في الحياة ، وانما هو يتعلق بوجدانيات الدين واستحضار الصورة العقدية في كل تصرفات الحياة . فسأله أبو ذر رضي الله عنه عن بعض هذا فقال [ مما أنزل في صحف ابراهيم خطاب للملوك ( أيها الملك المغرور المتسلط على المبتلي أنا لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض وانما بعثتك لترد عني دعوة المظلوم . فاني لا أردها ولو كانت من كافر ) . وفيها أيضا يقول : ( على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله ( يعني مجنونا ) أن تكون له في دنياه ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ( أي يعيش في شحنة روحية مع ربه ) وساعة يحاسب فيها نفسه ويتذكر فيها ما صنعه ، وساعة يخلو فيها الى حاجته من الحلال ، ويقول في تلك الساعة : فان في تلك الساعة عوناً لتلك الساعات الأخرى ، وتفريغا للقلب واجماعا له ) ويقول : ( وعلى العاقل أن لا يخلو أمره من ثلاث ) مرمه لمعاش ( يعني يزاول بعض حرف الحياة لمعاشه ) وتزود لميعاد وتلذذ في غير محرم). يعني هذا هو المنهج الذي يجب أن يكون للمؤمن بالله : مرمه للمعاش ، تزود للميعاد ، لكي يخرج من قوله ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وبعد ذلك أن يتلذذ بغير محرم يبقى هذه هي الأشياء الثلاثة التي هي المنهج ولذلك كان بعض الصالحين حين سئل عن منهجه في الحياة قال : علمت أني لا أخلو من نظر الله تعالى طرفة عين فاستحييت أن أعصيه . ما دام موقن بأن ربنا ناظر اليه دائما ، ساعة ما يوقن بأن ربنا ناظر إليه دائما يستحي من أن يقع في المعصية وعين الله تراه . والا فهاتوا لي انسانا يعتدي على محارم واحد مثله وعينه ناظرة اليه. ولذلك يقول الحق في الحديث القدسي : « ان كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في ايمانكم وان كنتم تعتقدون اني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين اليكم » ان كنت تعتقد أني أراك ، أنت لما زميلك يكون يراك هل تقدر تعتدي على محارمه وهو يراك ؟ يقول لا . . اذن لماذا جعلت الله أهون من خلقه ؟ : « ان كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في ايمانكم وان كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم » .

الرجل يقول : علمت اني لا أخلو من نظر الله تعالى طرفة عين فاستحييت أن أعصيه . وعلمت أن لي رزقا لا يتجاوزني ، وقد ضمنه الله لي ، فقنعت به . وعلمت ان علي دينا لا

يؤديه عني غيري فاشتغلت به . وعلمت أن لي أجلا يبادرني ، فبادرته .

لما سئل حاتم عن المنهج قال : ( اجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه .واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه ) . . ثلاثة . .

اذن فالصحف الأولى ، كان معناها شحنة دينية ،شحنة عقدية ، تجعل الإنسان دائما على ذكر من ربه .

فقال : وما كان في صحف موسى ؟ .

قال : ( مثال كلها . عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح . ولمن أيقن بالحساب كيف يضحك . ولمن أيقن بالقدر كيف يغضب ) .

اذن كل هذا شحنات عقدية لكي تربي الانسان على هذه العقائد ، التي تجعله يزاول مهمته في الحياة على المبدأ الذي يقوله الحق سبحانه وتعالى ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فهات انسان لا يأسى على أمر فاته ، ولا يفرح في أمر يجيئه . يظل مثلما قال المرحوم الرافعي وكن رجلا كالضرس يرسو مكانه ليمضغ لا يعنيه حلو ولا مر .

بعد أن يختم الحق سبحانه وتعالى السورة بقوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ نحب أن نعرض لماذا أخذت قضية ( سبح ) هذه الضجة وهذا الحشد من الحيثيات ؟ لأن التسبيح هذا هو الأساس العقدي . لو نظرت إلى مادة التسبيح في القرآن . أولا : التسبيح من سبح . ومعنى سبح كما نعرف نحن انه طفا على الماء . يعني ثقله لم يخلده إلى هوة القاع وسبح . فالسبح لون من تعالي الحركة على القانون القسري في جذب الأشياء للقاع . واذا نظرت إلى هذا المعنى وجدته هو المعنى المطلوب في ( سبح ) . المادة واحدة . ( سبح ) يعني استعلى . انه استعلى بمن ؟ بنفسك ؟ استعلى بربك . كل حاجة تعرفها عن حادثات ، أو عن وجود ، فاعلم ان ربك فوقها . كل ما خطر ببالك غير ذلك . هذا معنى اللقاء الذي بين « سبح اسم » وبين سبح . ومنه للفرس الذي يجري جريا مستويا . ومعنى جريا مستويا ، يعني في عرف الذين يركبون الخيل لا يهبد ، ولا ينطقك وأنت ماشي كأنك وأنت راكب عليه سابح . أي حركته لا ترجرجك . مثلما يقولوا عندنا لما يمتدحون مطية يقولو ن :يا سلام أنت وأنت تركبها تشرب عليها فنجان القهوة . ما معنى تشرب

عليها فنجان القهوة ؟ حركتها ليست قفزية ، حركتها حركة سابح . ولذلك يقول : سبوح لها منها عليها شواهد . يعني ساعة ما تمشي كأنها تسبح . اذن فالمادة كلها مادة الاستعلاء .

واذا استعرضناها في منطق القرآن ، نجدها انها تناولت ألواناً شتى من الاشتقاق . نحن عندنا في اللغة ، معنى الاشتقاق ان أخذ كلمة من أخرى ، فالمأخوذ منه أصل ، والمأخوذ فرع . يتشكل المأخوذ من المأخوذ منه بموضوع أخذه . فمثلا كلمة ( الضرب ) هذه مصدر أنا سأشتق منه ( ضرب ) يعني حدث من واحد في زمن ماضٍ . ( يضرب ) في زمن حاضر أو مستقبل ( ضارب ) واحد حصل منه الضرب ( مضروب ) وقع عليه الضرب ( مضرب ) مكان الضرب . يبقى إذن اشتقت من لفظ واحد عدة أشياء . المأخوذ منه نسميه مصدر الاشتقاق الذي أسلخ منه .

فإذا نظرنا إلى هذا المعنى في كلمة ( التسبيح ) وجدنا أن أصل المشتقات على ما انتهى اليه العلماء هو المصدر . يعني يوجد المصدر أولا . فلا يوجد ( ضرب ) الا إذا كان في ذهنك معنى الضرب ما هو . لا تقل فلان ضرب فلانا، إلا اذا كان معنى الضرب حقيقة معروف لك . والا لو لم يكن معنى الضرب معروف لك ، لا تعرف ضرب لما نستعرض هذا نجد معنى المصدر هو الأساس في الاشتقاق . على هذا الضوء اذا استعرضنا السور القرآنية التي استهلت بهذه المادة ، وجدنا أن أول سورة استهلت بهذه سورة الاسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ سبحان جاء بالمصدر . وبعد ذلك في الآخر في المفصل وجدنا أنه لما اشتق حاجة الزمن يكون له دخل في الاشتقاق . أنا اشتق لزمن ماض ، يبقى هذا الفعل الماضي . اشتق لزمن حاضر أو مستقبل ، يبقى هذا للمضارع . اشتق عن منشىء حدث ، اشتق عن واقع عليه حدث .

فنجد أن الحق حينما استهل بعض السور ، استهلها أولا بالمصدر الذي هو أصل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ وما دام يستهلها بالمصدر الذي هو أصل ، فكأن التسبيح ثابت لله . التنزيه ثابت لله اصالة ، قبل أن يوجد من يسبحه . فجاء في أول سورة ( سبحان ) فكأن التنزيه ثابت لله ، وان لم يوجد من ينزه . مثلما قال الله ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكأن الله شهد لنفسه بأنه لا اله الا هو قبل أن يوجد شاهد آخر . وبعد ذلك شهدت الملائكة ، وبعد ذلك شهد

أولو العلم . . اذن فالله شاهد لنفسه بأنه لا اله الا هو . كذلك التنزيه ثابت لله ، قبل أن يوجد من ينزه . يبقى ﴿سبحان الذي﴾ للتنزيه الثابت لله . وبعد ذلك يوجد من ينزه .

وبعد ذلك أول سورة ( الحديد ) وأول سورة ( الحشر ) نجد انه استهلها أيضا بالاشتقاق الأول الذي هو الفعل الماضي . قال ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، ومرة يقول ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ، وهل سبح وانتهى التسبيح ؟ لا . . جاء في سورة ( الجمعة ) ( وسورة التغابن ) فقال ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يبقى ( سبح ) في الماضي قبل أن تعلموا ، و ( يسبح ) الآن ،و ( يسبح ) مستقبلا . وما دامت الاشتقاقات الزمنية : الماضي ، والمضارع ، بقي الأمر . يبقى الأول الأصل الاشتقاقي في سورة ( الاسراء ) ( سبحان ) وبعد ذلك تكلم عن الماضي في استهلال سورتي ( الحديد ) و ( الحشر ) ( سبح ) وقال في سورتي ( الجمعة ) و ( التغابن ) . ( يسبح ) . . لم يبق من الزمنية في الاشتقاق الا فعل الأمر . فجاء في السورة التي نحن بصددها فعل الأمر . مادام التنزيه ثابت لك قبل أن يوجد المنزه . ولما وجد : سبح في السماء والأرض . ولا تزال تسبح . يبقى المنطق انك تشغل نفسك ﴿سبح اسم ربك﴾ .

يبقى الكلام في استهلالات السور منطقي ، الأصل المصدر ( سبحان ) ثابت . وبعدين ( سبح ) وبعدين ( يسبح ) وبعدين مطلوب مني أن لا أشذ عن الوجود . أنا أنسجم مع الوجود . ومادام تريد تنسجم مع الوجود تبقى مثلما عمل الوجود أنت تعمل ، يبقى ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ .

شيء آخر لما يجيء أمر بالتسبيح ، نستعرضه في القرآن فنجده يأمرك بالتسبيح ، ولكنك لا تجد المسبح ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ سبح ماذا ؟ لم يقل سبح من . لا سبح ربك ولا سبح اسم ربك . ولا سبح بالحمد ، لم يجيء بشيء من هذا أبدا ، ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ لماذا لم يقل المسبح . فكان الحق يلفتنا بذلك على أن كلمة التسبيح اذا اطلقت لا يمكن أن تكون الا لله الحق . يبقى مفروضة بالمادة . اذا قبل ( سبح ) ليس ضروريا يقول لك سبح من ؟ كلمة ( سبح ) هذه توحي بأنه لا يوجد غيره سبحانه وتعالى . ساعات يحذف المتعلق المفعول لكي يدل على انه متعين ، ولا يمكن للعقل أن يوجد له

شريك . . معنى متعين ان ذهنك لا يذهب الى أن التسبيح سيتجه الى أحد ثان أبدا . لكي تجيء مرة أخرى ، نجده رحمة بالعقل البشري يخاطب الى الاشراق والتنوير ، والشفافية ، انما فيه ساعات الواحد يجري على يده عطاء لانسان ، فلأنه السبب المباشر قد يتعلق به . يبقى عنده حاجتان اثنتان : ربنا الرازق . . ولذلك لما تكلم واحدا يقول لك : انا معتمد على الله ثم عليك . أيضا لم يطاوع نفسه ويقول : أنا معتمد على الله ولا يجيء بثم عليك هذه . لماذا ؟ احترام الأسباب المادية في ذهن الناس . انما لو أنه مستشعر بكيانه الفاعل الحقيقي للأسباب والمسببات ، وبلا أسباب ومسببات . كأن يقول : أنا معتمد على الله . انما تلتفت تجده يقول لك : أنا معتمد على الله ثم عليك . تقول له : أيضا ما زال فيك ( حته ) ، يقوم الحق احتراما لهذا ، للغفلة هذه في الانسان ، يجيء له بالمتعلقات ، يجيء بها مرتين ( سبح ) بدون متعلق . . وبعدين في كل الأوامر الثانية يجيء بها بمتعلق . . لكن مرة يجيء المتعلق بهاء الغائب . ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ . . ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ . . ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ . ثلاث آيات ذكر المتعلق فيها ضمير الغائب . . ونحن نعرف أن ضمير الغائب هذا لازم يكون فيه قبله حاجة تبين لي اسم المرجع . لما تجيء بضمير بدون مرجع ، اذن لا يعرف . لما تقول مثلا ، لقيت زيداً فأكرمته . . ان لم تقل لقيت زيدا ، لما تقول فأكرمته ، واديها لمين ؟ يبقى لازم يكون فيه مرجع ضمير . لماذا ؟ لأن الضمير صحيح من المعارف ، انما من المعارف بقرينة مرجعه . تقول مثلا : لقيت رجلا فأكرمته . يبقى الهاء هذه عرفت انك أكرمت هذا الرجل ، هذا اسمه مرجع الضمير . فلما تجيء ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ﴾ أولا له وسبحه هذه ضمير غائب . قالوا هو في الواقع ضمير غائب ، لكن مرجعه يجب أن يكون في ذهن المؤمن متعينا ، لماذا ؟ لأن ليس فيه غيره يسبح . فكأنه أيضا متعين المرجع . ونحن عرفنا زمان كنا قلنا ان مراجع الضمير لما يجيء المذكور ضمير في الكلام ونريد أن نرجعه : مرارا يرجع الضمير على نفس المذكور . ومرارا يرجع الضمير على مثل وليس نفسه . ومرارا يرجع الضمير على بعض المذكور . ليس كل ضمير تراه ترجعه على المذكور ؟ لا . .

مثلا إذا قلت أنت : جاءني رجل فأكرمته . . يبقى الذي أكرم هو عين الرجل . يبقى عاد على نفس المذكور . انما تصدقت بدرهم ونصفه . يعني أخذت الدرهم ثانيا ونصفته

ونصد منه ؟ لا . . يبقى لم يعد على المذكور عاد على فرد مثل المذكور . أنا تصدقت بالدرهم هذا وانتهيت منه ، وبعدين نصفت درهما ثانيا ، نصف أبقيته ونصف تصدقت . يبقى لم يعد على المذكور ، انما عاد على مثل المذكور ومرة يعود على بعض المذكور . فكأن المذكور نبعضه ابعاضا ، نعود الضمير على بعض منه ونترك البعض الآخر ، مثلا . . الحق سبحانه وتعالى يقول ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ المعمر هو الذات التي ثبت لها التعمير . ومادام ثبت لها التعمير ، كيف يصح في الأسلوب الأدائي أن يقال ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ عمر من ؟ عمر المعمر ؟ مادام ثبت له التعمير لا نقدر نرجع الضمير بالانقاص عليه . يعني واحد معمر عاش ١٢٠ سنة هل نقول ( ولا ينقص من عمره غيته عشر سنوات ؟ مادام عاش ١٢٠ يبقى خلاص ، لا يمكن يرجع الضمير ) . ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ من عمر المعمر ، أم من عمر ذات أخرى لم يثبت لها التعمير ؟ يبقى كان معمر ذات ثبت لها التعمير ، لما جاء الضمير يرجع اليه رجع على الذات بدون ثبوت التعمير ، والا لو كانت ذات مع ثبوت التعمير ، يبقى لا يصح بالمعنى ما يعيش واحد مائة وعشرين سنة أو يعيش عشرين . تقول مادام عاش ١٢٠ سنة غير ممكن اننا نقول انه يعيش ١٠ ويموت . يبقى اذن ذات ثبت لها التعمير ، فلما عاد الضمير عاد الى جزء المعنى وهو ذات فقط ، هذه الذات فقط يبقى لم يثبت لها الضمير .

اذن أنا في مراجع الضمير ساعة ما أرى الى مرجع الضمير ، أرى هل مرجع الضمير متعين ، فان كان مرجع الضمير متعينا بأصل الاشتقاق ، وأصل الاستعمال الايماني يبقى ساعة ما تجيء بضمير هنا لا يحتاج الى مرجع . ( الخلاف ) لا يوجد غيره فهنا ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ﴾ لأنه لا يسجد الا لواحد ، ولا يسبح الا لواحد . فكأن هذه الحقيقة الانسانية قائمة مقام مرجع الضمير .

وبعد ذلك مرة يجيء ( سبح من غير المسبح) . ومرة يجيء بالمسبح لكن بالضمير ، لاستشعار أنه هو نفسه دليل مرجعه . ومرة يقول ( سبح اسم ) مثل سورتنا . . و( وسبح اسم ) هذه هي وحدها في القرآن . . وبعدين لما جاءت في ناحية الاسم يقول ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ( لم يقل سبح اسم ربك الأعلى ) مثلما قال في سورة ( الأعلى ) . . وفي آية

ثانية ﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم﴾ مثلا في سورة الحاقة ﴿وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم﴾ يبقى في مادة التسبيح مع الاسم ذكرت مرة متعدية بنفسها ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وثلاث مرات ذكرت ﴿فسبح باسم﴾ .

الاسم ذكرت مرة متعدية بنفسها ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وثلاث مرات ذكرت ﴿فسبح باسم﴾ .

ما الفرق بين سبح اسم ، وسبح باسم ؟ التسبيح تنزيه ولما أقول ﴿سبح اسم ربك﴾ يعني نزهت وما معنى فسبح باسم ربك ؟ أيضا تنزه . لكن التنزيه بأمر الله ، لأنه هو الذي يعلم ذاته . مثلما تقول : أنا أحكم باسم الله أو باسم الشعب أو باسم القرآن ، أو باسم الدستور . فكأن حيثياتك في الحكم مصدرها هذا . فتقول ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فكأن سبح هنا نزه . لكن التنزيه أولا ليس تطوعا منك ، وليس حكما من بشريتك ، يعني المخلوقية على الخالق ، انما هي بتوجيه الله . لأنه هو الأعلم بذاته . فأنت حين تسبح وتنزه لأن الذي عارف ذاته قال لي نزهه .

ومرة يجيء التسبيح ، لا يقال سبح اسم ، لا سبح باسم ، ويجيء بحاجة ثانية ﴿فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ . . ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ . . مرة قال : ﴿سبح اسم﴾ ومرة قال ﴿سبح باسم﴾ . ومرة قال ﴿سبح بحمد ربك﴾ . نقول : نعم . لأن التسبيح هذا تنزيه وقلنا انه من الله . قال : نزه . فنزهت ، ليس تطوعا مني ، تعبد . وبعدين قد يكون التنزيه تنزيه تسلط وجبروت مجرد عن الرحمة . قال : لا . . ان حيثيات التسبيح أيضا ان الذي أمرك أن تنزهه يعطيك ما لا يعطيه مخلوق له ، ونعمه التي يجريها عليك لا تشابهها النعم التي يجريها المخلوق على المخلوق . فأنت لا تنزهه على انه طراز عال . صحيح هو طراز عال . انما ليس استعلاء عليك ، بل الطراز العالي لصالحك ونعمك ، فلما نسبح لا تأخذها على انك تسبح سلطة ، هذه السلطة تقهرك على أمور ؟ لا . . انها منعمة عليك بأمور ولذلك يجب أن تسبح تسبيحا مقرونا بحمد الله . يبقى تنزيه الله لنعمتك أنت .

لأن لما يكون ربنا منزه عن الخلق ، وليس في خلقه مساوي له في أي شيء ، يبقى اعتمادك ليس على النظير مادام اعتمادك ليس على النظير ، ولا مساوي تبقى هذه نعمة ، هذه النعمة يجب أن تستقبل بالحمد . . ولذلك يقول العلماء : سبحان الله وبحمده . ما معنى سبحان الله وبحمده ؟ يعني أنا أنزه الله وأحمده على أنه علمني أن أنزهه . لأن تنزيهه عن خلقه هذه نعمته الي . لماذا ؟ لأن الخلق كلها أغبار . ومادام الخلق كلها أغبار ، وخلق مساوي لي : يمكن فيه نعمة يحجبها عني . يبقى من رحمته أنه منزه عما يكون في نفس البشرة من الجدة على الآخرة . فأنت ساعة ماتسبح وتنزه الله ، يجب أن تستحضر أن نعم الحق سبحانه وتعالى عليك أولها ، أنه منزه عن سائر الخلق .

ولذلك القرآن لما يجيء بعرض هذه القضية ، يقول أنتم مع بعض ﴿قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَنْ لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ يبقى من رحمتي بكم أني لم أجعل مصالحكم في يد بعض . بل جعلت مصالحكم عندي . وأنا منزه عن الأغبار . يبقى عاصية ومع ذلك يديم عليه نعمته ، ويديم عليه رحمته ، ويبقى عاصيه وهو ذاهب لعمل المعصية ، أيضا يقول : يا ستار . ذاهب يسرق ، يرتكب معصية ويقول : يا ستار . حتى في معصية الله لم يجد الا هو . هذا من فضل الله .

اذن لما يقول ﴿سبح بحمد ربك﴾ يعني نزه ، ويجب أن يكون التنزيه مقرونا بحمد الله . لماذا ؟ لأن تنزيه الله عن كل ما يمكن أن يكون لخلقه ، مصلحته عائدة عليك . وما دام مصلحته عائدة عليك ، يبقى تنزيه بثمن .

فإذا ما استعرضنا هذه المسائل كلها وجدنا أن الحق سبحانه وتعالى ، حينما يطالبني بالتسبيح أي بالتنزيه ، فإن ذلك ليس ضريبة عبودية فقط ، وانما ضريبة عبودية لدينونة عطاء ربوبيته . يبقى العبودية مثلما قلنا في اللقاء الماضي هنا ، عبودية العز . لأننا عندما قارنا بين العبودية في البشر والعبودية للحق . قلنا إن عبودية البشر للبشر ، ماذا تصنع ؟ السيد يأخذ خير عبده ، ولذلك فهي مذمومة . . لكن العبودية لله ماذا تعمل ؟ العبد يأخذ خير سيده . اذن لما يجيء الحق يأمرني بالتسبيح حتى هذا الأمر عائد علي أنا .

يبقى لما يقول : ( سبح ) أو ( سبحه ) أو ( سبح اسم ربك ) أو ( سبح باسم ربك ) أو

( سبح بحمد ربك ) كل حيثيات التسبيح انها أمور تعود عليك . ومن رحمة الله بك أن ليس شبيها في خلقه وانه مستعل .

هذه لها حيثيات ، المأمول انني ماذا أعمل ؟ هنا لما يقول : ( سبح ) أو ( سبحه ) أو ( سَبِّحْ بحمده ) أو ( سبح باسم ) أو ( سبح اسم ) فقول التسبيح هذا ما هي كلمة ( سبح اسم ربك ) نحن نعرف ما هو الاسم ؟ الاسم هو ما وضع ليدل على المسمى . هل أنا أسبح الاسم أو أسبح المسمى ؟ التنزيه في الواقع للمسمى ولكن كلمة ( سبح اسم ) أو ( سبح باسم ) لأن المسمى لا يشخصه عندي ففي ذهني ووجداني الاسم . فساعة الاسم ما يشخص المسمى في وجداني ، وان كان التشخيص مختلفا ، تشخيص بأنه لا يشخص . ما معنى تشخيص بأنه لا يشخص ؟ يعني أنا لما أشخص فلانا ، المسمى هذا سأعطي له اسم ، بمجرد ما يجيء الاسم تجيء الصورة المشخصة للمسمى . فلما أقول اسما من اسماً الله ، ما هي الصورة التي تأتي الى الذهن ؟ انها ليست مشخصية ، ليست مشخصية يعني لها سمات محدودة الا ما وضعه لنفسه . انه كذا وانه كذا ، فلما يكون مخالفا للحوادث ؟ لا أقدر اتصوره بجرم وأشياء مثل المخلوقات . التشخيص يبقى ماذا ؟ التشخيص يبقى مثلما هو قاله على نفسه . لماذا ؟ لأن هذا التشخيص يأتي من المسمى للاسم ليعرف المشخصات ويضع لها الاسم . . ومن لا يعرف المشخصات ويسمى ؟ الذي يقول لك . الذي في بطن هذه المرأة ان كان ولدا سيسميه كذا وإن كانت بنتا سنسميها كذا . يبقى المشخص لم يعرف بعد . لا نعرف ما شكله ولا نوعه يبقى المشخص أن الذي تلده هذه المرأة . . اذن فالمشخص في كل شيء بحسبه .

ساعة ما يقول ان الحق سبحانه وتعالى كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك ، هذا هو تشخيصه . هذا هو التشخيص الذي لا يمكن نقدر نعمل له قالبا . الصفات التي قالها على نفسه أهلا وسهلا مرحبا بها فلما أنت تجيء حتى في الاسم وتنقل التنزيه هذا حتى للاسم . يبقى دليلا على أن ما جعلته اسما لله يجب أن تنزهه على أن يكون اسما لغيره . لا يصح أن تجعله اسما لغيره . حتى وإن كان من المشترك الذي ممكن أن يكون صفة للمخلوق ، وصفة للخالق ، لا تعملهما على التسوية . يعني واحد يعطيني رزقا ، لا أقول هذا رازقي . بصفة تشعر أنه هو والله سواء .

وأيضاً فاذا وجدت اسما من أسماء الحق سبحانه وتعالى ( لغني ) وفيه واحد نصفه بأنه غني . ( عزيز ) وواحد نصفه بأنه عزيز . نقول : نعم إذا أطلق الغنى على اطلاقه لا ينصرف الا لله . انما الغنى كوصف يقول : أنا قابلت فلانا الغني . يبقى الإطلاق الكلي لم يأت . إذا سمعت مثلا ان الله سبحانه وتعالى له أرجل وله سمع وله بصر . لأنك أنت لا تعرف اليدين الا في هذا الشكل المخصوص . ولا تعرف السمع الا بهذه الآلات المخصوصة ، لا نقول لك : شريك ربنا في انه مثلما وجد السمع في مخلوقه يبقى موجود عنده . لماذا ؟ لأن الأصل أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فكل ما ورد من اطارات الأسماء أو الصفات ونظيره موجود في الخلق ، أنت تقتصر على القدر الذي وصف الله به نفسه . وكيفيات الأشياء لا ضرورة لها في الايمان . . الكيفية التي يحملها الشيء ليست ضرورية في الإيمان . ربنا قال : أنا سميع وأنا بصير . يبقى له سمع وله بصر . لا تأخذ أنت من الصورة التي تعرفها للسمع وللبصر في الخلق وتقول ان ربنا سمعه وبصره مثلنا . لماذا ؟ لأنك أنت حاكم بأن ربنا له وجود ، ولخلقه وجود . هل وجود خلقه كوجوده ؟ لا . . ما دام وجود خلقه ليس مثل وجوده لماذا تريد أن تجعل سمع خلقه ، مثل سمعه أو سمعه مثل سمع خلقه ؟ انك في اطار أنه مخالف . الله حي وانسان ( حي ) يتكلم الآن . هل الحياة عندي كالحياة عنده ؟ له حياة ، ولك حياة ، ولكن هل حياتك حياته ؟ لا . . اذن ورد اسم من أسماء الله ، أو وصف من أوصاف الله ، يوجد مثله في البشر ، فأنت أمام أمرين : ان لا تمثل ، وأن لا تعطل . تعطل نقول : لا : ليس له سمع ، لأن السمع هذا للبشر . نقول له : أنت تقيس لأن السمع عندك له آلة وأنت منزه ربنا عن هذه الحكاية . صحيح أنت تريد أن تنزه انما لماذا تعطل النص ؟ هو قال ان لي سمع . فأنت تأخذ على أن له سمع . انما كيفية السمع هذه ليست عملك أنت . والكيفيات دائما ليست محل إيمان .

وعرضنا مرة على أن سيدنا ابراهيم عليه السلام لما سأل ربه ماذا قال له ؟ . قال ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن . قَالَ بَلَى﴾ يعني آمنت ، ولكنه استدرك بعد ذلك ( لكن ) ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ لما يجيء واحد يناقش الأسلوب سطحيا ، يقول : هذا الأسلوب متناقض . أنتم لأنكم تقولون ان ربنا هو قائله تغفلوا عملية

التناقض . انما أنا لما أدخل عليه ككلام وليس في بالي الله . . وأن كلام الله ليس فيه تناقض . . نقول له : أين مذهب التناقض ؟ مثلما قال كثير من بعض المفسرين . .

ما معنى الإيمان ؟ الإيمان هو اطمئنان القلب الى قضية ما ، بحيث لا تطفو الى الذهن لتناقش من جديد ان طلعت ثانيا لتناقش من جديد ، يبقى لم تصل الى مرتبة الإيمان . يبقى عندك مشروع إيمان ولا زلت تبحث فيه ، فكرة . انما ايمان اطمأن القلب الى قضية وانتهى منها ، ولم تعد تخرج مرة ثانية لتناقش من جديد . هذا معنى الإيمان . . . فقوله ( بلى ) يعني آمنت . هذا معنى الاسلوب ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى﴾ يعني آمنت ، ما معنى آمنت ؟ يعني اطمئنان القلب بحيث لا تطفو الى الذهن مرة أخرى لتناقش قوله ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ طلب لمفقود ، عنده . ﴿ليطمئن قلبي﴾ طلب لمفقود عنده . ما دام أنا أسأل لكي يطمئن قلبي ، كأن اطمئنان القلب موجود أم غير موجود ؟ ما دام اطمئنان القلب مطلوب له ، تبقى قضيته في الجواب ببلى في آمنت غير منطقية .

نقول له : أنت تريد خداعنا . انما نحن معطيات الألفاظ . هل قال ابراهيم لربه : يا رب أتحيي الموتى ؟ . . قال له كيف تحيي الموتى ؟ .

إذن حين يأتي السؤال بكيف . يبقى قضية الوجود الأساسية غير مختلف فيها . لما أقول لك . كيف بنيت هذا البيت ؟ يبقى بناء البيت ليس فيه كلام ، البيت مبني انما أريد الكيفية التي بنيت بها البيت . اذن السؤال عن الكيفية ليس له دخل في الايمان . فابراهيم لم يسأل وقال : أتحيي الموتى ؟ انما قال : كيف تحيي الموتى ؟ وهل إيماني بالأشياء ، أو انتفاعي بالأشياء يترتب على معرفة كيفية وجودها ؟ هل أنا لا أنتفع بالميكروفون والاذاعة والتليفزيون الا إذا عرفت كيف تلتقط الأمواج وأكون مهندس كهرباء ؟! ليس ضروريا . انتفاعك بقضية الاختراع ليس شرطا فيه أن تعرف الكيفية . انما لما تكون تريد تعمل وتخترع أو تصلح هذا هو الشرط .

اذن فالقضية الأساسية في آمنت، أي الايمان المطلوب ، أن تؤمن بأن الله يحيي الموتى . هذا القدر يا إبراهيم موجود أم غير موجود ؟ قال : موجود، لكن أنا أريد

الكيفية . الكيفية ليس لها دخل في الايمان يبقى اطمئنان القلب جهته منفكة . معنى جهته منفكة ليست منصبة على الأصل العقدي ، وانما منصبة على الكيفية . الكيفية ليست شرطا . ولكن ربنا قال له : الكيفية هذه كيف تشرح . بالله لو أن أي انسان جاء وقال : أريد أن أعرف كيف مذاقك للتفاحة حين تؤكل ؟ من الذي يستطيع بالألفاظ أن يعطي صورة عن المذاقات الموجودة للتفاحة بالكلام ؟ هذه مسألة لا تنفع الا اذا قلت له : خذ تفاحة وكلها واكفني شرك ما دمت تريد الكيفية فاذن الجواب ببلى غير المسؤول عنه بكيف ، فربنا أعطانا التشريح الذي يجاب به مثل هذا . قال له : العظمة ليست في اني أفعل أحيي موتى هذه مسألة سهلة عندي . لماذا ؟ إن القادر حين يعدي أثر قدرته الى الغير ولا يعدي قدرته يبقى عاجزاً . ضربنا مثلا وقلنا : أنا لا أقدر أحمل هذه الماصة ، فجاء واحد قادر وحملها . القادر من البشر عدى لي اثر قدرته ، وظللت أنا ضعيف ، لكن العظمة في قدرة الحق أن يعدي قدرته الى من لا يقدر . أنت لا تقدر . أنا لن أفعل لك ، أنا أقدر أجعلك أنت الذي تفعل هذه العظمة التي لا يقدر عليها أحد . كل البشر يعدون اثر قدراتهم الى الغير . لكن الله سبحانه وتعالى وحده ، هو الذي يعدي من قدرته الى الغير .

ولذلك قال ﴿وَأُبْرِىءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ نسب الأحياء لنفسه ولكن باذن الله . اذن عظمة ربنا ليست في أنه يفعل للغير . لا . إن عظمته تتجلى في أنه يجعل من لا يقدر ، بنواميس الكون يستطيع أن يفعل . قال : يا ابراهيم ، هات أربعة من الطير ، وبعدين صرهن اليك ، ضمهن اليك وتأكد منها جيدا . أنت الذي تجيء بها : وبعدين قطعها ، واجعل أنت على كل جبل منها جزءاً ، ولا تتركني أنا أقول يا طير أحيي يحيا . لا . . قل لها أنت : احيي تحيا ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ الله . . هذه هي العظمة التي في قدرة الحق سبحانه وتعالى .

إذن فمعنى هذا أن فيه فرق بين الحدث وبين الكيفية التي وقع عليها الحدث . الكيفية ليست ملحظية ايمان وانما الحدث نفسه هو اللي ملحظية ايمان . اذن كونك انك تعتقد أن ربنا له سمع ، وله بصر ، لكن كيفية سمعه ماذا ؟ وكيفية بصره ماذا ؟ هذه ليست لها علاقة بالإيمان . اذن أنا اذا رأيت أن الحق سبحانه وتعالى وصف نفسه بما

يمكن أن يوجد في مخلوقه ، فأنا أنزه . وأقول لكن هذه ليست مثل هذه . لماذا ؟ لأنني ان منعت أكون قد عطلت صفة . ان مثلت يبقى مثلت . ونحن نريد لا تعطيل للنص ، ولا تمثيل للحق .

نقول : ذكر الله سبحانه وتعالى ، مطلوب منا صحيح كثيرا ، انما فيه أماكن يجب أن ينزه اسم ربك عن أنه يذكر فيها ، مثلما قالوا : في الخلاء وحالة التغوط . ننزه اسم ربنا ان نذكره في هذا المحل المستنفر . ولذلك هذا هو السبب والحكمة في أن رسول الله ﷺ علمنا حين نخرج من الخلاء أن نقول : ( غفرانك ربنا واليك المصير ) . لماذا لأن اللحظة التي كان فيها في الخلاء كان لا يذكر اسم ربه . فيقول : يا رب سامحني على هذه الفترة التي لم أذكر اسمك فيها . أو معنى آخر وهو أنه ساعة دخل الخلاء ، ولذلك فيه نص ثان يقول ( الحمد لله الذي اذهب عني الأذى وعافاني ) تصور أن واحداً يكون مثلا عنده هذه الضرورة ولا يجد مكانا يقضي فيه الحاجة . أتعب ما يكون الانسان في الحياة ساعة ذلك . ما الفرق بين احتمال كيانه الداخلي لفضلاته ، واللحظة التي لازم هذه الفضلات تخرج . هذا توقيت غريب . فالانسان يقدر لو لم تخرج هذه وارتاح تلك الراحة ، كانت ماذا تكون . ولذلك هذه المسألة التي استغلها ابن السماك مع المهدي الخليفة . . دخل ابن السماك عليه وينتهز فرصة ليرقق قلبه ويلفته لله . فطلب المهدي كوب ماء . فقال له : يا أمير المؤمنين لو منع عنك هذا الكوب من الماء ، بكم كنت تشتريه من ملكك ؟ .

قال : بنصف ملكي . .

قال : واذا أردت أن تخرجه ، بكم تشتري خروجه ؟

قال : بالنصف الآخر .

قال : ان ملكا لا يساوي شربة ماء لحقيق أن يزهد فيه .

حسن البصري ساعة ما يجيء مثلا يشرب الجرعة . وبعدين يذهب لقضاء حاجته ، يبول مثلا . يقول يا لها نعمة . دخلت لذة ، وخرجت سرحة . يعني حاجة سهلة . نعمة مغبون فيها كثير من الناس . يعني يمكن لا يتذكر فضل الله عليه في وقت العملية فلما يقول : ( غفرانك ربنا واليك المصير ) يعني اما لأنني اغفلت ، يعني تركت

ذكر اسمك في هذه الفترة فاغفر لي ذلك . واما أنك أنعمت على هذه النعمة ادخلت الطعام في جوفي لذة ثم أخرجته سرحا ، بسهولة . وارحتني من هذه المسألة ، أنا يا رب لم أعمل الأعمال التي تجاري هذه النعمة ( غفرانك ربنا واليك المصير ) .

كذلك في أوقات تفرض على المؤمن ، صحيح ذكر الله دائما على باله ، انما مثلا مثل الامام مالك رضوان الله عليه ، كان اذا جاء له السائل يسأله شيئا وليس معه . مثلا طريقتنا نقول له : الله يحنن عليك . السائل الذي جاء يسألك حاجة ، ليس في باله الا انك تعطي له . فلما تمنعه وعندما يسمع الله يحنن عليك هذه ، يعرف أنك لن تعطيه ، فيكون هذا الاسم لأنك لو كنت ستعطيه ، ما قلت له الله يحنن عليك فيقول : وكان الإمام مالك رضي الله عنه ينزه الموقف عن ذكر اسم الله ، لأن السائل يكره كل ما يحرمه العطاء . . وكلمة الله يحنن عليك ، يعني ليس فيه عطاء . عندما يسمع كلمة الله يحنن عليك يمكن نفسه تضيق بها .

واحدة ثكلى وفقدت ابنها الوحيد وو . . الخ فضجت فلا أجيء في أذنها وأقول لها : الله هو الذي عمل هكذا وماذا سنعمل نحن . . قل لها : هذا قضاء لماذا ؟ لأنها تكره هذه العملية ولما تقول لها الله ، يمكن تسخط على ربنا لأنه عمل هكذا . اذن فالمؤمن لبق ، الساعة التي يعرف ان ذكر اسم الله فيها يعطي في نفس سامعه شيئا من القلق ، يبقى الذكر أن لا تذكر . فاذا كنا سننزه اسم الحق سبحانه وتعالى ، ذلك التنزيه ، لازم يكون هذا التنزيه ناضجا على سلوكي ، والا تبقى عملية شكلية .

مثلا الذي يقول : الاسم يذكر في هذا الوقت ، ولا يذكر في ذلك الوقت . أم يجيء وليس عنده مقياس لما يذكر فيه وما لا يذكر . يبقى غير واضع له في نفسه ، يبقى يقول لك هذا كلام يجيء على البال أو لا يجيء .

انما الذي يعمل لها تخطيط يقول : هنا يأتي . وهنا لا يأتي . يبقى دليل على أنه مستحضر دائما قداسة ربه . مستحضر دائما تنزيه ربه .

وبعد ذلك بعدما قال ( سبح ) بدون ذكر المتعلق وبعدين قال ( سبحه ) بالضمير وبعدين قال ( سبح اسم ربك ) وبعدين قال ( سبح باسم ربك ) وبعدين قال ( سبح

بحمد ربك ) نجد أن الحق سبحانه وتعالى ساعة ما يأتي بالأصل وهو المصدر الجامع لكل هذه الأشياء ، كلمة ( سبحان ) مرة يقول ( سبحان الله ) ويجيء باسم الجلالة .

ومرة يقول : ( سبحان ربي ) يجيء بوصف الرب . ومرة يجيء به الموصول ، اسم الموصول ، فمثلا ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ . . ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . . سبحان الله وتعالى عما يجيء بلفظ الجلالة الذي هو علم واجب الوجود بعد ( سبحان ) .

ومره ونحن قلنا حينما يأتي ( سبحان الله ) هذه عطاء الألوهية مثلى قلنا ولكن الرب عطاء الربوبية .

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ لما سألوه وقالوا : لن نؤمن لك الا لما تعمل كذا و تجيء بكذا وتأتي بالله . ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ . الله منزه عن أن أكون أنا مثله . هو يجيء بالآيات أو لا يجيء بها هذه مسألة خاصة به . ﴿قل سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ . . ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ . تجيء بصفات الربوبية ، تجيء ( سبحان ) وبعدها صفة الربوبية ، التي قلنا متعلقها للمؤمن وللكافر . عطاءات الألوهية الذي هو منهج العبادة هذا للمؤمن فقط . فمرة يقول ( سبحان الله ) ومرة يقول ( سبحان ربي ) ويجيء بلفظ الرب .

ومرة يأتي يجيء بالحدث الذي من أجله أن تحكم أنت بأنه ( سبحان أنت تحكم بأنه منزه . كلها في صلة الموصول ) . . يقول مثلا ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ . . ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ . . ﴿سُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ . . .

اذن ساعة ما يجيء بالمصدر ( سبحان ) مرة ( الله ) ومرة ( الرب ) مرة الصلة التي من أجلها تشهد بأنه هو صحيح ليس مثلي . . ولذلك تأتي في الأشياء التي تخرق نواميس الكون . لما تقول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ لأن الحدث نفسه الذي جاء ، خارق لنواميس الكون . وما دام خارق لنواميس الكون ، لا تنسب الحدث لمن جرى عليه ، ولكن انسب الحدث الى من أوقع الحدث . ولذلك الضجة التي كانت

تقوم حول النبي . كيف . ويقولوا : أنضرب اليها أكباد الابل شهرا وتدعي انك أتيتها في ليلة . هذه دعوى كاذبة . لم يدع محمد أنه أتاها في يوم وليلة . انظر الفرق في العبارتين لم يقل : أنا سريت من مكةلبيت المقدس . قال أسرى بي . ما دام أسرى بي ، لا أجيء بالفعل وأنسبه الى البشر ، لأن محمداً مصاحب والمصاحب قانونه ملغى . لأن الضعيف لما يصاحب القوي ، يبقى قانون الضعيف ملغى .

ضربنا مثلا مرة وقلنا : أنا صعدت بابني الرضيع قمة جبل هملايا . يقدر واحد يقول لي : كيف يصعد ابنك الرضيع قمة جبل هملايا ؟ أقول له : أنت لم تعرف تسأل غباء . لماذا ؟ هل أنا قلت ابني صعد انني قلت صعدت بابني . يبقى الحديث مني أنا . أم من ابني ؟ مني أنا ؟ . تريد أن تتكلم في الحدث تكلم فيه معي أنا .

وربنا لما قال ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ يبقى محمد مصاحب . لماذا تظلموا محمداً وتقولوا له : أنت تدعي أنك أتيتها . انه لم يقل أنا أتيتها ، انما قال : أوتي بي ، يبقى الكلام في النسبة للأصل . وما دام قال ( سبحان ) قبلها قال : لا تأخذوا قانون الزمان والمكان ، والمسافة بالنسبة لكم ، لأنني أنا الذي فعلت .. أنا منزه عن قوانينكم .

وما دام أنا الذي فعلت ، لا تقولوا له : نضرب اليها أكباد الابل شهراً . . لأن هذا مخالف لقوانينكم أنتم يا بشر . أنا سأطلب منكم أن تحكموا قوانينكم أنتم . عندكم القاعدة الأساسية ، أنه لما تكون فيه مسافة بين مكانين . ونريد أن نقطعها بمتحرك ، المتحرك تحركه قوة ، نقول : إن الزمن يتناسب مع القوة تناسبا عكسيا ، ستذهب للمدينة تذهب بالسيارة غير ما تذهب بالطائرة . تذهب بالطائرة غير ما تذهب بالنفاثة . الآن الزمن يتناسب مع القاطع الذي هو المتحرك تناسبا عكسيا .

فاذا كانت المسألة الحديثة منسوبة الى الله وهو قوة القوي تطلع النتيجة لا زمن . قانونكم هذا إن القوة تتناسب مع الزمن تناسبا عكسيا . فما دام أنا الذي أسريت يبقى محمد ليس لكم دعوة به . الذي يريد أن يتكلم ، يتكلم في المسألة بالنسبة لي . ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ .

وكذلك ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزوجية التي هي شائعة في الوجود كله ، كنا نعرفها في أنفسنا ، ونتزوج ، ونعرفها في الحيوان ، ونعرفها في النبات انما قول الله ﴿ومما لايعلمون﴾ هذا دليل على أن هذه عملية شائعة في الوجود كله . والا لو كانت هذه هي فقط ، انها معروفة ، فماذا يكون مدلول ﴿ومما لا يعلمون﴾ ؟ . . ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا تعلمون﴾ لو كانت هي المسألة المعروفة لهم فقط ، فماذا كانت ﴿ومما لا يعلمون﴾ ؟ ما هو عطاؤ ها ؟ اذن معنى ذلك ان ربنا احترم العقل المعاصر عن أنه يقول له حاجات قد يقف فيها عقله العلمي ، لكن ﴿ومما لا يعلمون﴾ بعدين لما عقلك سيطمح ستعرف أن مسألة الزوجية هذه شائعة في الوجود . والآن أثبتوها في الجماد ، وأثبتوها في الذرة ، وأثبتوها السالب والموجب . . يبقى اذن ساعة ما يتحكم في الأصل الأصيل يقول ﴿سبحان﴾ يعني هذه لا يقدر أحد يعملها ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ لماذا جاء بكلمة ( ملكوت ) ولم يجيء بكلمة ( الملك ) ؟ ﴿بِيَدِهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . . لأن ( الملك ) هو ما تشهده ، ( الملكوت ) هي الأمور الغيبية أنت تأتي لك بالظواهر ولا تعرف ما هي المحركات وراء هذه الظواهر . ان المحركات التي وراء هذه الظواهر هي هذه عالم ( الملكوت ) ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .

نسأله سبحانه وتعالى أن يعيننا دائما الى أن نكون مسبحين ، لننضم الى موكب الوجود كله .

تسبيحا لله ، وتنزيها له . .

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير سورة ﴿الغاشية﴾

فإذا أردنا أن ننتقل من هذه السورة التي هي ( الأعلى ) ، نجد أن السورة التي تليها في السياق هي سورة ( الغاشية ) ونجد المناسبة وثيقة بين سورة ( الغاشية ) ، وبين سورة ( الأعلى ) فسورة ( الأعلى ) تحدثت حديثا عن الأشقى ، وتحدثت حديثا عمن تزكى . ﴿قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى﴾ وتحدثت عن الأشقى ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ فكأنها تكلمت عن الإيمان وما ينتظر المؤمن من جزاء الله . وتكلمت عن الكفر وما ينتظر الكافر من عذاب الله . فجاءت السورة الثانية أيضا لتوضح هذا المعنى وتؤيده تأييدا في ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ و ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ . وأيضا فالسورة تعرضت الى التذكير ﴿فذكر ان نفعت الذكرى﴾ ذلك في سورة الأعلى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله ﴿فذكر ان نفعت الذكرى﴾ يأتي في السورة الأخرى ليحدد له مهمته تحديدا أساسيا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ وبذلك يكون قد حمل العبء عن رسول الله ، في أن يفهم رسول الله أنه مطلوب منه أن يذكر ، وأن يهدي ، وأن ينتهي الناس الى ما يقول . قال له : لا . . ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ذلك فيه تخفيف من عبء الرسالة عن رسول الله ﷺ ، وتخفيف من عبء من يحملون الرسالة بعد رسول الله ﷺ . . فلا يعنيهم ان يذكروا الناس ولكن الناس لا يتذكرون ، لأن مهمتهم فقط أن يذكروا ، ليسوا مسيطرين على الخلق ، ولذلك يقول الحق في آيات أخرى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ . . ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ . اذن فالحق سبحانه وتعالى بعد أن أطلق التذكير في سورة الأعلى ، حدده بأنه وهذه مهمته ، تنتهي عند ذلك فلا تشغل بالك ، ولا تقلق ، ولا تتعب ، ولا تبخع نفسك ان لم يؤمنوا بعد هذا التذكير . .

وأيضا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ أي طهر عقيدته ، والتزكية تطهير ونماء ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ ذلك منهج القول في الإسلام ( فصلى ) ذلك منهج الحركة والعمل . فكأن سورة ( الأعلى )

لخصت منهج الاسلام ، في أنه تصديق بالوجدان ﴿قد أفلح من تزكى﴾ واقرار باللسان ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ وعمل بالأركان في قوله ( فَصَلَّى ) .

وبعد ذلك فان الحق سبحانه وتعالى في سورة ( الغاشية ) يتكلم عن المنهج الذي يضعه البشر لنفسه ، منهج يتعين في حركة الحياة ، ولكنه لا يأتي له بطائل . واذا ما نظرنا الى الحركة في الحياة وجدنا حتى الذين لا يؤمنون بالله ، حركتهم في الحياة متمثلة أولا في أن يقدر الهدف من الحركة . لا يمكن لانسان أن يفعل فعلا قبل أن يحدد الهدف من هذا الفعل . ويجب أن يكون الهدف معوضا متاعب الانسان من حركة العمل . ومعنى معوض أي أنه يعطيه من المتعة ، ومن الراحة فوق ما يأخذ العمل منه من المشقة والتعب . فلو أن العمل يعطيك من الراحة على قدر المشقة فقط ، ما كان هناك من ضرورة للمشقة أولا ، ثم نرتاح على قدر هذه المشقة ، ولكن كل عمل يعمله العاقل ، أن يأخذ حصيلة من عمله فوق مشقة عمله . وبذلك يكون نجاح العمل . فالذين يعيشون في هذه الحياة مثلا ، حينما يعملون ، ويجتهدون ، ما حصيلتهم من ذلك ؟ يجب بمقياس العقل أن نقول لهم ، يجب أن تحددوا نفعكم من هذا العمل بفوق مشقتكم من هذه الحياة . فاذا كنتم عاملين ، واذا كنتم ناصبين ، واذا كنتم في مشقة ، فما هي الراحة ، وما هي النتيجة النهائية لذلك العمل ؟

الحق سبحانه وتعالى يعرض هذه اللمحة في قوله سبحانه ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ ناهيك بمن يعمل عملا ، وينصب نصبا ، ثم ليس فقط لا يجد لذلك العمل نتيجة ولا فائدة ، ولكن يجد له مضرة بأنه يصلى نارا حامية . اذن فأساس فكرته في العمل فكرة خاطئة . لو أن انسانا عمل عملا من الأعمال بصرف النظر عن كونه متدينا وبعد ذلك لا يصل من عمله الى شيء مربح ، أو الى شيء مثمر ، يبقى فشل في عمله فما بالك لو أنه لم يصل الى شيء مربح ومثمر ، بل يصل إلى شيء متعب أيضا . ذلك دليل حمق الحركة في الحياة . فكأن الدين حينما جاء ، جاء ليجعل لحركة الانسان في الحياة هدفا ، وغاية وراحة تعقب التعب في العمل .

فالسورة اذن ، وهي سورة ( الغاشية ) أتت لتخدم هذه الأغراض كلها . وعلى طبيعة القرآن في عرضه للقضايا ، يعرض قضايا غيبية ، ثم يؤكدها بقضايا مشهدية . يعني قضايا محسة لينقلنا الى الغيب بواسطة المحس . فسورة ( الغاشية ) اذن جاءت لخدمة الأغراض

الأساسية في سورة ( الأعلى ) بوضوح :

استهلال سورة الغاشية في قول الحق سبحانه وتعالى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم - بسم الله الرحمن الرحيم ﴿هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة﴾ ؟ هذا كما نعرفه استفهام أولا من المستفهم ؟ ومن المستفهم منه ؟ وما هو المستفهم عنه ؟ المستفهم في الخطاب هو الحق سبحانه وتعالى . والحق منزه أن يستفهم ليفهم . لأن الأصل في الاستفهام ، أن تريد فهم ما لم تعلم . ولكن السؤال يرد لغير ذلك ، يرد لا ليعلم السائل ، ولكن ليقرر المسؤول . ومعنى يقرر المسؤول ، لأن السائل إن نطق بالحكم من عنده كان خبرا . فقول الحق مثلا ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يستفهم الحق من رسول الله ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وهل الحق يحتاج الى أن يفهم أنه شرح صدر محمد ، وهو الذي شرحه ؟ اذن فموضوع حقيقة الاستفهام لا تتأتى هنا . ولكن بدل أن يقول الحق : شرحنا لك صدرك فيكون اخبارا من الله ، يدع الاخبار لمشروح الصدر ، ليجيب هو : نعم شرحت يا رب صدري . فيكون اقرارا منه بما فعل الحق به . هذا الاقرار بما فعل الحق به ، تثبيت للأمر . لأن الله لو قال ذلك ربما وجد مجادل ولكن مشروح الصدر نفسه هو الذي سئل ، وهو الذي أجاب .

إذن ففائدة نقل الكلام من الخبر ، الى الانشاء الاستفهامي . معناه تقرير الخبر بأوضح حجة ولذلك تجد أيضا مرتبة بلاغية . كان من الممكن أن يقول الحق لرسوله : أشرحت لك صدرك ؟ وتؤدي أيضا . ولكن الله جاء بها على طريقة النفي حتى لا يكون السؤال ايحاء بالجواب كما تكون قد صنعت جميلا مع رجل ، ثم أنكر ذلك الجميل . فتقول له : أنا لم أحسن اليك في كذا . . ولم أحسن اليك في كذا . . تأتي له بالنفي ، لأن الواقع يرد النفي الى اثبات فهو يجد أنك لم توح له بالجواب ، لم تعط له فكرة أن يجيب .

اذن فقول الحق ﴿هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَة﴾ لون من التقرير ، أو لون من التفخيم عن المسؤول عنه . ألم يأتك خبر كذا ، كأن الخبر مهم ، يجب أن يبحث عنه الانسان ، ويجب أن يفتح ذهنه للجواب . فكأن ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ اشعار بأن ذلك أمر عظيم جدا ، يجب أن تتنبه له بكل جوارحك ، لتتلقى عنه الجواب .

ومرة يأتي السؤال من السائل ، لا تحقيقا ولا تقريرا ، وانما يأتي ايناسا للمسؤول .

يعني أن يكون المسؤول عنده رهبة ، فتريد أن تؤنسه الى مقامك منه ، ومقامه منك ، فتأتي له بسؤال ايناس كما سأل الله موسى في قوله ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ فقال موسى ﴿هي عصاي﴾ هذا السؤال ايناس ، كما تذهب أنت الى بيت صديقك وتجد ولده ومعه برتقالة فتقول له : ما الذي في يديك ؟ أنت عارف ما في يده ولكنك تريد أن تؤنسه لتسقط قناع المهابة فيأنس الولد منك . وحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى يفاجىء موسى بالكلام ، ومع ذلك يقول له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ تجد نفس طرح السؤال ايناس . لأنه كان يكفي أن يقول : ما بيدك يا موسى ؟ انما يقول : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ معناه أنه يطيل له أمد السؤال ، ليطيل له أنسه بربه . يفطن موسى الى ذلك ، إلى أن الله يريد أن يؤنسه . كان يكفي من موسى أن يقول ماذا ؟ عصا . ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ فيكون الجواب عصا . لكن أيطيل رب موسى لموسى مجال الانس ، ويقتضب موسى مجال الانس ؟ قال ﴿هي﴾ ولا لزوم لها ﴿عصاي﴾ وهذه هي التي فيها الفائدة ﴿أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ وزودتها ، اطال مقام الأنس . اذن فطن موسى الى أن الحق حينما قال له ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ أراد أن يؤنسه. فأطال موسى على نفسه أمد الأنس بربه ، لم يقل عصا ؟ انما قال : « هي » وهي في عرف الأساليب لا لزوم لها . وبعدين جاء بحكاية العصا ﴿أَتَوَكَّأُ عليها وأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ وبعد ذلك أدب الخطاب يفطن على أنه زادها كثيرا مع ربنا فقال ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ فكأن المقام لو طال لقص كل المآرب .

اذن فالاستفهام يرد لمعان شتى : هنا لما يسمع رسول الله ﷺ من ربه يخاطبه ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ يفهم أن الغاشية هذه أمر عظيم ، يجب أن يتنبه له بكل جوارحه ، ليتلقى من الحق سبحانه وتعالى الجواب . وبعد ذلك يأتي الجواب مباشرة ﴿هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة﴾ يومئذ يعني يوم تأتي الغاشية . معنى ( الغاشية ) هي الداهية تغمر الناس بأهوالها فتغشيهم ولا تجعل لهم منفذا . يبقى دواهي تأتي من كل اتجاه ، من أمام ومن خلف ؟ ومن يمين ومن شمال ، ومن تحت ومن فوق . مثلما قال ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ يقول مثلا في مسألة موسى وفرعون ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ وبعد ذلك يقول الحق ويعطينا سورة الغاشية ﴿وإذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني الموج جاء لهم من كل جانب . ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ

ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ انظر دقة التصوير ، الانسان يعرف يده أين موقعها . فإذا كانت يده التي يعرف موقعها من نفسه لا يراها . يبقى ما هذا ؟ حواسه كبيرة جدا . . ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ . . اذن فمادة ( الغاشية ) كلها تدل على الداهية تغمر الانسان من جميع النواحي ، فلا يجد منها خلاصا ، ولا منفذا . .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ كلمة غاشية وردت في القرآن مرة في هذه السورة ، ووردت أيضا في سورة ( يوسف ) عليه السلام . ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . ثم جاء من المادة الفعلية كثير من الأساليب .

﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وبعد ذلك ما دام ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وهذا أمر عظيم جدا ، ويجب أن رسول الله ﷺ يتنبه ، لأن المخاطب له ربه ، ولذلك في كتب السنة ، ان رسول الله ﷺ . مر مرة فوجد امرأة تقرأ ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ فسمع وقال : نعم جاءني . . جاءني ماذا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً . تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ . لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ . إذن كلمة ( الغاشية ) التي هي الدواهي تغمر الناس ، ربنا شرحها قال : ما هي الغاشية ؟ الوجوه التي تخشع ، لم تخشع اختيارا في دنياها ، فخشعت قهرا في آخرها . كان لها في دنياها اختيار أن تخشع أولا تخشع واليوم ؟ لم يعد لها اختيار في أن لا تخشع . لماذا ؟ لأنها سلبت مكونات الاختيار . لم يعد فيه اختيار . اذن المسألة ستكون قسرية على سلوك مراد للحق . كما في الدنيا مقسومين قسمين فيه سلوك قسري مقهورين فيه للحق ، في الأعمال غير الارادية وفيه سلوك لنا فيه اختيار . فاليوم ليس فيه هذا .

ولذلك لما تجد القرآن يتعرض لهذه المسألة ، حينما يتكلم عن عباد الله . يقول ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ويظل يصف أوصاف عباد الرحمن أوصاف كلها خير ، أوصاف تقوى كلها . ويتكلم عن الملائكة ويقول ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ اذن كلمة (عباد) هم الذين اختاروا أن يصوغوا حركة حياتهم بمنهج ربهم . كل الخلق عبيد ، انما العباد هم الذين جاؤ وا في فعلهم الاختياري ، ولكن

ليس كل الخلق عباد ، كل الخلق عبيد لله ، واخضعوا فعلهم الاختياري لمنهج الله . افعل كذا ، ولا تفعل كذا . لا يعقب على هذا الفهم في القرآن الا آية واحدة ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ سيجيء الى الذين أضلوا الخلق ويسألهم يوم القيامة ويقول لهم ﴿أأنتم أضللتم عبادي﴾ فكلمة ( عبادي ) هنا أطلقت على من ؟ على قوم ضالين . نقول : لا . . تنبه الى سياق المقال هنا . المقال في الآخرة وفي الآخرة لا فرصة لأحد أن يختار ، وانما هو مقهور على كل تصرف لم يعد له اختيار في حاجة الآن فهم الآن عباد ، وان لم يكونوا في الدنيا عباد لأن لهم اختيار . يؤمنوا ، يكفروا ، يطيعوا ، يعصوا . الآن لم يعودوا يقدرون يختاروا في حاجة . فاذن ﴿أأنتم أضللتم عبادي﴾ هم صاروا عبادي الآن لأنه لم يعد لهمْ حركة اختيارية أبدا .

فيأتي الحق سبحانه وتعالى ويقول ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ الوجوه التي تأبت أن تخشع لله خشوعا اختياريا ، هي خاشعة اضطرارا الآن . ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ والخيبة تظهر هنا . نحن قلنا في الأول : ان كل فعل يفعله فاعل ، يعني حركة يقوم بها ، لا بد أن يقدر الهدف من الحركة وأن يكون ما تفعله الحركة من النفع ، ومن الراحة ، فوق ما يكون من المشقة . تقول : ها هي عاملة ناصبة ، وليس فقط لم تأخذ حاجة من عملها ونصبها . لا . . إنها تصلى نارا حامية . انظر الذي عمل ونصب .عمل لنفسه،عمل لأولاده ، عمل لجاهه ، عمل لمركزه ، كل هذا تعب في الحياة ، وبعد ذلك يجد عمله في الآخرة هباء لا نفع فيه أبدا . ويا ليته لا يجد نفعا فقط ، بأنه لا يدخل فقط الجنة بل يدخل النار أيضا . اذن هذا هو حمق الحركة في الحياة،العاقل لم يقدر كيف يتحرك الحركة التي تنفع . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول مثلا ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ لماذا ؟ لأنهم عملوا عملهم في الدنيا ، ولم يكن في بالهم الله . عملوا العمل في الدنيا ، بمنطق المادة ، هم والمادة فقط . لم يكن الله في بالهم . وكل انسان يعمل عملا ، انما يطلب أجره ممن عمل له . فمادمت قد عملت في حياتك وأجهدت نفسك ، وتعبت وشقيت ، وليس في بالك اتجاه الى الله بعملك ، فكيف تأتي يوم القيامة لتأخذ منه أجرا ؟ أنت فعلت ليقال فعل ، وقد قيل ، وانتهت المسألة . ولذلك ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وأيضاً يضرب لهم مثلاً ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ

الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده﴾ أنظر كلمة المفاجآت بكلمة ووجد الله عنده . ساعة ما يفاجأ بوجود ( الله ) عند عمله . العمل الذي كسراب بقيعة هذا . **فوجىء** بوجود الله الذي لم يكن في باله حين عمل العمل . هنا الله وحده هو الذي يعطي الأجر . فحين يفاجأ بالله الذي لم يكن في باله ، ولا في حسابه ساعة يعمل ، كيف يطلب منه أجرا ؟ بقوله ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ .

إذن فقول الحق ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ أي لم تخشع اختيارا ، فخشعت اضطرارا وعاملة ناصبة ، وتصلى نارا حامية . يريد أن يبين لنا حمق الحركة في الحياة . حمق العمل ، حمق النصب وانهم لم يفكروا كيف يعملون العمل المؤدي الى غاية تعوض عليهم تعب العمل .

﴿عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية . تسقى من عين آنية﴾ صليان النار الحامية ، أول ما يوحي بحرارة الجوف ، وهذا قد يظن الظمآن ان الماء يبرده ، نقول : ان هذا الذي يظن فيه هذا سيشرب ماء عين آنية ، يعني شديدة الحرارة ، مثل ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ . وبعد ذلك الأكل أيضا ﴿ليس لهم طعام الا من ضريع﴾ الضريع في عرف العرب الذين نزل القرآن بلغتهم مادة **يسمونها** الشبرق . وبعضهم قال انه نبات في شوك فاذا نضج وتم نضجه واستوى وجف يكون ساما . وهذا نبات ترعاه الابل وهو أخضر . فيقول هذا النبات هو طعامهم . ومرة يقول ﴿ليس لهم طعام إلا من غسلين﴾ ومرة يقول ﴿ان شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ اذن فكأن مقامات العذاب مختلفة : واحد طعامه ضريع ، وواحد طعامه غسلين ، ومعنى غسلين ، هو الصديد الذي ينزل من أجسام الكافرين . وواحد طعامه الزقوم ، اذن مراتب في الإيلام ، ومراتب في التعذيب هذه المراتب الايلامية تناسب كلمة الغاشية ولذلك تجد أن الحق سبحانه وتعالى استهل الكلام على العصاة وعلى الكافرين في ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ لأن هذا هو الذي يناسب كلمة الغاشية ما دامت الغاشية هي الدواهي تلف الناس لفا بحيث لا تجد لهم منفذا الى النجاة ، يبقى المناسب أن يأتي بالصورة التي للكفار .

﴿وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة﴾ يحكي حالتهم في الدنيا وأن حركتهم في الدنيا كانت الى بوار ، والى هلاك ، والى مضرة ، أو أنها أيضا ستكون خاشعة في الآخرة ، وتكون

عاملة ، وتكون ناصبة ؟ نعم سيسحبون الأغلال ، يسحبون القيود ، يسيرون في وهاد جهنم ووديانها . يبقى أيضا مشقات وتعب فوق العذاب .

الحق سبحانه وتعالى حينما يصور الما ، أو حينما يصور عذابا ، انما يصوره التصوير الذي تأتي به اللغة للمخاطبين ، وليس معنى هذا أن تلك الكيفية والحقيقة . الحقيقة لماذا ؟ لأن ألفاظ اللغة تأخذ معانيها من واقع ادراكات المدرك ، والصورة التي توجد أمامه . . فمثلا اذا قلنا لانسان يعيش في البادية وجاءه ضيف ، بعد ذلك قلنا للضيف قم فقد أعد لك الإفطار . . كلمة الإفطار هذه لها مدلول في تلك البيئة ، وهذا المدلول يعطي لها صورة لا تختلف ، سيجيء له بقليل من اللبن ، وبعض التمر هذا معنى الإفطار عندهم . . لكن اذا ذهب الى حضر وقلنا له . قم فقد أعد طعام الإفطار لك . كلمة الإفطار أخذت معنى آخر أوسع . بما يناسب البيئة ، وبما يناسب ادراك السامع لما في البيئة . فإذا قلت له : عند الأمير ستتناول الإفطار ، عند الملك ستتناول الإفطار . يبقى اللفظ الواحد يأخذ معاني متعددة حسب ادراكات المدرك في البيئة التي يعيش فيها . .

فالحق سبحانه وتعالى حينما يعرض لنا عذابا في الآخرة ، أو يعرض لنا نعيما في الآخرة ، لا يعرض لنا حقيقة العذاب ولا حقيقة النعيم . ولكن يعرض لنا حقيقة العذاب في تصورنا وامكانيات أداء لغتنا والا فإذا كانت اللغة ألفاظاً توضع لمعان ، يبقى معنى ذلك أن يوجد المعنى أولا ثم يوضع اللفظ . فإذا كان ما في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ما دام لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، اذن فالمعاني لا وجود لها في الأذهان . اذن فمن باب أولى أن لا يوجد لهذه المعاني ألفاظ في لغات الناس . لأن الألفاظ في لغات الناس تحدد حسب تصوراتهم في الأشياء ، وهذه الأشياء ليس عندهم تصور عنها .

ولذلك حينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن هذه المعاني مثلا في الجنة ، لا يقول : الجنة التي وعد المتقون ، وانما يقول ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ويعطي الصورة التنعمية التي كانت تراها البيئة العربية أرقى أنواع التمتع . العربي عنده اللبن ساعة ما يجري في الضرع يبقى الخير كله جاء فيقول له ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ لأن آفة اللبن عند

العربي لما يخزنه أنه يتغير طعمه ولأنه لا يوجد غيره يأكله . . وآفة الماء أنه مثلا يظل في الوديان والبرك ، فمرة يأسن ومرة يعطب ، انما لأنه لا يوجد غيره فيشربوه . فيقول ﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ يرفع منه الحاجة التي كانت تقزز منه النفس . ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لأن الذي يعكر الخمر انها ليست لذة ، انها لاذعة ، عندما يأخذها يغمض ويسكبها دفعة واحدة كما نراهم . ليس لها تلذذ ، ليس كما تشرب كأس مانجو مثلا أو كأس ليمون يشربها لآثارها ، وليس لأنها لذة . أنهار خمر الجنة لذة للشاربين وليس فيها غول أيضا . يبقى هي في تعاطيها التلذذ وليس فيها الأثر الذي يغول العقل ويجعله يتصرف تصرفات طائشة .

اذن حينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن النعيم ، انما يتكلم عن النعيم بامكانيات التذوق للسامع في البيئة ، وبعطاء الألفاظ التي يستعملها . فاذا قال الحق ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً . تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ . لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ يبقى ليس معناها ان هذا هو العذاب ، انما هذه الصورة التي يجد فيها السامع انها منتهى ما يوجد من العذاب .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه وتعالى الى الوجه المقابل ، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ انظر الفرق بين ( خاشعة ) وفيها الذلة ، وفيها الهوان ، وفيها انكسار الخاطر ، وفيها توجس الشر ، وفيها المخافة من المعاطب ، كل هذه الصورة مرسومة في الوجوه الخاشعة . وبعدين ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ ناعمة مثلما شرحها ﴿نضرة النعيم﴾ ونضرة النعيم هذا شيء لا تقدر تصفه الا اذا رأيت واحدا مسرورا في نعمة . ترى وجهه له بريق ، ليس اللون ؟ لا . . قد يكون دكرونيا ، انما تجد له نضرة ، له أسر له جاذبية . يعني يشف عما في نفسه من الرضى ويشف عما في نفسه من المتعة . ويشف عما في نفسه من الأمان ، ومن السكون ، ومن الهدوء .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ . لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أنظر كلمة ﴿لسعيها راضية﴾ هذه مقابل ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ . فكأنها حينما رأت الغاية من حركة حياتها ، غاية مسعدة ، غاية مرضية ، ابتدأت تقول : نعم السعي ما سعيت ، نعم السعي الذي سعيته بمنهج ايماني ووصلت فيه إلى ذلك النعيم لكن الآخر ، ساعة ما يقول : عاملة ناصبة ، وتصلى

نارا حامية بالمقابل يقول : بئس السعي الذي كنت أسعاه كنت أعتقد أنني أحقق لنفسي متعة ، صحيح أنا حققت لنفسي متعة لكن متعة الحمقى ، الذي يأخذ المتعة العاجلة ، وينسى المتعة الآجلة . .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ العلو قد يكون علو مكان ، قد يكون علو منازل ، فسر في العلو ما شئت . ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أنظر الدقة الأدائية في قول الحق ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ لكي يعطيك صورة عن فساد الكون غير المنهج الإيماني . لو أنت استعرضت الوجود الذي نعيش فيه كله ، لوجدت كل الفساد الناشىء فيه ، وكل الفساد المورث للقلق ، وللاضطراب ، وللخوف ، وللبؤس ، وللشقاء ، وللتناحر ، وللتزاحم ، وللصدام ، وللحروب ، وللقعقعة ، كل هذا ناشىء من ماذا ؟ ناشىء من أن اللاغية فيه كثيرة . معنى لاغية ، الشيء اللغو ولغو في عقيدة ، ولغو في فكرة ، ولغو في كلمة ، ولغو في حركة حياة . ساعة ما يوجد لاغية هذه في حركة الحياة تفسد الحياة . فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الْجَنَّة التي وعد بها المتقون﴾ ، ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ معنى لا تسمع فيها لاغية ، هدوء ، استقرار ، سكون ، اطمئنان . اذن الذي يحدث عكس ذلك ، السكون الضجيج . الاطمئنان الخوف والقلق . الذي يحدث عكس ذلك وجود اللغو . ولذلك لما يجيء الحق سبحانه وتعالى يصف المؤمنين وفلاحهم يقول : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ كأن الذي يفسد الحياة على الناس ماذا ؟ اللغو . اللغو في الفكرة ، اللغو في العقيدة ، اللغو في كلمة لسان ، اللغو في حركة . كل هذا يفسد الحياة . فيقول : ان ميزة الجنة انك ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ لماذا ؟ لأن الانسان ليس حرا أن يلغو هناك . الانسان هناك محكوم بالمسبب الأعلى ، أنت هنا في الدنيا محكوم بالأسباب ، محكوم بما أودع الله فيك من الاختيار ليعرف الحق من جاءه طواعية . في الآخرة ليس لغو . . لماذا ؟ لأن لاغية الحياة لماذا نعملها ؟ لاغية الحياة لكي يحقق الانسان لنفسه ثمرة من غير جهد . لا تريد أن تحقق ثمرة لأنك تأكل بالخاطر مثلما يقولون . ومعنى أن تأكل وتشرب وتتمتع بمجرد الخاطر ، أنه بمجرد ما تخطر حاجة على بالك تجدها . فليس لك عناء العمل أبدا . يبقى لماذا تحصل اللاغية ؟ لا تحصل لاغية . لن آخذ حقك ولن تأخذ حقي أبدا . لن أعتدي عليك بكلمة ، ولن تعتدي عليّ

بكلمة . .

اذن ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ معناها انها الأمن المطلق . ومادام وجد أمن مطلق ، يبقى هذا هو الهدوء هذا هو السكون . انما حينما يسمرون أو يتفكهون ، يتفكهون بغير لغو ، يسمرون بغير لغو ، اذن فميزة الحياة في الجنة ، انك ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ .

وبعد ذلك يعطي لك الكلام المادي ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ كلمة عين جارية عند العربي ، يا سلام لأنه لما يكون عنده بئر هذه كفاية ، انما عين جارية . . وأيضا لكي تعرف أن المسألة في النعم ليست مسألة رد للحاجة فقط ، انما هو أيضا الاستمتاع بجريان الماء ، قوته ، حركته ، تدفقه ، اطمئنانك على أن الماء ليس كمية قليلة . لما تكون مثلا تأخذ الماء وتضعه في الاناء لأن الماء سينقطع ، لما تجيء تتوضأ أو تشرب ، تشرب بحساب غير لما تكون تفتح الصنبور وتأخذ منه الماء . يمكن لو قدرت الماء لما تفتح الصنبور لكي تتوضأ تقدر الماء الذي ينزل يكفي عشرة يتوضأون. لأن على ما تفتح الصنبور وتأخذ قليلا وتتمضمض ، على ما تتمضمض أنظر مقدار ما نزل ، وعلى ما تأخذ وتمسح وجهك ، أنظر مقدار ما نزل . لكن الذي وضع قليلا من الماء في فنطاس . . اذن حصر الماء يجعلك تحتاط حتى في الاستعمال . لكن لما تجد الماء جاريا ، يبقى ممدة امدادا يطمئنك على أن أصل الحياة موجود ولذلك حتى الناس الذين يريدون أن ينعموا أنفسهم في القصور ، يبقى عنده الماء وبعدين يعمل بركة ،يعمل قناة يجري فيها الماء ، يعمل قصره على نهر جاري . مما يدل على أن الماء حتى النظر فيه وهو يجري متدفقا وو . . الخ مما يسر ، لأن هذا هو أصل الحياة . فاطمئنان الى أن أصل الحياة ليس عندك بقدر ما يكفيك ؟ لا . . انما عندك وجار وزائد وو . . الخ .

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ هذه لا تأخذها لقطة خفيفة الا اذا قارنت أن الذي يخاطب بذلك عربي ، كان حين ينام مثلا على الرمل ، أو على الحصى ، أو على الجبل قد تؤذيه الآفات ، وقد تؤذيه الحشرات ، فلما يجيء له جريدة ويعليها عن الأرض قليلا ، هذه مسألة كبيرة جدا ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ أي مهيأ لأن تشرب ، لن تطلبها وتقول أعطني كوب ماء ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ الحشايا أو الليانات التي نسميها مبثوثة ومنتشرة لكي ترتاح عليها ، يعني الجلسة واحدة كل ألوان متعتها ، والزرابي مبثوثة ، الزرابي التي

نسميها السجاجيد ، التي هي البسط التي لها حمل كل هذا لما تنظر تجدها في مقاييس العربي تعطي صورة من النعيم لأن العربي يوم لما يكون عنده بيت يبنيه . ويجيء بالسجاد يفرشه ، ويضع عددا من التكايات ، هذه هي عين المتعة .

اذن فتقدير اللذة ، وتقدير المتعة ، كل ذلك بما يناسب امكانيات المخاطب ، وبما يناسب امكانيات المخاطب ، ليس تحديدا للحقائق ، انما هو تقريب فقط للحقائق .

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ . فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ . . ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ انتقلنا الى العالم المحس . نقلنا من عالم الغيب في ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ . . و ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ذلك عالم الغيب الذي يخبرنا الله عنه ، نقلنا الحق الى مشهد من مشاهد الحياة . مشهد أيضا يصور بيئة العربي بكل امكانياته يوم ما يكون العربي عنده الجمل تبقى حاجة كبيرة .

وبعد ذلك قال ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ كل بيئة العربي . لماذا ؟ العربي الوافد على الترحال ، الترحال هذا التخفيف عنه بأنه لا يحمل أمتعته على كتفه ، فهذه ابل ، ولما يمشي في الترحال لطلب الرعي ، وطلب الكلأ وو . الخ يبقى ليس له أنيس أبدا الا جمله . فربنا أعطى له الأدلة من الأشياء التي يضطر لأن يصحبها . أنظر لما تمشي وتركب الجمل ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ كيفية خلقها من ناحية أولا قوتها . ومن ناحية تركيب الهيئة . لما أنت ترى مثلا الجمل يسير في منطقة غير ممهدة ، فتقارن بين إخفافه التي يمشي عليها وبين ما اخترع حديثا من الكاوتش الذي يعطي لينا عند المطبات تجدها هي هي . . يقوم يمشي مهما كانت مشقة ، الضغط الموجود في خفه لا يجعلك تشعر أيها الراكب بشيء . يعني عملية الدفع ، مثل السست . وبعدين ما شاء الله تعالى لأنه قد يثير حصى ، وقد يثير غبارا كما تثيره السيارات . . لما سيارة تمر أمام الواحد ، أو رتل من الابل أو من الحمير يمشي نرى غبارا . تجد مستوى الراكب حتى عال عن الغبار . اعداد . لما تنظر الى تركيب آذانه ، تركيب حجم عينيه ، الريح يجيء من هنا معمولة بتصميم . تجد مثلا سنامه تجد مثلا

معدته ، له معدتان . تجده لأنه يمشي دائما في صحراء فهو أصبر الحيوانات على العطش يظل عشر ( بكسر العين وسكون الشين ) يعني ثمانية أيام لا يرد الماء ، يشرب الماء وتكفيه ثمانية أيام . ويأكل أيضا وبعدين يظل يجتر الأكثر ثانيا . يعني عملية تدل على قصد وعلى ارادة وعلى حكمة وبعدين تجد هذا الحيوان الضخم يقوده ولد صغير . أيناسبه التذليل . لكي يقول لنا ربنا أنت مثلا لأنني ذللت لك الجمل الضخم هذا ، ذللته لك والولد الصغير يسحبه ، ويسحب قطارا من الجمال ويمشي ، تستنيخه يناخ . وتستنهضه يقوم . أنظر قوته فهو الحيوان الوحيد الذي تحمله حملا وهو نائخ ، ثم ينهض بحمله . لأنه لما أحمله وهو واقف أجد مشقة ، أحتاج سلالم لنحمله . . هو يتطأ من لحمله وينزل على الأرض ، وبعد ذلك يحمل ما يحمل ، وبعد ذلك يحثه فيقوم . شيء عجيب مع ان كبده يضربون به المثل في الغلظ ساعة ما يحديه الحادي بالنشيد الجميل يستخفه الحداة . . عاطفة الابل بالمشي ، النبي قال لأنجشه ماذا ؟ قال له : رفقا أنجشه بالقوارير . شيء عجيب يمكن ان الابل يكون وحده ، الجمل يكون وحده : يشرب لبنه ، يأكل من لحمه ، ويأخذ من وبره ويعمل ثوبا ، يأخذ من جلده ويعمل بيتا . مسألة يعطيك وحدة حياة .

إذن فقول الله ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ في مصبها تماما . وبعد ذلك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول ان الابل ستأخذ وصفها ، وبعدين العربي في صحرائه ، أو في بيدائه يلتفت يجد أمامه سماء ، وأرضاً ، وجبالاً . لا غير ذلك . فيجيء له كونه ، الكون الذي يعيش فيه : الابل كيف خلقت ، ان آنس جلس ينظر بعيره ومبسوط به . زهد منه ، ينظر يجد السماء . وبعدين يمين وشمال يجد الجبل . . . وبعدين تحت يجد الأرض . فكأنه أعطى له مقومات الحياة ، أو العالم في هذه الحياة . .

فكأن ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . . وإلى الأرض كيف سطحت﴾ كل ذلك مقومات ذلك العربي . لما ربنا ينقله الى مشهدية كان يجب أن يتدبر ، ويتفكر . الذي ذلل له هذا مع انه لم يذلل له ثعبانا ، ساعة ما يرى ثعبانا صغيرا يترك الجمل ويترك الدنيا كلها ويجري . فلماذا الذي في حجم الثعبان مليون مرة تذلله وتركبه ؟ لأن الله ذلل ذلك ، ولم يذلل ذلك . اذن ترك الله لبعض الحيوانات ، أو الحشرات ، غير مستأنسة أو متوحشة ، لكي نلتفت ونتنبه إلى هذه . ان الله لو لم يذلل لنا

الأقوى ، ما استطعنا أن نذلله . ولذلك ذللها ، يعني هو الذي ذللها .

وبعد ذلك ننظر نجد البدوي ، حياته على ماذا ؟ يظل راكب الجمل يتطلب مرعى ، منبت كلأ المرعى هذا الأن نزل ماء من السماء يبقي علاقته أيضا بالسماء ينتظر منها السحاب لكي يعطيه المطر الجبال كالسكن تأويه ، إذا جاء سيل يلوذ بها الأرض للمرعى . اذن أيضا كلها بيئات العربي . . فكأن القرآن حينما عرض هذا الأسلوب نقل الانسان من معنى غيبي ، هو ما ينتظر الشقي من عذاب الله في الآخرة ، وما ينتظر التقي من نعيم الله في الآخرة . وبعد ذلك قال : العاقل من يتنبه الى أن تكون حركة حياته مجدية ، حركة حياته مفيدة ، وفي الكون آثار تدل على أن ذلك الكون لم يخلق عبثا ، ولم يخلق بدعة . وخلقه يتطلب حكمة ، وقدرة ، وارادة . فيجب أن تتنبهوا بهذه الأشياء ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ الأخرى قال له ﴿فذكر ان نفعت الذكرى﴾ هنا لكي يحمل عنه عبء الدعوى ، قال له : لا يهمك ما عليك الا يزكى . أنت تؤدي الذكرى فقط . هذا لون من التيسير ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ يعني أنت لست جبارا . وقال في آية ثانية ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ يعني تفرض دينك عليهم . لماذا ؟ لأن الحق لو أراد دينا مفروضا من السماء لا يستطيع أحد أن يتخلى عنه ، لجعلنا كما جعل الملائكة ، لجعلنا كما جعل سائر الخلق ، لا اختيار لنا ، مسخرون لمنهج لا نستطيع أن نفر منه . المسألة انه يريد من يصل اليه وهو مختار أن لا يصل .

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ كلمة لست عليهم بمسيطر ، والكلام من الحق سبحانه وتعالى ، ومحمد حين يعطي أشياء انما يعطيها من جراب الحق سبحانه وتعالى . لعل الذين لم يؤمنوا بمنهج محمد ، يقولوا : مادام غير مسيطر علينا يبقى خلاص انتهى . قال : لا . . فيه مرجع الي أنا . . ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أنا لم أخلقهم وسيشردون مني ؟ ﴿ان الينا ايابهم﴾ ومادام الينا ايابهم يبقى اترك الذي يؤمن يؤمن ، والذي يكفر يكفر . أنت تذكره وما عليك ، وبعد ذلك ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ .

اسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا دائما الى أن نكون من أصحاب الوجوه الناعمة ، وان لا يشغلنا لغو الحياة عن جدها . وان يوفقنا في كل ما نأتي ، وفي كل ما ندع .

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير سورة ﴿الفجر﴾

انتهينا من سورة ( الغاشية ) الى أن الحق سبحانه وتعالى استهلها باستفهام تشويقي ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ ليعد الناس والأذهان اعدادا خاصا لاستقبال ذلك المستفهم عنه العجيب . ثم تفضل سبحانه وتعالى فتكلم عن ﴿الغاشية﴾ ومظهرها الأول انها قلبت معايير الناس ، فالذين عملوا ونصبوا في حقل الباطل ، أو في حركة الضلال ، شقوا بأعمالهم ، وانتهى هذا الشقاء الى ما انتظرهم من عذاب الله .

وبعد ذلك عقب الحق بالمقابل في ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ . والحق سبحانه وتعالى ، حينما ينقل لنا صورة الغيب يوم القيامة ، انما ينقلها لنا حتى يستقبل الانسان منهجه في الحياة ، استقبال تاجر يخطط ليربح ، لا يخطط ليخسر ، والأعمال حين تقاس في التجارة انما تقاس بأن يشتري الانسان ليبيع بأكثر مما اشترى ، وينتفع بأكثر مما بذل ، والا كانت صفقته صفقة خاسرة .

الحق سبحانه وتعالى حينما جاء في ترتيب كتابه ، جاء بعد هذه السورة بسورة ﴿الفجر﴾ ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن ينتهي من سورة ﴿الغاشية﴾ أطلق قضية قسرية ، ومعنى قضية قسرية ، أي فيها أسلوب القسر ، في قوله سبحانه ﴿ان الينا ايابهم . ثم ان علينا حسابهم﴾ وحين يقول الحق ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ لم يقل ، ان ايابهم الينا أو أن حسابهم علينا لأن الأسلوب هذا يمكن أن يعطف عليه بأن يقول ان ايابهم الينا يصح أن يكون والى غيرنا أو الى مشارك معنا أما أن يقدم الجار والمجرور في ان الينا ايابهم أي لا اياب لهم لغيرنا لا شركة ولا استقلال فايابهم في الآخرة الينا ، لأن مبدأهم كان منا بدون شريك ، فما دام المبدأ كان من الله بدون شريك ، فالمرجع يكون اليه بدون شريك ، فما دام المبدأ كان من الله بدون شريك ، فالمرجع يكون اليه بدون شريك . فإذا ما وعد الله أهل النعيم بخير ، أو أوعد أهل الخسران بشر . فمعنى ذلك أن الوعد والوعيد مؤكدان ، لأن الذي وعد هو القادر الذي بدأ ، واليه نعود جميعا . ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ .

وبعد ذلك يأتي قول الحق سبحانه وتعالى « بسم الله الرحمٰن الرحيم » : ﴿والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر﴾ هنا يستهل الحق السورة بأقسام ، يعني قسم ﴿والفجر﴾ يقسم بالفجر . ويقسم بليال عشر ، ويقسم بالشفع ، ويقسم بالوتر . . على أي شيء يقسم الحق ؟ تقدم ان قلنا ان الحق سبحانه وتعالى يقسم بما شاء على ما يشاء . ولكن خلقه لا يقسمون الا به . وقلنا في القسم ، ان القسم يأتي دائما لتأكيد المقسم عليه . ومعنى تأكيد المقسم عليه ان الحق يوجد الدليل في القسم على صدق وقوع المقسم عليه . .

فما هو المقسم عليه هنا في قوله ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ مع ان الذي جاء بعدها استفهام في قوله ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي لذي عقل .

أولا نشرح مفردات القسم ﴿والفجر﴾ الفجر معلوم أنه الشق الواسع ، قالوا فجرت الشيء ، شققته شقا واسعا . ولما كان ضوء النهار محتجباً بسواد الليل كان الفجر شقا لذلك السواد . ولذلك يسمونه عمود الفجر . العمود الذي يصدع الظلام فيشقه شقا واسعا ، فسمي الفجر فجرا . والمادة تدل على الشق الواسع في أي وضع كان . ولذلك يسمى التشريع الذي يخرج عن منهج ربه باسم الفاجر ، الذي فجر . يعني أحدث شقا واسعا في منهج الله . اذن فالمسألة كلها مرجعها الى ايجاد الشق الواسع ، والهوة الواسعة . ونظرا لأن الفجر يأتي ليشق ظلام الليل سمي فجرا . والفجر حينما ننتقل من آية الليل إلى أولية آية النهار ، فأخذ من هذا عدم ثبوت الحركة الحادثة ، ليل يأتي وبعد ذلك فجر يأتي فيشق ذلك الظلام ثم تسطع الشمس بنورها ، مما يدل على ان ما في الكون أحداث والأحداث متغيرة ، والحدث المتغير لا بد له من مهيمن عليه يغيره ، والتغيير انما هو الى الضد ، والى النقيض . يبقى هذا الفتة الى أن ننظر في آيات الكون كلها ، وما فيها من تغييرات من نقيض الى نقيض .

وبعد ذلك تأتي كلمة الفجر لتدلنا على انها أخرجت العالم من سباته ، وأخرجت العالم من سكونه ، الى حركة ، هذه الحركة كما نعرفها نريد ضوءا يهدينا الى أن نتفاعل مع ما نحركه ، أو مع ما يحركنا .

اذن فقول الله سبحانه وتعالى ﴿والفجر﴾ يقسم بآية من آيات كونه تخرج الكون عن ظلامه الدامس ، لتمد الناس بالنور والاشراق الذي يهديهم الى متفاعلاتهم من حركتهم في

الحياة .

وكما عرفنا أن الحق سبحانه وتعالى سابقا قال ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى ﴾ فكأن الحق يعطي في كونه المتقابلات ليؤدي كل متقابل دوره . فليس التقابل معناه التضاد ، أو التناقض ، أو التعاند ، وانما هو تقابل يعطي تكاملا في الحياة . فالفجر جاء ليؤدي مهمة في الكون ، الليل جاء أيضا ليؤدي مهمة في الكون . . وليس من صالح الكون ولا من صالح الانسان ان يستمر الليل في ظلامه ، ولا أن يستمر النهار في ضوئه . فكل شيء من هذه الأشياء في الكون له مهمة يؤديها ، لو أخذ رتابة في لون من الألوان لما وجد هذا اللون من الألوان التي يهيء كل زمن للحركة أو للسكون فيه .

ولذلك قلنا إن الحق يضرب لنا ذلك المثل في قوله سبحانه وتعالى : ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ . وبعد ذلك يأتي في المقابل ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ اذن فيجب على الانسان أن ينظر الى متقابلات الكون ، لا على أنها تناقضات في الكون ، ولكن على أنها مكملات . . ومعنى مكملات أن هذا له دور ، وذلك له دور . فلو استمر هذا الدور في ذلك ما استقام أمر الحياة ، ولو استمر أمر الثاني لما استقام أمر الحياة . .

فالحق سبحانه وتعالى يأتي بعد سورة ﴿الغاشية﴾ ومعنى الغاشية الشيء الذي يغمر بالأهوال ، لا يجد الانسان فيه منفذاً ، يأتي بالتقابل يقول ﴿والفجر﴾ ويغشى يغطي الأشياء ، وبعد ذلك يقول ﴿والفجر﴾ اذن فهنا تقابل بين استهلال السورتين . سورة تأتي بالغاشية ، وسورة تأتي بالفجر . والفجر الذي يقسم الله هنا به ليس مجرد ظهور الضوء الذي يمحو آية الليل ، ولكنه الفجر المقرون بأمر نسكي ، تعبدي ، يبتدىء الانسان فيه يومه باستقباله لربه . صلاة له ، وحضورا في حضرته ، واستمدادا من امداده . بدليل أنه قال بعدها ﴿والفجر وليال عشر والشفع والوتر﴾ اذا ما نظرنا الى الأقسام الأربعة ﴿والفجر وليال عشر والشفع والوتر﴾ نجد

أن رسول الله ﷺ ، فسر لنا بعض هذه الأشياء . . الفجر معروف إما زمن وإما عبادة تشغل ذلك الزمن . والعبادة التي تشغل ذلك الزمن تعتبر عبادة هامة لأنها استقبال أولية حركة الحياة ، بالاقبال على من خلق الحياة ، وأنزل التكليف على الانسان الذي له حركة في هذه الحياة . وهو الوقت الذي يطرأ على الناس وهم في ألذ ما يتنعمون به في حياتهم ، وهو راحة النوم . فكون الفجر الذي هو الركن الخاص ، أو الصلاة الخاصة ، التي تخرج الانسان من راحته ومن سكونه ، ومن هدوئه ليستقبل يومه استقبالا ، هذا الاستقبال يبتدئه بالحضور في حضرة الله ليأخذ دائما من امدادات الله . اذن هذا أمر يقسم به ، يقسم به بعد أن جاء ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ فكأن الذي يتنبه الى هذا لا تجيء له الغاشية . لا تأتي له الغاشية التي ستحيطه بالأهوال . لأن المنفذ من غاشية الأهوال يوم القيامة هو أن يقبل الانسان على منهج الله ليبدد له هذه الغاشية . فكأن ذلك هو التقابل .

وبعد ذلك يأتي الحق ليقول ﴿وليال عشر﴾ يختلف المفسرون فيها ، بعضهم يراها أنها عشر محرم وبعضهم يراها انها عشر ذي الحجة ، وبعضهم يراها انها العشر الأخيرة من رمضان . ولكن أصح ما ورد فيها حديث جابر ، وهي أنها عشر ذي الحجة . ولماذا امتازت عشر ذي الحجة بهذه الميزة ؟ لأن عشر ذي الحجة هو الوقت الذي يستكمل الانسان فيها منهج ربه التكليفي ، بالحج . لأن أركان الاسلام كما نعرف : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا . يبقى اذن في عشر ذي الحجة هو الوقت الذي يحتشد فيه الناس ، لإتمام الركن الخامس من أركان الاسلام فكأن الاسلام بهذه الليالي ، أو بالاحتشاد فيها قد استوفى كل أركانه .

﴿وليال عشر﴾ وبعد ذلك يقسم الحق بالشفع والوتر . ومعنى الشفع الزوجية ، ومعنى الوتر الفرد . الرسول اذا ما فسر ليس لعقل بعد ذلك أن يقول شيئا . . سئل عنها فقال : الصلاة منها شفع ، ومنها وتر . . يعني منها زوجيات ، ومنها الثلاثة التي هي المغرب ، أو الثلاثة الوتر . أو . أو . . الخ .

اذن فالحق يستهل هذه السورة بأقسام ، هذه الأقسام ، كل قسم منها يرمز الى

لون من ألوان حركة التكليف التي جاءت لتنظيم حركة الحياة بالنسبة للعبد المؤمن بالله .

﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هل من الممكن أن نأخذ جواب القسم مما تقدم ؟ مثلا ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ . . « بسم الله الرحمن الرحيم » : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ لتبعثن . نأخذها مما تقدم . ويبقى دليل الجواب في ذلك . أو نأخذ الجواب مما يليها ، ولا يكون جوابا بل يكون دليلا للجواب . كيف ؟ ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ . . ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ يقولون عنه : استفهام تقريري . . ومعنى الاستفهام التقريري أن الانسان قد يلقي قضية على مخاطبه . هذه القضية يلقيها المتكلم للمخاطب بخبر من الأخبار . الا انه خبر منه . قلنا ان الحق سبحانه وتعالى ، لوثوقه بالخبر ، لا يطرحه خبرا ، وانما يطرحه استفهاما . لأن الحق واثق من أن العقل الفطري لا يجيب الا بهذا الجواب ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ يكون الجواب : نعم .

أنت لا تلقي على مخاطبك استفهاما تقريريا ، الا في أمر تعتقد إنه لا مندوحة أن يقول ما تريد أنت . . وبدل أن تقول أنت ، فيكون خبرا من جهتك ، يكون طلبا منك وهو الذي يقول . تبقى كأنك تقرره ، مثلما تقول لواحد مثلا ينكر أنك عاونته في شيء ، تقول له : ألم أعطك كذا ؟ أنت لا تقول له : ألم أعطك كذا ؟ الا وأنت واثق انه لا يمكن ان يكون الجواب الا ، نعم أعطيتني . لو أن عندك شك في أنه يقول ذلك ، لا تجيء له بهذا الاستفهام أبدا فالحق يقول لنا : هل في ذلك قسم لذي عقل ؟ اذن فالحق واثق تمام الثقة ان العقل الفطري حين يستقبل هذا لا يكون جوابه الا ، ذلك قسم لذي عقل . . الأشياء التي أقسم بها الحق سبحانه وتعالى قسم لذي عقل . اذن نأخذ جواب القسم من الاستفهام التقريري ، لأن الاستفهام التقريري معناه تقرير شيء ، لا من المتكلم ، ولكن من المخاطب نفسه ، والمتكلم لا يطرح استفهاما يراد به التقرير الا فيما يثق أن مخاطبه لا يمكن أن يحيد عن هذا الجواب أبدا ، اذن خبر من اقرار المخاطب نفسه .

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ هنا اذا تأملنا في الأسلوب ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما ختم الاقسام بقوله ﴿والليل اذا يسر﴾ هل الليل يسري ، أو يسرى فيه ؟ الليل محل الاسراء ، ولكن الحق سبحانه وتعالى كما جعل الليل يدبر ويقبل ، والصبح يتنفس ، مظاهر حياة ، يقول ﴿والليل اذا يسر﴾ فكأن الليل له السرى من الساري في الليل ، الى نفس الليل . غاية ينتهي اليها ، ويسير الى هذه الغاية ، فانتقل فكان الليل له بداية وهو يقطع فيها الى أن ينتهي الى الفجر .

اذن الحق سبحانه وتعالى يصور لنا المعاني تصويرا لمحسات مثلما قال ﴿والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ هل الصبح يتنفس ، أم نحن الذين نتنفس ؟ انما يعطينا للأمور المعنوية ، أمورا يصبغها بصبغة الحياة . نحن عندنا مظهرية الحياة الحركة وو . . الخ . يقول لك : لا تفسر الحياة فقط على أنها هذا ، فكل شيء فيه حياة بحسبه . تفسر الحياة بقانونك أنت ، والحياة في الحيوان بقانون الحيوان ، والحياة في النبات بقانون النبات . أيضا الجماد والأشياء والمعاني لها حياة بقانونها . فلما يقول ﴿والليل اذا يسر﴾ وبعد ذلك يقول الحق ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ . نقول نعم يا ربي في ذلك ﴿قسم لذي حجر﴾ . تبقى النتيجة تقول ماذا ؟ ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ إن في هذه الأقسام قسم لذي حجر . يعني هذه الأشياء ممكن أن يقسم بها لمن له عقل يتفكر . الحجر معناه العقل . لماذا الحجر معناه العقل ؟ لأنك تمسك المادة حجر ، وعقل ، ونهي ، تجد مشتقات الأسماء كلها تدل على حاجة : حجر يعني يحجزك عن كذا ، حجزك عن كذا ، حجزك . وعقل ، يعني عقلك عن كذا . ونهي يعني نهاك عن كذا فكأن مهمة العقل ماذا ؟ مهمة العقل ليس انطلاق الحركة ، مهمة العقل انك تعقل حركتك ، بحيث يؤدي الى الغاية المطلوبة منك ، أداء يحقق لك نفعا أكثر . لذلك مثلا تجد الأشياء اللازمة للغرائز . معنى لازمة الغرائز ، فيه لازمة الغرائز ، وفيه متعدية الغرائز . الحيوان مثلا عنده غريزة ، هذه الغريزة اسمها غريزة لازمة . يعني ماذا غريزة لازمة ؟ . غريزة تؤدي المهمة التي من أجلها وجدت الغريزة ؟ بحيث لا يحمل الغريزة أمرا زائدا عما أعدت له . مثلا الحيوان عنده غريزة انه يأكل ، حب

العظام . يأكل الحيوان ، لكن كما قلنا سابقا اذا ما أدى مهمة أكله وشبع ، لا يأكل عود برسيم واحد مهما حاولت زائدا عن طاقته . اذن هذه غريزة لازمة ان الغريزة تؤدي المراد منها بقدرها فقط . لكن الانسان مثلما قلنا سابقا أكل وشبع ، وبعدين فاته أن ألوان أخرى من الطعام جاءت ، تقول له : يا سلام على هذا اللون ، يأكله . والله لتأكل هذا . يأكله هذه غريزة تعدت المقصود منها ، لأن غريزة حب الطعام ، والاقتيات لكي تعطي للجسم طاقته . الحيوان اكتفى بها وانتهى كل شيء ، لا يأخذ أكثر من هذا . لكن الانسان مثلما يقولون في المثل ( أرها الألوان تريك الأركان ) يعني أرِ البطن ألوان الطعام تقول ممكن آخذ هذا في هذا الركن ، وهذا آخذه في الركن وهذا آخذه في الركن هذا . اذن هذه غريزة متعدية .

مثلا الحيوان عنده غريزة حفظ النوع ، التي هي الغريزة التناسلية ، أيضا غريزة لازمة . معنى غريزة لازمة ، انه يؤدي بها المهمة فقط . بمجرد الأنثى ما تحمل اذا جاء الذكر يحوم حولها لا يمكن ، وهو يشمها فربنا يودع فيها رائحة انها حامل ، أنا مخصبة لا ضرورة لها ، انتهت المسألة . ولا يعمل أي حاجة . لكننا نحن لا . . نحن لا تحلو المرأة الا لما تكون حامل . يبقى نحن عدينا الغريزة ، لم نعلمها لحفظ النوع عملنا منها متعة ذاتية . ومع ذلك يظلم الانسان الحيوان ، ويقول : شهوة بهيمية . يا ليتها ظلت شهوة بهيمية يحق للحيوان أن يقول : إنها شهوة انسانية . اذن هذه غريزة نأخذها غريزة متعدية . . يبقى جاء العقل ليعمل ماذا ؟ جاء ليحجز هذه الغرائز المتعدية بمنهج . لماذا ؟ لأن الحيوان ليس له اختيار وأنا مخلوق على هيئته في اختيار لأن عقلي يختار بين البديلات ، الآخر ليس اختيار بين بديلات . لكن الانسان اذن وجد له عقل لكي يعمل ماذا ؟ العقل الذي كان مفروضا فيه أنه يعقل حركة الانسان ، يعقلها . عقلت البعير يعني منعته عن الحركة . اذن يقول له : انك لا تتصرف في الغرائز لأن العقل والتكاليف كلها جاءت لتعلي الغرائز ، لأن للغرائز مهمة ، هذه المهمة لو لم يردها الله ، ما كان جاء بهذه الغريزة . الغريزة الجنسية لحفظ النوع غريزة الطعام للبناء ، غريزة حب الاستطلاع ، حب الاستطلاع لكي تخترع ، لكي تبحث انما حب الاستطلاع لكي تتجسس على عورات الناس و . و الخ . . لا يمكن . . غريزة حب

المال . لكن لا يكون طغيانا . اذن فكل غريزة لها مجال هي مخلوقة له ، يجيء المنهج لكي يوقفني عند مطلوبات هذه الغريزة ، حتى لا تكون غريزة متعدية .

يبقى كلمة «حجر» يعني حجر ، حجرك ، عن أن تتصرف هذا التصرف . هذا معنى «حجر» وأيضا كلمة (عقل) يعني عقلك عن صنع كذا . . وأيضا كلمة (نهي) نهاك عن أنك تصنع كذا . اذن كل مادة العقل جاءت لتعمل ماذا ؟ لكي تعمل لجاما . لتعمل كابحة . نحن لا نأخذ العقل على هذا الشكل . نحن نأخذ العقل عقلا انطلاقيا . نأخذ العقل عقلا متحررا يعمل ما يريده ، نقول له : لا . . أنت حتى لم تفطن الى سر التسمية للعقل . معنى العقل . معنى العقل انه يعقل حركتك لكي تكون حركة منضبطة مع ماذا ؟ مع منهج . من الذي عمل المنهج ؟ الذي خلقك . افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : أنتم اذا استقرأتم هذه الأقسام وجدتم أن فيها مقنع للقسم . ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ . كما تكلم الحق عن الغاشية وأهوالها ، وأنها تكتنف الناس ووجوه يومئذ خاشعة وعاملة وناصبة ، ربما ظن ظان أن الله سبحانه وتعالى يجعل كل الجزاء في الآخرة . ويمكن ناس تستبطىء الآخرة ، ويمكن ناس لا تؤمن بالآخرة (فلا بد من وضع حد لطغيان الكون) يقول : هذه أشياء لا نؤجلها كثيرا ، فيه حاجات لا نؤجلها للآخرة ، نأخذ بها في الدنيا أيضا .

فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ جاء لنا ببعض الاعلام لهم تاريخ معروف معلوم متداول ، كانت لهم حالات من الرقي والامتداد العمراني ، والحضاري والتمكين في الأرض وو . . الخ . وبعد ذلك انهارت كل هذه الحضارات وانتهت . . ولذلك نجد أن القرآن لما يجيء يتكلم يقول ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ﴾ ألم تر ؟ الخطاب أولا لرسول الله ثم يشمل الخطاب كل من يتأتى منه الخطاب . ألم تر ؟ معناها أن ذلك

أمر عرف للنبي وعرف للمعاصرين لنزول هذه الآية ، وأن ذلك تاريخ . والا لو لم يكن تاريخ معلوم ومتداول ومتدارس . كانوا يقولون لم نعرف هذه الحكاية . فاذا لا يقول الحق ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الا لأمر متعارف معلوم وقع في الكون . والاستدلال بواقع الكون المخالف لمنهج الله ، يدل على اننا يجب أن نصدق ما لم يقع في كون الله ، بأن الله اخبر به . اذن المخالفة للمنهج السماوي ، يبقى له لون من الجزاء الدنيوي ، ولون من الجزاء الأخروي . فلكي لا يستطبىء العالم الآخرة ، نقول : لا . . حتى في الدنيا لله أيضا قدر يجري على من انحرف وعلى من بغى ليكون الذي يراه يقول : انهم لما طغوا حصل لهم كذا . يبقى الذي لا يؤمن بغيب الوعد ، ولا بغيب الوعيد ، يؤمن بمشهد الواقع . وبعد ذلك لا يأتي بأشياء لا يعرفها الا النادر . . لا . . يقول : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ .

وقلنا زمان عند تفسير قول الحق سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ المفسرون حين يتعرضون لكلمة « ألم تر» يقولون معناها : ألم تعلم . ماالعلة في العدول عن ألم تعلم ؟ الى « ألم تر » ؟ قلنا ما هو العلم ؟ العلم قلنا زمان انه اما أن تعلم معاني المفردات فقط بصرف النظر عن نسبته اليها . كما تعرف معنى السماء ، ومعنى الأرض ، ومعنى الشمس ، ومعنى القمر . بحيث اذا ذكر مفرد من هذه المفردات تعرف معناه . انما بدون نسبة . قلنا مثلا الأرض ماذا ؟ لم تقل الأرض مكورة . أو الأرض تدور ، أو الأرض من المجموعة الشمسية ، تجيء بنسبة . الأرض ساعة ما تذكر كلمة الأرض يبقى لها مدلول يرد في الذهن . تذكر كلمة الشمس يبقى لها مدلول يرد في الذهن . هذا علم تصوري . تصور لمعاني الألفاظ . ولذلك مثلا لما يجيء لفظ من الألفاظ في أي أسلوب من الأساليب ، والانسان لا يعرف مدلوله ، يسأل عنه . مثلا . . الرئبال . . يقول رأيت الرئبال في الحديقة . تقول له : ما معنى الرئبال . يقول : الأسد . فكلمة رئبال لها معنى تدل عليه وهو الأسد هذا اسمه تصور للمعنى . انما ما هو الخبر عن الرئبال ؟ . ما هي النسبة التي تريدها ؟ هذا موضوع آخر . فالعلم اما أن يكون تصورا لمعنى الألفاظ واما أن يكون إدراج نسبي ومعنى نسبة محكوم عليه

ومحكوم به العلم التصديقي الذي في الكون كله ، ادراك نسب . كل ما يتعلق بالمعلومات الكونية ادراك نسب . الحرارة تمدد الأجسام . هذه نسبة ، لأننا أثبتنا أن الحرارة تمدد الأجسام . . الأرض كروية ، الأرض تدور حول الشمس . كل المعلومات التي نصل اليها هذه ، كلها ادراك نسب ، ونجزم بها ونستطيع أن ندلل عليها .

يبقى ﴿ ألم تر ﴾ بمعنى ألم تعلم . أي ألم تصلك النسبة التي أسندت الاخبار لأصحاب هذه الأخبار ، التي هي ثمود وعاد وفرعون .

وقلنا علة العدول إلى ألم تر . لأن العلم قد يعلمك انسان بأمر هو غيب عنك ويستطيع أن يدلل عليه دليلا عقليا . ولكنه من الممكن أن ينقلك اليه نقلا مشهديا . واحد تدرس له في الجغرافيا . تقول له : ان جبال همـلايا مثلا فيها قمة اسمها قمة افرست هذه أعلى قمة في العالم . كلام لأنك استاذ ولأن الكلام مطبوع ومتداول ، وأقره أصحاب المناهج ، تأخذ قضايا ، هي قضايا في ذاتها حسية وواقعية . ولكن في نقلها لك هي غيب بالنسبة اليك ، وصدقتها لأن من أخبرك لا يكذب في هذه المسألة ، ولا يمكن يطلع كذب ويتوارث . فاذا ما أخذ بيدك انسان الى هناك . مثل الرحلات العلمية . معنى الرحلات العلمية انه يأخذ الواقع العلمي الذي أخذ خبرا تقول له تعالى خذه مشهديا . . هذه جبال همـلايا ، وهذه قمة افرست يراها تماما . .

مثلما قلنا قديما انه نقل الانسان من علم يقيني بالخبر ، الى عين الشيء . . عينه يعني أصبح معاينا له . وبعدين يقول له : اطلع وانظر . يبقى نقله الى الحقيقة في ذاتها . فيجيء الحق سبحانه وتعالى يستبدل كلمة ألم تعلم بكلمة « ألم تر » ليقول الحق انك اذا علمت علما أكده الله سبحانه وتعالى بقوله : ألم تعلم كذا ، يقررك به ، فاعلم أن يقينك به يجب أن يكون يقين المستقبل لما رأى ، لا يقين المستقبل لما سمع لأن من الذي يقول لك ؟ الله [ يجب أن يكون خبر الله اليك ، أوثق من عيانك ، ومعاينتك ، ورؤيتك للأشياء لأن عينك يمكن تخدعك [ انما ربنا لا يخدعك . ]

اذن فكل أمر من الأمور يجب أن يؤكده الحق سبحانه وتعالى اخبارا عن شيء ، يأتي في قوله ﴿ألم تر﴾ .. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ..

أنا لا أرى يا رب الذين يسجدون في السماء وفي الأرض . مثلا .. لكن ربنا قال هذا . ما دام ربنا قال هذا ، يبقى خذ ذلك علما ، ليس عام خبر ، بل علما كأنك أنت رأيته . يبقى اذن اخبار الله عن أمر غيبي يجب أن يرتقي الى مستوى ما تراه عينك . وليس مع العين أين .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أعطانا صورة حضرية متمكنة من المادة . ما دام لم يخلق مثلها في البلاد ، معناها أنها كانت الدولة الأولى في العالم ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي قطعوا الصخر بالواد لكي يعملوا منه البيوت والتماثيل وو .. الخ . ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ . وبعد ذلك يقول الغيب فيهم ليس انهم عملوا هكذا ، ليس لأنهم بنوا ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ولا ﴿ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ ولا ﴿فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ الانصباب انما جاء على الطغيان الذي سببه التفوق في ماديات الحياة .

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ . اذن فالنص عليهم ليس لأنها ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ لكن لا يتسبب عن ذلك الرقي المادي في حركة الحياة ، وفي حضارتها طغيان . اذن فالمعيب هو طغيان الحركة ، لا الحركة في ذاتها . ارتق في مادتك كما يجب . استنبط من أسرار الوجود ما يجعلك في رفاهة من الحياة ، بما أحل الله ، ولكن يجب أن لا يكون تفوقك في الحياة وسيلة من وسائل طغيانك . لأن هذا الطغيان يعطي فسادا . وأنا لن أسكت على هذا الفساد ؟ سأتركك تعمل ، وبعد ذلك آخذك أخذ عزيز مقتدر . لماذا ؟ لكي أعطي صورة في الوجود الى أن ربك بالمرصاد . لا أحد يسرق من ربنا .

اذن الآيات حينما عرضت عرضت مقدماتها حضارات ، هذه الحضارات كانت حضارات متفوقة ، حضارات متميزة . ونحن الى الآن بعض هذه الحضارات شهدناها ، وشهدنا آثارها ، وعرفنا فيها أشياء ، يعجز عصرنا بما أوتي من نشاطات ذهنية ، ونشاطات ابتكارية في الكون ، كيف وصلوا الى هذه المسألة . لا يزالون في حيرة كيف بني هذا الاهرام ؟ الحجر كيف ارتفع هذا الارتفاع ، ووضعوه عند هذا الوضع ؟ كيف يحكموها مع بعضها من غير ( مونة ) ؟ كيف يهندسوه هذه الهندسة الخاصة ؟ كيف يحنطوا موتاهم ؟ الى الآن محل عجب من العقول المعاصرة . فاذا كان محل العجب يقطع هذه الآلاف من السنين . فتصوروا ان هذه الحضارات لو أنها لم تؤخذ أخذ عزيز مقتدر من جذورها . يعني لم يترك ربنا فيها أي حاجة . كيف كانت تصل بعد هذه الآلاف من السنين . . لابد انها كانت تصل الى مراحل عالية . انما انقطاع أخبارها عنا يدل على أن الحق سبحانه وتعالى حينما أخذهم ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ولم يترك حتى ما يدل على كيف وصلوا الى هذه الحضارات ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ وعاد هذه في الاحقاف ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ هذه الى الآن التي هي في جنوب الجزيرة بين عدن وبين حضرموت ، هذه الى الآن لم نهتد الى بعض آثارهم لكن ثمود في مدائن صالح وعرفنا عنها شيئا من الحضارات ، ورأينا كيف نحتوا الجبال وعملوا فيها فنا وو . . الخ و( اوتاد فرعون ) شهدناها . اذن فالمنطمس علينا الى الآن حكاية ( عاد ) . لا نعرف عنها شيئا الا ما أخبر عنه القرآن . ويجوز أن يكون من مضي الزمن ، انها بلاد رمال ويحدثون أن عاصفة الرمل تهب فتطمر قافلة بأكملها يبقى لا مانع من توالي العصور حصل طمس لهذه المعالم ، سواء كانت ( ذات العماد ) يعني المباني التي لها عمد مرتفعة كما يقولون عنها في التاريخ . ويجوز أن يكون القدر الذي وجد في أذهان المعاصرين لنزول القرآن قدراً كان متوارثا تاريخيا من الآباء ( ولا يكونوا رأوا الأشياء ) .

لكن صدق الحق الذي يتجلى فيما بقي لنا من آثار ، يشهد أيضا بصدقه فيما خفي عنا من آثار . .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ الحق سبحانه وتعالى ساعة يتناول المعنى من المعاني ، يعطي للمعنى شمولية العطاء ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ معنى الطغيان هو تجاوز الحد . ومعنى الفساد اخراج الأمر الصالح عن صلاحه . لأن الأمور قد تكون صالحة بذاتها لا يطلب منك أبدا الا شيء واحد وهو الا تعمد الى الصالح بذاته فتفسده . ومطلوب منك أن الشيء الصالح بذاته اما ان ترقى في صلاحه واما أن تتركه على حاله .

نلاحظ هنا أن كلمة الطغيان ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ كلمة الطغيان تجاوز الحد . وتجاوز الحد معناه ان فيه تقديرا للأشياء ، فيه مقادير للأشياء . ومعنى فيه مقادير للأشياء ، يعني مثلما تقول : ( حدي وحدك ) أو حقي وحقك . لا يمكن أن يوجد مستعل الا اذا وجد مستعل عليه . ومعنى الاستعلاء انك تريد استطراقا عكسيا . معنى استطراق عكسي انه مثلا عندنا انسان عنده قوة ، وفيه انسان ضعيف . المطلوب منك منهجا ايمانيا ان يوجد استطراق منك، أي من قوتك لضعفه . من غناك لفقره . من علمك لجهله . هذا الاستطراق الايماني . ويبقى الرزق الذي عندك أنت ناولت منه المحروم من ذلك الرزق . يجيء الاستطراق الثاني الضعيف لصالح قوته . تبقى أنت تريد عمل استطراق بالعكس . يبقى هو قوي ، ويريد أن يأخذ حركة عكسية . يبقى فقير وتأكل منه أجره ولا تعطي له حقه لكي تزيد أنت غنى وهو يزيد فقرا . يبقى أنت لم تعمل الاستطراق ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ . الطغيان ليس انك تركته بحاله ، لا . . انك حاولت ان تستطرق من الضعيف اليك أنت . ويا ليتك تركته بحاله . لم تعطه ولم تظلمه . يبقى اذن هذا لون من الفساد المركب . لأنك لو تركته على ضعفه من غير ما تمده بقولك يبقى ظالما . فما بالك لو أردت أن تأخذ من طاقة ضعفه زيادة في قوتك أنت ؟ يبقى هذا ظلم أكثر . يبقى ظلم مركب .

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ ساعة ما يجيء الوضع بهذا الشكل لازم السماء تتدخل، السماء لا تتدخل متى ؟ طالما يوجد في الانسان ذاته رادع لتصرفاته السيئة . تبقى نفسه نفس لوامة ، يعني يعمل الشيء انما ضميره يؤنبه ويقول له لا تعمله ثانيا . يبقى عنده الطاقة الرادعة ذاتية . أو تكون في المجتمع باقية . واحد ليس عنده نفس لوامة ، بل نفسه امارة بالسوء . يوجد مجتمع يقومه . فاذا لم توجد النفس اللوامة ، الردع الذاتي ، ولم يوجد الردع الخارجي من المجتمع . يبقى لازم السماء تتدخل . يبقى اذن السماء تتدخل حين لا يوجد الردع الذاتي ، ولا الردع الاجتماعي من الخارج . هذا الردع الاجتماعي نهاية ما يكون عند البشر .

نلاحظ ان الرسالات السابقة على الاسلام ، كان كل رسول غير مطلوب منه انه يؤدب الخارجين . بل حينما يطغى الكافرون امام أي منهج رسالي، السماء تتدخل . تعمل طوفان تغرقهم . وصيحة زلزلة ، وتفني القوم القضيةلم تخالف الا في الاسلام . لأن الله أرسل رسوله مهيمنا على الأديان كلها ، وأتمن اتباعه على أن يكونوا مقومين لمنهج الانحراف في الأرض ولذلك تجد هذه الخاصية لا تنطمس أبدا عند المسلمين يبقى لازم يوجد أهل خير في أمة الاسلام . هناك كان من الممكن نظلم السائل . انما لا تزال طائفة من أمتي الى أن تقوم الساعة ، لا يضرهم من خالفهم . . طائفة تقوم وتقول كذا وكذا . وهذا هو السبب في أن المسلمين أو اتباع محمد ﷺ . الذين آمنوا برسالته ،امتداداً لرسالته ﷺيبقى هذه ميزة الاسلام . ولذلك آمن رسول الله وآمن المؤمنون برسول الله على أن يحملوا حملة التأديب للبشر حين يخالفون منهج الله . جهادا في سبيل الله ، وضربا على أيدي العابثين ، وتذكيرا لهم دائما . بمنهج الله . ولذلك تجد سبحانه وتعالى حينما حمل أمة الاسلام بذلك ، تجد التحميل هو عينه التحميل لرسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ اذن كما شهد رسول الله انه بلغنا ، وانه أقامنا على الحجة ، مطلوب منكم يا من آمنتم به ، ان تشهدوا على الناس بأنكم بلغتموهم ، وأنكم أقمتموهم على المحجة .

فاذن لما يجيء ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ هذا يدلنا على ان السماء كانت تتدخل حينما يطغى طاغ . لماذا ؟ لأنه لم توجد لا المناعة الذاتية ، ولا المناعة الاجتماعية .

وبعد ذلك يقول ﴿ان ربك لبالمرصاد﴾ ومعنى ذلك أي يرصد ، ويراقب . ولا تظنون أنكم انفلتم من الله . انكم أخذتم خلق الله وكون الله ، وتصرفتم فيه هذا التصرف ، سخر لكم كل ما في الأرض ليكون تحت طوعكم ، وتحت اشارتكم ، وتحت نشاطكم ويعطيكم أشياءه ، لا تظنوا انكم انفلتم عن الله ﴿ان ربك لبالمرصاد﴾ ومعنى ربك بالمرصاد ، يعني يرصد تحركاتكم ، وما دام ربنا الذي يرصد تحركاتنا يبقى اذن أي حركة تخالف منهج الحق سبحانه وتعالى ، فهي حركة محسوبة ومقدرة ، ان شاء عجل الله بها في الدنيا ، وان شاء ادخرها الى الآخرة .

وبعد ذلك يتكلم الحق في هذه السورة ، عن خطأ معايير الناس في استقبال أوامر الحق في الخلق . يقول لهم : أنتم تأخذون المقاييس بالعكس ، وأنا أريد أن أعدل لكم المقاييس ، فإذا عدلت لكم المقاييس التي تزنون بها أموركم ، أمكن لحركتك أن تسير على هدى . انما الذي يجعل حركتكم لا تسير على هدى ان المقاييس نفسها التي تردون اليها وزن حركاتكم ، وتقييمها ، وتقديرها مقاييس خطأ . كيف ؟ يجيء الحق سبحانه وتعالى ﴿فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ جاء بصورتين من صور الحياة : الصورة للانسان الموسع عليه في رزقه وصورة لانسان مضيق عليه في رزقه . الموسع عليه يظن أن هذه السعة اكرام من الله له .. والمضيق عليه يظن أن هذا التضييق اهانة من الله له .. نقول : أنت في هذه المقاييس خلطت بين شيئين . خلطت بين الامتحان ، وبين النتيجة . الامتحان شيء ، ونتيجة الامتحان شيء . ايتاء المال امتحان والتقدير والتقتير في ايتاء المال امتحان أيضا . النتيجة الاكرامية تتأتى على تصرفك في هذا الامتحان . ستنجح فيه أو لا تنجح . اذن ليس ايتاء المال نفسه هي النتيجة ، النجاح . لا .. ما زال هذا الامتحان . لا تقول وأنت داخل الامتحان انني أخذت النتيجة بالنجاح .. ننتظر لما

نرى هذا الامتحان سيؤدي الى ماذا ؟ لذلك شرك الله سبحانه وتعالى بين الأمرين بالابتلاء ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ وبعدين ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ اذن فاللحظات الصورتان ظاهرتان أنت عملتها نتيجة نجاح نقول لا . . هي ليست نتيجة نجاح . هذه فقط امتحان . والنجاح يأتي بعد ذلك .

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ نقول : لا . . أنت غلطان في هذه . . والذي يقول أيضا ﴿واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ ربنا رد على الاثنين قال لهما « كلا » أنت خاطىء في هذه ، وأنت أيضا خاطىء في هذه ، فلا الذي أنعم الله عليه بنعمه دليل اكرام ، ولا الذي منع الله عنه النعمة دليل اهانة . . وأنا سأبين لكم لماذا كنتم غلطانين في الحكم ؟ حين يؤتي الله انسانا مالا . المال هذا له حقوق ، كيف يستغل ؟ وكيف يصرف ؟ .

ربنا تجاوز مرحلتين ، وتكلم عن المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة المصرف . لما يكون واحد منكم عنده مال بالله يتصرف فيه التصرف الطبيعي الجيد؟ تحض على طعام المسكين ؟ تكرم اليتيم ؟ تعمل كذا ؟ أعطانا صورتين من صور البؤس والشقاء التي من المفروض في صاحب المال يمحيها من وجوده ، أو من محيطه ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ هذه في المصرف . اذن أنت في مصرفك لست موفقا . فاذا كنت في مصرفك للمال لست موفقا . كيف يكون ايتاء المال لك الذي لن توفق في مصرفه اكراما لك ؟ انه امتحان يا سيدي لكي نراك ماذا تعمل؟ وبعدين يجيء في الاستنباط ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ تأكلون التراث ، يعني تركة الرجل يأخذها الأقوياء أو الذكور ويمنعون الباقي . هذا في استنباط المال ، حتى المصدر حرام ، فكيف اذا كان المال استنباطه بهذا الشكل . ومصرفه بهذا الشكل ، فلا توفيق لكم في شيء . فكيف تظن يا من أوتيت مالا أن ذلك اكرام من الله لك ؟ لا يا سيدي ، انما هو ابتلاء وكذلك يا من تظن ان منع المال عنك اهانة . لماذا ؟ اذا كان صاحبك الذي أخذ المال لم يوفق فيه ، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم﴾ ، فأنا لما أمنعك من هذه المسألة أكون قد أهنتك ، أم حملتك حملا على أنك ليس في يدك شيء تبقى ذا عذر في الوجود ؟ وما دمت ذاعذر في الوجود يمكن كنت تسقط في الامتحان . . وما دام كنت تسقط في الامتحان يبقى أنا لم أحرمك اهانة . لعلي حرمتك منه رحمة ؟!.

وبعد ذلك يطلق الحق سبحانه وتعالى صور هذا الوجود ، لتعرف كثيرا من الأغنياء لم يوفقوا : لا في استنباط أموالهم ولا في استغلال أموالهم ولا في مصرف أموالهم . فحين تتأكد لنا هذه القضية نقول : ايتاء المال ليس اكراما من الله ، ومنع المال ليس اهانة من الله وكلا الأمرين ابتلاء واختبار . فمن شكر نعمة الله سبحانه وتعالى ، نجح في الامتحان . يبقى اذن ايتاء المال ليس هو النجاح ، ولكن التوفيق في ادارة هذا المال والاستخلاف فيه ، هو النجاح وكذلك الذي سلب المال ، ليست اهانة له لأن الله خلصه من شيء يكون محاسبا بسببه ان قصر وأيضا ليحترم قدر الله وعطاءه في خلقه . حين يتعدل المقياسان في الحياة ، المقياسان اللذان أتعبا الدنيا كلها ، حين يقارن انسان بانسان ، لا تأتي الا زاوية الغنى فقط . انما لا ينظر الى أي زاوية أخرى من زوايا الكمال في أي نفس. واحد مثلا أخلاقه حسنة ، واحد مثلا عاقبته حسنة ، واحد مثلا سعيد بأهله ، وأهله سعداء به . . ليس عندهم الا زاوية المال ، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يعدل مقاييس البشر في أهم حاجة تشغل البشر ، في مسألة المال بسطا ، وقبضا .

اسأل الله سبحانه وتعالى أن نكون ممن نجحوا في ابتلاء الاكرام ، أو في ابتلاء التقتير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير ﴿سورة الضحى﴾

أحمدك ربي على ما أنعمت وتنعم ، وأصلي على خير خلقك وأسلم . . وبعد .

لعلكم سمعتم منا بعض الشيء عما يتعلق بالقرآن وبلاغه لرسول الله ﷺ . . والذي نحب أن نؤكد عليه ، أن نعرف خصوصيات القرآن التي امتاز بها ككتاب منهج ، وخصوصياته الأخرى التي امتاز بها كمعجزة .

قلنا إن كل رسول يأتي لقومه لا بد وأن تكون معه آية ، كدليل على صدق تبليغه عن الله . . وما دامت الآية كإمارة ودليل على صدق تبليغه عن الله ، فيشترط فيها ألا تكون في طاقة البشر . لأنها لو كانت في طوق البشر لصلح ادعاء من كل أحد وكل انسان له نبوغ في ناحية أو تميز أو سبق فيها أو رقم قياسي يستطيع أن يأتي بالشيء الذي تفوق فيه ، ويقول أنا أصنع ما تعجزون عنه . . اذن فلا بد أن يكون انطباعها أنها فوق طاقة البشر ، حتى لا يمكن لعقل أن يرد ذلك الى نبوغ نابغ ، أو الى عبقرية عبقري .

اذن تفترق هي عن السبق العلمي ، أو السبق الموهبي ، لأن كل فن من الفنون فيه انسان بارز لا يبارى فيه . فهب أن ذلك الرسول في هذه الناحية انسان ذو موهبة ، ولم يوجد أحد الآن ليباريه فيها . لكنها ليست من هذا اللون . . لماذا ؟ لأن هذا اللون من الممكن أن ينتقل الى الغير بواسطة المنهج الذي صير لهذا موهبة فيتعلمه ، فقد يتعلمه ويكون مثله وقد يتفوق عليه ، وذلك كشأن الاختراعات والابتكارات التي تفاجىء الدنيا ، ومعنى مبتكر جديد الشيء الذي قبله عجز عنه فكان من الممكن أن يدعي أنكم لا تقدرون عمله لأنه يعلم سر وجوده وسر صنعته والسر لا يزال عنه . لكن اذا ما تعدى ذلك السر يمكن للغير أن يتعلمه وأن يتفوق

فيه ولذلك يتفوق اختراع غد عن اختراع اليوم ، واختراع اليوم عن اختراع الأمس . لكن المعجزة ليست من هذا الطابع لأنه ما دام ممكن تقليدها أو ممكن الوصول بمقدمات لنصل اليها ونتعلمها تبقى ليست معجزة .

اذن فكل معجزة طابعها أن تكون ليست في طوق البشر لا بأنها سبق زمني ، ولذلك نجد أن المعجزات هي المعجزات . . فمثلا اذا قيل إن رسول الله انتقل الى بيت المقدس في ليلة ، يأتي واحد ويقول الآن هذه ييسر فهمها أننا من الممكن أن ننتقل في ساعة ، وننتقل الآن في نصف ساعة ، وننتقل في ربع ساعة ، وقد ننتقل في خمس دقائق ، وقد ننتقل في أقل من هذا . . فقل له : أنت تريد أن تفسر عقلية المعجزة أو عقلانيتها أو عدم وجودها بأنها حدثت من بشر : نقول له : لا . . أبق للمعجزة طابعها ، بحيث قل لي أنه من الممكن لواحد أن يقطع المسافة من هنا الى بيت المقدس بدون آلة اما بآلة ومقدمات والغير يستطيع أن يصنع آلة مثلها فتلك . . اذن فالمعجزة معجزة في كل وقت .

المعجزات التي سبقت الرسول عليه الصلاة والسلام قلنا أيضا إنها كانت فقط آية لصدق الرسول في التبليغ عن ربه ، فكانت خارجة عن طوق البشر ، والخروج عن طوق البشر لا يتأتى دفعة واحدة ، الا اذا كان في ناحية تفوق ذلك البشر ، لأنه لو لم تكن في ناحية تفوقه لكان من الممكن أن يقول قائل أنا لو تعلمت ذلك لجئت بهذا فتأتي في الناحية التي تفوق فيها ، وتأتي مقرونة بالتحدي لأن القرن بالتحدي شرط فيها وهو أن انسانا يقول لك أنت فعلت فعلا عجيبا فلم نشأ أن نبارزك وسلمنا لك ، لكن لو جمعنا . . اذن فالتحدي بهيج . .

القرآن على هذه الطبيعة جاء الى ناحية من نبوغ القوم ، والعرب لم يكن عندهم ثقافة ولا أي شيء أبدا الا اللسان فجاءت المعجزة من جنس ذلك . .

الا أن القرآن اختلف كما قلنا في أنه انضمت المعجزة الى كتاب المنهج :

بمعنى أن انجيل عيسى ، غير ابراء الأكمه والأبرص ، فالمعجزة شيء وكتاب منهجه شيء آخر . . والتوراة كمنهج لموسى ، وعصاه شيء آخر ـ لكن

القرآن جاء .. المنهج هو عين المعجزة .. لماذا ؟ .. لأن هذا المنهج منهج لازم للزمان والمكان غير منقطع مثل المعجزات الأخرى .. اذن فلا بد أن تصحبه معجزته .. لأن المعجزات السابقة رآها فصدق بها ، وأصبحت خبرا من الممكن أن يصدق ومن الممكن أن يكذب .. نحن صدقناها لأن الله قالها ، لأنها وقعت مرة واحدة فمن رآها فقد اقتنع بها على قدر محيط الرسالة .. لكن ما دام الرسول رسولا تماما للناس كلهم أجمعين يبقى لا بد أن تكون معجزته باقية بقاء المنهج .

اذن فأول شيء أن المعجزة هي عين المنهج ، هذه واحدة .. إن المعجزة من نوع غير حسي أي مما لا يقع مرة واحدة وينتهي ، بل بقي .. النوع الثالث وهو أن كتب المناهج السابقة للرسل ، كانت المحافظة عليها أمر تكليفي ، والمحافظة على المنهج ليس أمراً تكليفيا لأنه موكول الى الله ، ولذلك كان هناك استحفاظ طبيعي وهناك حفظ فلم يضع .

وقلنا أيضا إن المعجزات الأخرى كانت فعلا من أفعال الله يجريها على يد عبد من عباده ! والقرآن صفة من صفات الله .. ويجب أن يلاحظ أن ما كان يفعل الله ، باق بقاء الله له .. يحيي ، يميت .. يظهر ، يخفى بفعل الله .

لكن ما كان بصفة الله ليس باق بالإبقاء ، ولكن باق بالبقاء .. فتبقى معجزة محمد ﷺ باقية ببقاء الله .

من حيث كونها ، أعجزت العرب ، واعجاز العرب جاء اعجازا لغيرهم من باب أولى ، اذا كان المرتاض بهذه اللغة عجز اذن الذي سيتعلمها يبقى أعجز ، لأن هذه ستكون بالسليقة والموهبة ، وتلك بالصناعة .. اذن فالإعجاز بالنسبة للعرب مستوعب لغير العرب من باب أولى ..

إلا أن تلك الناحية ليست ناحية الإعجاز فقط ، فهناك اعجاز مستوعب لكل العقول في اللغات وفي كل الأجناس وهو الإعجاز العقلي .. الإعجاز المنهجي الإعجاز الكوني .. وهي الحقائق الكونية التي لم تكن موجودة ، ولكن الله يعلم أنها ستوجد فيأتي القرآن فيمسها مسا خفيفا . لماذا ؟ .. لأن العقول المعاصرة ما

كانت تطيع هذه العمليات العقلية لأنها نتيجة نشاط ذهني ، ونتيجة مقدمات . قد تبقى قرنين ثلاثة الى أن تظهر ، لأنه طبعا كما نعلم لا يوجد هناك مخترع فجأة ، بل أي مخترع مهما علت قيمته اذا ربطته بالحلقة التي قبله مباشرة تبقى النقلة سهلة ، وربطت الحلقة التي قبلها بالنقلة التي قبلها تبقى سهلة ، لكن الصعوبة في أنك تنقل قمة ـ الحلقات تبقى الخطوة خطوة واسعة ، فإذا جئت في عمر العقل البشري ، وكل جيل ينتقل نقلة واحدة الى قضية ، والذي يجيء بعده يأخذ مما انتهى اليه الأول ، فيبدأ بداية ثانية ، وهكذا وهكذا فتأتي الاختراعات في قمتها . . اذن أنا في الاختراعات في قمتها لم أجئ بها من عدم ، أنا جئت بها بمقدمات ، بحيث كانت النقلة من الحلقة المعجبة هذه بالنسبة لما قبلها قريبة ، لكن بالنسبة لما قبل قبلها كانت بعيدة .

وإذا كنا في هذا القرن والعقول أصابها من الثقافة ما أصابها ، ومع ذلك يوجد قوم يجادلون في كثير من حقائق الكون ، فهل كان المعقول أن القرآن يأتي بحقائق الكون ويعلنها على العرب . . لا . . الكتاب لم يجيء كتابا كونيا ، لم يجيء ليعلمنا العلوم . . الكتاب جاء يستحث عقلنا أن يتعلم . . ولكن أيمر على الحقائق وهي حقائق . . نقول له : قائل الكلام هو الله ، وخالق الكون هو الله ، وما دام قائل الكلام هو خالق الكون يجب ألا تتضارب حقائق القرآن مع حقائق الكون . . ولذلك لا يمسها على أنه يعلمني فيها ، ولكن يمسها على أنها مسألة ثابتة . .

اذن فإذا كان القرآن قد تحدث عن حقائق كونية كانت مطمورة ، وكان العقل لا يلتفت اليها ، وبعد ذلك جاء العقل فعرفها . . يبقى هذا اعجاز لعقل العرب وحده ؟ أم لكل عقل في كل لغة ؟ والا يبقى معناه أنه بده الذي ضمن على محمد أن يكون رسولا مبلغا عن الله ـ يبقى بده يدي لمحمد صفة أنه يعلم الغيب وما يكون في الكون فجاب في كلامه وضمنه هذه الأشياء . يبقى هذا أيضا لون من الإعجاز ـ الباقي .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده . . يقول كان يجب لمن آمن بي

أنني اذا قلت يبقى قولي هو الحق لا يطلب مني دليلا ، لأنني أنا الدليل ، فإذا كان بعض العقول لا تكفيها شهادتي أنا ، وتثق بعقلها وبحسها أكثر مني ، فأنا سأتمشى مع هؤلاء واريهم .. آياتي في الآفاق ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] .. يبقى معنى الآية أنه كان يكفي أن يكون الله شهيدا على ما يقول ، فلا نطلب الدليل على ما قال لأن طلب الدليل معناه أن الدليل أقوى .

إذن فقد أوجدت من مقدمات عقلك ، ومن جراء حسك ومحساتك شيئا يشهد على ما قاله الله . يقول لا .. المؤمن لا يقول هذا .. المؤمن يقول الله قال أم لم يقل ؟ فإذا كان الله قال يبقى يكفني بالله شهيد لكن هناك ناس لا يكفيهم الله شهيد ، فإذا لم يكن هؤلاء كفاهم الله شهيد يبقى الكون المحس الذي لا يفهمون الا به سيعطيهم الأدلة ، فقال ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق[2] وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ اذن فمن هذه الناحية اعجاز عام لكل العقول في كل المستويات .

هذا القرآن كلام الله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال في كتابه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ يبقى حدد الوسيلة الى نقل مراد الله الى خلقه ﴿ما كان لبشر﴾[3] معنى ما كان لبشر يعني استعداد البشر بالنسبة لتقبل العملية لا يمكن ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ هذه ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ يبقى لا بد أن يكون القرآن قد وصل بطريقة من هذه الطرق :

اما وحيا ، اما من وراء حجاب ، اما يرسل رسولا .

قالوا ان هذه المسألة العقل يجب أن يقبلها راضيا لأن قانونه المادي يلزمه

---

(١) سورة فصلت آية ٥٣ .

(٢) الآفاق : جمع أفق وهي أقطار السموات والأرض .

(٣) سورة الشورى آية ٥١ .

بها . قال . . يقال لك عندهم كثير من الطاقات اذا أردت أن تأخذ من الطاقة العالية وتعمل قوة ضئيلة ، الطاقة العالية القوة ـ الضئيلة لا تتحملها . . مثل الكهرباء والترانسفورم فتأتي بشيء يأخذ من القوي الضعيف ، لأننا لو سلطنا القوي وهو مادي على ذلك الضعيف ينعجز ولا يتحمله . .

إذن فمن الذي يستطيع أن يتلقى عن الله ؟ . لا بد من وسيلتين : من ناحية المتلقي من الله من البشر ، ووسيلة من ناحية المتلقي من الله . . واحد من البشر يرفعه الله ويصنعه على عينه بصفات يؤهله بها ، وهذا أيضا لا يكفي ، بل لا بد أن يأتي واحد من الجنس الأعلى منه ويهيأ لهذه. اذن فيأتي جبريل من الناحية غير المادية ، ويجيء محمد من الناحية المادية . . يبقى اذن هناك واسطتان عندي ، حين يلتقي الاثنان اللي من جنس بجنس آخر . . هذا جنس طوراني ويبقى هذا جنس بشري ، شيء من اثنين: اما أن ينتقل صاحب الجنس الأعلى فيتشكل بما يوافق الجنس الأدنى ويبقى بشرا مثله ويكلمه فيمكن أن يأخذ عنه . . واما أن يرتقي الأدنى الى منزلة الأعلى فيأخذ منه . تبقى عمليتان اثنتان : العملية الأولى لا تحتاج من المستقبل البشر الى مجهود ، لأن المجهود تحمله عنه الجنس الأعلى ، ما دام سيتصور في صورة بشر، وهو قادر على هذه، بما أعطاه الله أن يكون بشرا. اذن حينما يتصور جبريل بصورة بشر فقد كفى الرسول مؤونة النقلة . . واذا بقي الملك على حقيقته ؟ يبقى لا بد أن توجد في البشرية تفاعلات خاصة. إن البشرية تموت ، والبشرية تخنق ، حتى لا يتجلى في النفس الا الروح ، والروح يسهل أن تأخذ عن الملك فإذا ما انتهت مهمته يسري عنها وترجع الى حالتها الأولى . وهكذا كان الوحي لرسول الله ﷺ . اما أن الحق سبحانه وتعالى يَنفث في روحه ، في قلبه خاطراً يبقى هذا وحي . . واما أن جبريل يظل على هيئته وبشرية محمد هي التي تموت أو تبقى خامدة والروحانية ترتقي لكي يأخذ . هذه حالة أو يكلمه الله من وراء حجاب . . نجد أن النفث في الخاطر من الممكن أن يعزى الى خواطر النفس . . لأن النفس لها خواطر كثيرة هذه واحدة . . اذا ما تصور في صورة بشر من الجائز أن يأتي بشرا ولكن انسانا حكيما لبقا يقول كلاماً ينطلي علي ولكن اذا ما كان

الانفعال في ذات الرسول في نفسه هذه عملية هو لا ينكرها ، انما الثانية لأن الخواطر التي تمر على النفس كثيرة : مرات تأتي خواطر مرات تأتي وساوس شيطان .. مرات تأتي خواطر وارد الهي .. فبماذا تعرفها . قال : الوارد الالهيّ لا يكون الا في خير دائما ، ومع الوارد الالهي دليله على أنه من الله فلا يطلب العقل شيئا ولا دليلا ، يقذف في النار إنّ ذلك من الله فلا يناقش أبدا .. هذا هو الوارد الالهي .

ولذلك تجد أن الوارد الالهي اذا ما جاء لا يلتمس عليه العقل دليلا ويبادر من له هذا الخاطر الى تنفيذ ما جاء به الخاطر ولو كان مما لا يتفق مع العادة .. مثلا عندما يعرض القرآن ، ﴿**وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم**﴾[٤] هات أي امرأة وقل لها عندما تخافي على ابنك ارميه في البحر أهذا الخاطر يأتي عندها؟ انما جاء مع هذا الخاطر أنه من الله . لماذا ؟ ـ لأنه ما دام وارداً جاء من الله أيقوى وارد الشيطان أن يأتي معه في سيال ؟ .. لا يمكن .. أيقوى وارد النفس ؟ لا يمكن .. يبقى وارد الله معه دليله .. يأخذه كلاما مسلما لا يناقش فيه ، ولو كان على خلاف ما تحكم به العادة ، وعلى خلاف ما يحكم به العقل .

وخاطر الشيطان ، وسوسة الشيطان .. قال ما دام وسوسة شيطان لا بد أن تكون بشر .. لأغوينه .. سيكون بشراً .. وخاطر النفس .. النفس مقبلة على الشهوات والمنهج يضيق عليها .. كبت المنهج لها ؟ فتأتي لها خواطر في الأشياء قد يكفي أن ندفعها .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. كيف نفرق بين هذه وتلك اذا ظل الخاطر في معصية واحدة بحيث اذا أزحته رجع اليها فذلك من النفس لأن النفس تريد الانسان عاصيا لناحية تشتهيها ولا تريد أن تتحول عنه .. ولكن الشيطان يريد الانسان عاصيا فقط بأي معصيةكان فاذا عز عليه في لون من المعصية، نقله الى معصية أخرى ، لأنه يريده عاصيا فقط .. اذا رآه شديدا في ناحية ينقله الى ناحية أخرى .. اذن فان ظل الخاطر بشيء بحيث اذا زحزحته عنه عاد هو يبقى للنفس ،

---

(٤) سورة القصص آية ٧ .

ان ينقل الى شيء يبقى من الشيطان .. اذن فالخواطر الواردات من الممكن أن يقال فيها كلام .. واذا تمثل جبريل وتحمل المشقة في أنه انتقل الى البشرية ، من الممكن أن يلتبس علينا بأي واحد ، مثل الشيطان ما جاء في صورة الرجل في دار الندوة مثلا..

الوحي الذي يكون معه دليله على المبلغ له بأن هذا ليس فيه شك ، يجد نفسه غير الأول ، تأتي له عملية كيماوية في ذاته وهذا هو السبب : فضمني حتى بلغ مني الجهد وان جبينه ليتفصد عرقا .. وبعض الصحابة يقولون : اذا نزل عليه الوحي وفخذه على واحد منا كأنها الجبل واذا كان راكبا على دابة تأط به ونسمع جميعا كطنين النحل حول رأسه اذن علامات مادية موجودة في إن هذه حالة غير طبيعية لذلك كان القرآن كله بهذا اللون الثالث من الوحي .. القرآن لم يثبت بالنفث في الروع أبدا .. القرآن لم يثبت بأن جبريل تمثل بشرا وجاء وأخذ يسأله وبعدين يقول هذه آية .. ولكن القرآن كله جاء بالطريق الثالث .. الذي لا لبس فيه ﴿الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء﴾ .. لكن الأحاديث القدسية ، الأشياء الثانية تثبت بواسطة أن جبريل يتمثل في صورة بشر ، لكن لم يثبت أبدا في آية من الآيات أنها نزلت بمثل هذا الطريق ، ولم يثبت في آية من الآيات أنها نزلت بالنفث في الروع..

النفث في الروع يجيء في تفسير آية في بيان حكمة في حديث نبوي ، في حديث قدسي الا أن القرآن جاء بهذه الطريقة الثالثة وهي أن يرسل الله رسولا ، وهو جبريل ، وبعد ذلك لا بد أن ينفعل له محمد ، حتى في حالة انفعال جبريل الى البشرية .. في أي بأي .. جاء الوحي .. لا أي في أي ، بأي صورة ، بالاشارة بالكلام الخفي بالنفث بأي شيء .. الوحي الشرعي راح قيد أي من أي وقيد لأي وقيد في أي .. يبقى مسك كل أي منها وراح مقيدها ، هذا الوحي الشرعي .. الوحي من الله ليس مطلق أي .. هذه واحدة .. هات الى أي لرسول .. ليس بأي كيفية .. بثلاث كيفيات وحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا .. في أي ؟ في المنهج الذي يريد أن ينظم به طبيعة البشر .. يبقى اذن حددنا في أي الأولى ،

وحددنا في أي الثانية وحددنا في أي الثالثة ، وحددنا في أي الرابعة . .

قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما يوحي الى الرسول ، عندما يوحي اليه قد يوحي اليه المعنى ، يعني يقذف في خاطره المعنى ، ثم يجيء الانسان الموحى اليه فيعبر عن المعنى بأي لغة ، وهو حين يتكلم يبقى خلاص . . أو يكلمه من وراء حجاب يبقى مش المعنى ، يكلمه ، لكن لما ينقل الكلام الذي كلم به ليس ملزما بأن يتكلمه بما انطبع في ذهنه من كلام ربه ، لكن اذا كان بالنوع الثالث يقول للرسول الذي من جهته وهو جبريل . . اقرأ على محمد هذا ، وفيه فرق يقول له بلغ محمداً كذا وكذا وكذا . . يقوم لما يجيء يبلغ محمداً غير اقرأ على محمد يعني النص هذا . . القرآن من هذا اللون ، ولذلك تجده في مقولات القول لا بد أن يأتي بـ ﴿قل﴾ مثلا ﴿يَسْألُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ [٥] كان يكفي أن يقال هي مواقيت للناس والحج قال له ﴿ ن هي مواقيت للناس والحج﴾ جاء له بـ « قل» سؤال يأتي له « قل » سألوه عن الله قال له ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ . . كأن هذه سمة على أنه ما دام قال له قل كذا يبقى من كلامه يبقى ليس له أن يتصرف . . قال لجبريل قل له كذا يقول هو ييجي يقول ايه ؟ قل هو الله أحد ﴿يَسْألُونَكَ مَاذا يُنفِقُونَ﴾ ﴿قل﴾ [٦] ولذلك اذا استعرضت كل ﴿قل﴾ في القرآن وردت بعد سؤال تجدها على نمط ، هذا النمط موجود فيه ﴿قل﴾ لكن مرة تأتي بالفاء ومرة تأتي بغير الفاء . . مرة واحدة في القرآن وردت بالفاء وفي كل القرآن وردت بغير الفاء . . ﴿يَسْألُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . . ﴿يَسْألُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ . . ﴿يَسْألُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [٧] كل شيء قال قل الا في آية واحدة وهي ﴿وَيَسْألُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [٨] جاء بالفاء

---

(٥) سورة البقرة آية ١٨٩ .

(٦) سورة البقرة آية ٢١٥ .

(٧) سورة البقرة آية ٢١٩ .

(٨) سورة طه آية ١٠٥ .

هنا فدلتنا على شيء دقيق ، هذه الدقة أن الأسئلة الأولى سئلت بالفعل والسؤال الثاني مقدار أن يسأل فكأن الفاء دلتني سيسألونك عن كذا فان سألوك فقل كذا .. يبقى اذن فالسؤال اما أن يكون قد وقع حين يكون قد وقع يقول له ﴿قل﴾ .. وحين يكون متوقعا أن يقع قال له ﴿فقل﴾ تبقى الفاء هذه دلتنا على أن السؤال لم يحدث بعد وان كان سيحدث .

ومرة أخرى جاء الجواب عن السؤال بدون ﴿قل﴾ لا بالفاء ولا بغيرها .. فإذا أردنا أن نفهم الأساليب نجد الحق سبحانه وتعالى قالها أين ؟ ﴿واذا سألك عبادي عني فاني قريب﴾[٩] هناك فرق بين السؤال عن حكم وهو مهمة الرسالة لأن الرسول يبلغ منهجا .. قال له قل كذا علشان هو لما يقول قل في صلب الموضوع يعرفون أنه ليس من عنده ولا دخل له ، ولا هذا حتى مما وكل الله به أن يبينه ..

لكن لما قال ﴿قل﴾ عرف أن ذلك من البيان الذي يبين به بعض الآيات ؟ بل هذه آية من الآيات .. فإذا كان السؤال عن منهج شيء .. وإذا كان السؤال عن الآلة ليس عن المنهج عن الذي بعث المنهج ، تبقى هذه ليست مهمة الرسول لأن مهمة الرسول تبليغ المنهج ، انما ليس مهمة الرسول تعريف الناس بالله ، لأن معرفة الناس بالله معرفة ، وانما هو جاء فقط بالمنهج ، يعني مراد الله ايه ؟ ولذلك لما سئل الامام علي قالوا له : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمدا بربك ؟ فكان الجواب قال : لو عرفت ربي بمحمد ( يعني لو قال لي محمد ان فيه اله ) لكان محمد أوثق عندي من ربي . الذي قال لي عليه محمد صدقته .. ولو أنني عرفت محمداً بربي ما احتجت الى رسول ، لأن معنى ذلك أن جاء في أذني وقال يا علي ان بعثت لك رسولا اسمه محمد .. ما دام كلمني هذا الكلام لماذا احتاج لرسول ما دمت مخاطبا ؟ اذن لا هذه صح ولا هذه صح .. لا عرفت ربي بمحمد .. ولا عرفت محمدا بربي .. أمال ايه ؟ قال : عرفت ربي بربي ذاتية الفطرة ، وجاء محمد فبلغني مراد ربي .. اذن فإذا كان الموقف موقف بيان مراد من الحق يقول له ﴿قل﴾ .. واذا كان عن الذات ﴿فإذَا سَألَك عِبَادي عَنّي﴾ ليس حكما .. لم يقل له

(٩) سورة البقرة آية ١٨٦ .

قل اني قريب .. قال ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وقل ليس لها داخل هنا ، لأن السؤال عن الذات والآخر سؤالا عن مطلوب الذات نفسها الرسول كغيره بالنسبة للحق سبحانه وتعالى .

إذن فالقرآن ثبت بأقوى الأشياء في الوحي، لا بالنفث في الروع ، ولا بالكلام من وراء حجاب .. ولكن بتوصلة رسول .. لماذا ؟ .. لأن النفث في الروع لا تغيير كيماوي منه في الذات ، والكلام من وراء حجاب ليس فيه تغيير كيماوي في الذات ، ولكن فيرسل رسولا فيه تغيير كيماوي في الذات .. يعني عمليات عضوية تحدث فيه .. من يدركها أول ما يدركها ؟ .. يدركها الرسول في نفسه ، ويدركها من عاصر أو من عاش فترة يوحى فيها الى رسول الله ، يعني شكله حصل فيه تغيير .

تغيير الشكل هذه ليست عملية في طوع الانسان .. الأشياء المادية ان كونهم يسمعون عند رأسه طنين النحل كونه يثقل حتى ان فخذ الصحابي لا تحمل فخذه ، هذه عمليات عضوية ..

اذن فقد ثبت القرآن بأقوى طريق من الطرق التي ذكرها الحق سبحانه وتعالى في قوله .. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾(١٠) .. واذا استقرأنا النفث في الروع ، أو التكلم من وراء حجاب ، نجد أن هذا ثبت به غير القرآن .. ومن هنا نستطيع أن ندرك الفارق بين القرآن والحديث القدسي .. الحديث القدسي ما جاء لرسول الله ﷺ بالحالة التي يجيء بها القرآن ، فالحديث القدسي له طريق أداء وله موضوع أداء . لا تجد في الحديث القدسي حكماً من الأحكام أبدا ، وانما هو فقط ابداء عظمة الحق ، سعة ملكه ، سعة رحمته ، الغناء على خلقه ، انما ليس فيها حديث فيه تكليف أبدا ..

كذلك النفث في الروع ، ليس فيه شيء من هذا .. اذن فالقرآن ثبت بأقوى أنواع الوحي ، وكان قويا لماذا ؟ لأنه تحصل فيه تغييرات مادية .. تغييرات عضوية

---

(١٠) الآية ٥١ من سورة الشورى .

.. فتلفت الرسول الى أن ذلك أمر غير عادي ، وتثبت لمن شاهد نزول الوحي عليه أن ذلك أمر غير عادي ، أما يكون جالسا بحالته الطبيعية ويقول نفث في روعي أو أن يقول كلمة من وراء حجاب ، أو يأتي واحد في صورة بشر ويكلمه هذا من الممكن أن يلتبس على الناس فيها ، وان كان هو لن يكذب على نفسه ، انما يلتبس على الناس فيها .. اذن فالقرآن انما جاء بأقوى أنواع الوحي ، هذه واحدة ، وجاء معجزة وجاء كتاب منهج ، التصقت المعجزة فيه بالمنهج ، والقرآن أيضا كما قلنا محفوظ من قبيل الحق سبحانه وتعالى ، وغيره كان مستحفظا عليه .. ولذلك هناك قضيتان متعاندتان : كلما تقصى المسلمون عن منهج الله سلوكا بعدوا عن السلوك ، كلما ازداد القرآن توثيقا ، القرآن كلما يمر به الزمن يزداد ، توثيقا ويزداد تسجيلا .

كان المفهوم غير هذا .. إنه كلما ينسلخ الناس عن سلوك المنهج القرآني كان المفروض القرآن يعني انما أبدا .. القرآن كان له الأول مثلا وسيلة تسجيل واحدة ، وبعدين وسيلتان .. ثلاث وسائل ، كلما بعد الناس عن المنهج كلما يزداد توثيقا حتى لا من صناعة المؤمنين بها ، الكافرون به هم الذين يعطونا آلات التوثيق القرآني والتسجيل له .. ما الذي يجعل واحدا المانيا يفكر ويتعب نفسه ؟ قال الفن .. اشمعنى الفن لم يذهب الى الانجيل ، اشمعنى الفن لم يذهب إلى التوراة .. الفن يذهب الى القرآن لكي يبقى يتعب نفسه فنيا لكي يصور القرآن ويجعله في صفحة واحدة .. ما الذي يتعبه هذا التعب .. لو كان صاحب الفكرة مؤمنا ، كنا نقول إنه متحمس لدينه .. لكن هذا دليل على أنه تسخير من الله في أنه يحفظ وأنه يوثق .

كان القرآن مثلا نقول عليه قرآن لأنه مقروء ، ونقول عليه كتاب دليلا على أنه مكتوب ، الآن قرآن مقروء ، ومكتوب ومسجل .. أصوات تسمعها .. يعني تقرأها حروفا من المكتوب ، تسمعها .. وبعدين تسمعها مسجلة .. اذن القرآن سائر الى زيادة الحفظ ليس من المؤمنين وانما الحفظ من الحق سبحانه وتعالى .

حينما تقبل على هذا القرآن .. القرآن أول ما نزل .. أول الرسول ما أخبر

أنه رسول فيه ناس لم يستمعوا القرآن ، بمجرد ما قال أنا رسول قالوا له على العين والرأس صدقناك . . لم ينتظروا معجزة مجرد كلامه . . وبعدين نزل قرآن . . تجد عمل القرآن في نفس المعاند ، وكان ترتيبه الايمان في نفس غير المعاند يعنى حتى أن بعض الناس يقصون مسألة عن سيدنا أبي بكر ، وان كان دخلها شيء من التزيد ، الا أن أصلها يعطينا شيئا ، [إن] أبا بكر كان غائبا وبعد ذلك جاء من سفر الفترة التي جاء فيها الرسول بالرسالة ، فناداه يا أبا بكر قال : نعم . . قال : أريد أن أكلمك في شيء فقال : ما هو يا رسول الله ؟ . . قال : هو ذاك . . يعني أنا أريد أن أكلمك انني جاءت لي الرسالة . . أنا عايز أكلمك في حاجة . . قال : ما هي يا رسول الله ؟ قال : هو ذاك . . دي على فرض أن العقل يبتكرها بالنسبة الى أبي بكر ليه ؟ دليل على أن أبا بكر من أول نفس صدق ، لم يقل له علامتك ايه ؟ لأن علاماته كانسان غير عادي موجودة عنده من صحبته وتغلغله فيه ، انسان غير عادي ، ولذلك شهادة الرسول في أبي بكر أيضا هكذا . . كنت أنا وأبو بكر في الجاهلية كفرسي رهان فسبقته الى النبوة فاتبعني ولو سبقني لاتبعته ؟؟ يعني كان كل واحد منهما عنده استعداد أنه يكون موضوع اصطفاء الله لأن الخلق واحد ، عمليات غير عادية في مثل هذا المجتمع ، عارفين بعض جيدا . أنا سبقته للنبوة فاتبعني ولو سبقني لاتبعته اذن العملية تصنع على العين من بدري ، ولازم الحق سبحانه وتعالى يلفت الى أصحاب هذه الرسالات أنظار أناس وأفكارهم ويجعلهم يعايشونهم حتى يكونوا هم النواة الأولى والخلية ، والا فلما تنظر ، كم نزل من القرآن ليؤمن من آمن ؟ القرآن ينزل بسيطا واذا نزل لماجه فترة الوحي ما تعداش . . اذن ففيه أناس بمجرد ما قال أنا رسول ، وفيه أناس ليس بمجرد أن الرسول خاطبهم بل بمجرد أن أبا بكر لما خاطبهم آمنوا على كلام أبي بكر . . يعني أبو بكر أخذهم الى رسول الله مؤمنين به . . لماذا ؟ لأنهم واثقين عايشوا أبا بكر ويعرفون أنه انسان عاقل غير عادي فعندما قال لهم ده كذا وعقله ليس قاصرا . . اذن فهناك أناس يعدهم الحق سبحانه وتعالى يعايشون النبوة حتى اذا ما تحدث الرسول لم ينتظروا . . ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر عندما قالوا له إن صاحبك أدعى أنه ذهب الى بيت المقدس قال : أو قالها ؟ . . قالوا نعم . . قال : ان كان قالها فقد صدق . .

اذن الحجة عنده ماذا ؟ . . القول . . ما كان ليصدق على الناس وبعدين يبدأ الكذب على الله .

معقول ألا يكذب على الناس وبعدين يكذب على الله . . ما دام قالها يبقى قالها . . اذن هذه هي الخميرة التي تستقبل .

بعد ذلك كون القرآن معجزة ومتحدي ، يتحدى من يقف موقف العناد ، دائما الذي يقف موقف العناد هذا . . غير مسلم . . تبقى اذن امارته ما يعلمه عن الرسول قبل أن يبعث . . هم هؤلاء الخميرة . . ولذلك تجد مثلا : السيدة خديجة لم تقل له اقرأ لي القرآن الأول . . جاءت بالحيثيات التي كانت موجودة قبل أن يوحى اليه **« انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر[11] والله لا يخزيك الله أبدا »** .

عملت مقدمات ولا واحدة منها كانت بعد الوحي . . كل الأشياء كانت قبل الوحي اذن فمعايشتها له ﷺ أخذت حيثيات ان هذا الانسان لا يمكن أن ينهيه الله هذه النهاية لأزم ينهيه نهاية عظيمة : وبعد ذلك يعطيها الله فقها أن يوجد الفقه ، لما يجيء مثلا يقول لها بيجيني كذا . . ويجيني كذا . . قالت له : أإذا جاءك صاحبك هذا تستطيع أن تخبرني ؟ . . قال : نعم الأول شوف الاستنباط بتاعها الاجتهاد . . وانك وانك لا يسلمك الله أبدا هذه هي النتيجة مطمئنة فيها ، وبعدين تقول له لما يأتي اليك صاحبك قل لي ساعتها . . فلما جاء صاحبه قال : يا خديجة الأول عندما كان يأتي قال اسمع صلاصل يعني مثل دق الجرس ، وهو أشده على الصلاصل هذه معناها ليه ؟ الحصة . . تن تن . . الوحي يأتي . . فيفهم . . وكتر خير الدنيا انه قدر يقول يا خديجة فهي تأتي وتجلس وبعد ذلك تقول له أتراه ؟ يقول نعم فتكشفت عن صدرها . . قالت له أتراه قال : لا . . قالت ليس بشيطان . . لأنها كشفت عن صدرها . . لو شيطان كان يبقى متوقحا وما فيش مانع يبص ويبقى .

لكن كيف اهتدت الى مثل هذا الفقه ؟ . . من أين أتت به ؟ مما يدل أيضا

---

(١١) تحمل الكل : الضعيف تعاونه وتؤازره . نوائب : مصائب . الدهر : الزمن .

على أنها كانت من ضمن العدد التي أعدها الله لرسوله ﷺ .. مثلا كان سنها كذا والرسول سنه كذا . الرسول سيأتي عليه فترة ليس في حاجة الى زوجة انما في حاجة الى أم ، وقد كانت في هذه الفترة كأم لرسول الله ﷺ .. ولذلك بعض الصالحين يقولون : هي أم المؤمنين حتى لرسول الله أي بما فيهم رسول الله .. لماذا ؟ لأنها جاءت في فترة تريد حنان الأمومة ..

حينما جاء بالطريقة ، التي قلنا عليها ، وهي أوثق الطرق ، والتي تمنع أي شبهة ، الرسول ﷺبشريته كانت تهتز الى أن قال زملوني[١٢] دثروني[١٣] الى آخره .. فالحق سبحانه وتعالى يجعل طاقة الشوق من قبل المستقبل .. يمنع عنه الوحي قليلا .. عادة الانسان اذا نال خيرا من طريق عندما تعب قد تحجب عنه فرحة الخير ، لكن بعد أن تهدأ النفس ويرتاح وينظر الى ثمرة الخير .. يقول هذا خير كثير ويشتاق الى مصدر ذلك الخير . الشوق والطاقة التي تأتي في نفسه تعمل في نفسه عملية استقبال فلا يشعر بما يقول ..

ولذلك الوحي كان في أوله صعبا ، وبعدين أصبح أخف من الأول .. لماذا ؟ لأن النبي أصبح يستقبله استقبالا جديدا بماذا ؟ بشوق الى الخير الذي يتخلف عن هذا الوحي فإذا كان الانسان يرى ثمرة يقوم بالعمل الذي كان يراه متعباً الأول الى أن تأتي هذه الثمرة ويسعى الى ذلك التعب ، وبعدين لا يشعر به .. لماذا ؟ الطاقة الموجودة عنده متشوقة .. وما دامت خدرت عضلات التعب ، ولذلك يقول لك مثلا انسان يقطع مشوار الى من يحب ومشوار الى من يكره المشوار واحد .. المشوار الى من يكره يطول عليه .. وإذا كان المشوار الى من يحبه لا يشعر بشيء .. اذن ففترة الوحي جاءت .. لماذا ؟ لشحن طاقة الشوق الى الوحي ..

ولذلك الحق سبحانه وتعالى عندما قال ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ

---

(١٢) زملوني : غطوني .

(١٣) دثروني : غطوني .

رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ .. بعض المفسرين فسروا ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ يعني الآخرة التي هي مقابل الدنيا ، لا الوحي مرتين .. قبل الفترة واللي بعد الفترة .. سيأتي لك كثيرا ..

وبعد ذلك يتجلى هنا أول منطقة في مناطق الإعجاز في القرآن .. القرآن عندما يتكلم عن حته ، قد تغيب عن أذهان الناس أو لا يدركها الا أهل الصفاء، ينقلها الى الناس نقلا بحيث الذي ليس عنده صفاء يقيسها على ما عنده ويقول هذا صح يجيب ما يمكن أن ينكر وينظره بشيء لا يمكن أن ينكر .. الذي لا ينكر عادة .. المحسات .. التي تنكر المعنويات والغيبيات .. يقوم لما الحق سبحانه وتعالى يريد أمرا غيبيا غائبا عن الناس يقوم ينقله الى أمر محس .. لما يقولوا ان رب محمد قد قلاه[١٤] .. اشمعني في ساعة الجفوة عرفتم أن محمدا له رب .. شيء من أعجب ما يكون .. هذه أول شيء استفدناها .. يقولوا ساحر .. يقول مش عارف ايه .. عملية من عنده .. اشمعنى عندما انقطع الوحي قالوا رب محمد جفاه اشمعنى آمنتم الآن أن فيه رب وأنه لا يأتي عن الهوى .. لماذا لأنها تقال بشماتة مانع الخير .. فلو ما كانش مانع الخير طب تشمتوا ليه ؟ هذه حاجة ثانية .. ان كانت مسألة شر وانزاح عنه تبقى هذه تشمت فيه ؟ كنتم تفرحون .. اذن كون أنهم يشمتوا ويرددوها يبقى هذا ثاني دليل .. يقول لهم الحق سبحـه دي مسائل ليست بعيدة .. مسائل غيبية صحيح ويمكن لكم فيها شك ، انما أنا سأنقلكم الى أمر محس تحكمون أنتم به .. لأن معنى النتائج في المنطق أن تأتي بمقدمات صادقة عند الخصم لكي يكون الدليل منتجا والا إن أتيت بالمقدمة الصغرى أو الكبرى والخصم قلق فيها لا تنفع . وذلك يردها ويقول لك الصغرى غير مسلمة أو الكبرى غير مسلمة أو الاثنتين غير مسلمتين .

إذن لا بد أن تكون مقدمات القياس مقدمات مسلمة لكي تنتج نتائج سليمة . يقول لهم أنا سآتي لكم بالقياس لكي تفهموا ، ولن أفرضه عليكم سألتكم فقط الى عناصر القياس .. ولذلك الذين يقولون إن القرآن ليس فيه منطقا .. لأنه

(١٤) قلاه : جفاه وتركه .

لم يأت بصغرى وكبرى . . لأنك تأتي بالصغرى وتعرض على الخصم . . والكبرى وتعرض على الخصم وبعدين تجيب النتيجة . . القرآن لا يأتي بصغرى ولا كبرى القرآن يأتي بقضية واحدة ثم يدع مخاطبه يأتي بالقضية الأخرى ويأتي بالنتيجة فكأن الخصم المراد اقناعه شريك في الاتيان بالمقدمات . . يبقى منطق أروع من المنطق الأرسطي . . المنطق الأرسطي يقول مقدمتين . . يقول لك ليس مقدمتين يقول ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[١٥] فقط . . لم يقل ولكن الفساد ممتنع . . هذه هي الثانية . . اذن فيمتنع تعدد الآلهة . جاء بقضية واحدة ﴿لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا﴾ . . وأنا سأترك لك أنت وضميرك تنظر في الكون . . السماء والأرض فاسدتان أم غير فاسدتين ؟ . . أنت الذي تقول . . القرآن لن يقول شيئا لم يقل ولكن فساد الأرض ممتنع . . جعل الخصم هو الذي جيء بها . . فإذا جاء بها الخصم يبقى أنا جئت بمقدمة والخصم جاء بمقدمة تبقى النتيجة الناتجة أنا وهو شركة فيها ليست من عندي . يبقى منطق من أعلى طبقة . .

قال لهم لماذا تستعجبون أن يأتي اليه الوحي وبعد ذلك ينقطع عنه الوحي ؟ أمعنى انقطاع الوحي عنه أنه لن يأتي له ؟ هذا هو استنتاج خاطيء . . سأضرب لكم مثلا كونيا . . يضرب مثلا لا يمكن فيه واحد لا يلتفت اليه فيقول ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ما هي مهمة الضحى والليل ، وما هي مهمة الليل . . مهمة الضحى كدح . ومهمة الليل سكون ﴿الليل سكنا﴾ . . ولذلك في آيات أخرى فسر هذه القضية ويقول ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تسمعون ﴾[١٦] ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً ﴾[١٧] . . وفي آية أخرى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ . . ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[١٨] . . اذن ففيه كدح وحركة وفيه سكون . ساعة تسكن عن حركة أمعنى

---

(١٥) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

(١٦) الآية ٧١ من سورة القصص .

(١٧) الآية ٧٢ من سورة القصص .

(١٨) الآية ٧٣ من سورة القصص .

ذلك أن الحركة لا تأتي منك أيها الساكن ؟ السكون من الحركة هذا استعداد لحركة مقبلة . الليل عندما يأتي وتسكن فيه وتهدأ ، ليس معنى ذلك أنك قتلت حياة الحركة . ولكنك فقط أخذت فترة استجمام من الحركة استعدادا للحركة الثانية.عندما يأتي الليل هل أتى سرمدا أم سيأتي نهارا ؟ حتى المقابلات الوحي جاء . . وبعدين يرتاح محمد سكون . . الوحي أجهده اجهادا لما يقوم بجهده نعطي له فترة سكون . . السكون ليس لنمنع عنه ، ولكن لكي يصبح عنده نشاط . . الآية هذه ﴿والضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ الضحى يأتي للكدح والعمل وبعد ذلك الليل يأتي للسكون . . ليس معنى أن الليل يأتي للسكون انه لن يأتي نهار . اذن قول الحق ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ القسم مناسب وكذلك كل أقسام القرآن . . ولذلك نجده ينقلها في قوله سبحانه وتعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ينفي القسم مع أنه عينه قسما . لماذا ؟ لأن العربي يفهم ايه ؟ . . أنا لا أقسم على هذا الشيء يعني إنه واضح وبديهي ولا يحتاج الى قسم ولو كنت أنا مقسم كنت أقسمت بهذا انما أنا لا أقسم بهذا ، لا يحتاج الأمر لأن أقسم ولذلك يقول لك انكار على المدعي دعواه ، هو أنه لا شبهة له في الدعوى يشبهوا هذا بانسان عنده شبهة في أنه مريض . . يذهب الى الطبيب . . يكتب له الطبيب الدواء معنى كتابة الدواء انه مريض . . وافقه على شبهته في المرض . أو أن يقول له الطبيب إنك لست مريضا ولن أكتب لك دواء . . ما هو أمعن في الشفاء أن يكتب له أو أن ينفي عنه ؟ . . يقول له أنت لا يصح أن تأتي عندي . . فكذلك هذا أمر واضح لا يحتاج الى قسم . . يعني أنت عافيتك جيدة لا تحتاج الى دواء . .

تجد في هذه السورة سرا عجيبا . . هذا السر العجيب أن نظمها أنها فيها قسم وتسع آيات ﴿والضحى والليل اذا سجى﴾ هذا هو القسم . . الجواب : ﴿ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ هذه ثلاث آيات . . الثلاثة أحكام من الله . يعني كأنه غيظ للكافرين . أولا قال : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ والذي سيأتي لك أحسن من الذي ذهب . . ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ . . ليس تحديدا بهذا فقط . . يعني ثلاث قضايا . . يأتي لهم على كل قضية بدليل ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ . . ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ . . وانت صغير حينما

لم تكن لك عمليات معه ولا رسول ولا شيء ما تركك ، فإذا أرسلك رسولا يتخلى عنك ؟ .. يبقى هذا مؤكد لقوله ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ .. ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ .. أدى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ .. لأن الهداية خير ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ .. المقابل لها آية ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ وما دمت أنت ما ودعك ربك وما قلاك والدليل على ذلك أنك كنت يتيما فآواك ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ . تبقى مطلوب فكأن الثلاث آيات رتبها هكذا .. أدى الآية الأولى أدى الثانية ، أدى الثالثة . ضع تحت الآية الأولى الرابعة والخامسة والسادسة . وبعدين السابعة والثامنة والتاسعة .. تجد الأولى قضية من الحق وعليها دليلها وبها مطلوبها ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ ما دام فهدى ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ .. ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ .. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .. فكأن النعم ستتوالى ولكن مطلوب منك تتحدث بها لكي تغيظهم ..

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير ﴿سورة النصر﴾

أحمدك ربي وأستعينك ،وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

وبعد :

اذا نظرنا الى قول الحق ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ وجدنا أن ذلك شروع في اعلامات النبوة . ومعنى الشروع في اعلامات النبوة أن الحق سبحانه وتعالى يخبر نبيه في وقت الشدة ، وفي وقت الضيق وفي وقت التضييق على الدعوة ، وفي الوقت الذي لا يرى المؤمنون بارقة أمل في أن ينتصروا على هؤلاء ، فيقول له ﴿اذا جاء نصر الله والفتح﴾ فكأن الحق يؤذنه اعلاما بغيبه ان النصر سيجيء لا محالة فاذا ما جاءك النصر ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ .

هذه الاعلامات نعرف فيها انها تعطي الحكم في الزمن المستقبل . والاعلامات الغيبية في القرآن كثيرة ، لأننا كما قلنا سابقا إن الغيب يكون غيبا من ثلاثة وجوه : من وجه المكان ، ومن وجه الزمان الماضي ، ومن وجه الزمن المستقبل . فأنت اذا حصلت حادثة الآن في مكان آخر ، تصير غيبا عنك . . فما الذي حجبها عنك فصيرها غيبا ؟ انما هو عامل المكان ، بعد المكان . أنت لست في مكان هذه الحادثة ، فهي غيب بالنسبة اليك اذن فبعد المكان هو الذي يتحكم في غيب الحال . يعني الشيء يكون غائبا وهو حال الآن ، لأن مكانه غير مكان الذي يعلم . . وقد يكون الشيء قد سبق زمانه ، وذلك في الماضي . وقد يكون الشيء قد بقي زمانه لم يأت ، وذلك في المستقبل . إذن العوامل التي تؤتي الغيب ثلاثة : إما المكان وذلك يحجب الحدث الحالي . وإما الزمان الماضي ، وذلك يحجب الزمن الماضي . وإما زمان المستقبل ، وذلك يحجب زمن المستقبل . هذا المكان ، والزمان بقسميه سواء كان ماضيا أو كان مستقبلا ، فالحواجز الثلاثة هذه بالنسبة للبشر . ولكن الحواجز لا تكون بالنسبة لخالق

هذه الحواجز . اذن فلا مكان يحجب لمحق . ولا زمن ماضي يحجب الحق ، ولا زمن مستقبل يحجب الحق .

ولذلك تجد القرآن حينما تعرض للأمور الغيبية ، يتعرض عنها في الأمر الماضي ، الذي ثبت أن رسول الله لم يطلع عليه ، لا من سامع ، ولا بقراءة . ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[19] يعني ما كنت قارئا لكتب ، وما كنت سامعا لأحد ، حتى يبين لك الأخبار التي يسترها عنك الزمن الماضي ، لأنها وقعت وانتهت . وما دام أنت ما كنت تتلو ، ولا تخطه بيمينك ، اذن فذلك اعلام من الله بما كان في الزمن الماضي . كل ﴿ما كنت﴾ في القرآن تتعرض لهذه الناحية . فمثلا يقول ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وما كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾[20] ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[21] كل ﴿ما كنت﴾ في القرآن تدل على ان ذلك الحدث محجوب عنك بالزمن الماضي ، ولكن الذي أعلمك به هو الله ، ولا يمكن أن يرتاب الذين تحدثهم بذلك الأمر في الماضي ، انك قد علمته ، لأنهم مؤمنون جميعا وموقنون ، بأنك لست قارئا ، ولا مستمعا لأحد حتى يعطيك هذه الأخبار . اذن فلا مصدر للعلم بها الا من الحق سبحانه وتعالى . وبذلك خرق الحق سبحانه وتعالى بالنسبة لرسوله في اعلامات الغيب حاجز الزمن الماضي في قوله ﴿وما كنت﴾ مثلما يقول ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[22] في قصة يوسف مثلا . لكننا قصصناها عليك . ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ وما كنت لديهم « اذ كذا » وما كنت لديهم « اذ كذا » . اذن فذلك خرق لحاجز الزمن الماضي .

---

(١٩) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

(٢٠) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القصص .

(٢١) الآية ٤٤ من سورة آل عمران .

(٢٢) الآية ١٠٢ من سورة يوسف .

وبعد ذلك ننتقل الى حاجز الزمن المستقبل . نجد أن الحق أيضا خرق هذا ، مثلا يقول ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[٢٣] ومعنى النجوى الاسرار الى بعض ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ لم يقولوا لأحد في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول « اننا نسخر من محمد ونحييه بتحية ملتبسة»وبدلا من أن يقولوا السلام عليكم يقولون السام عليكم ، وفي نفسنا نتناجى ضده ونقول كذا كذا لو أن هذا صحيح نبي كان ربنا يعلمه بما نقول . اذن فهذا حدث في الحال ، ولكنه محجوز بانفصال الزمان والنجوى ، لكن الحق سبحانه وتعالى يخبر رسوله بذلك ، ويجيء بنص الذي يقولونه في أنفسهم ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ اذن فذلك خرق لحجاب المكان ، الذي يحجب الأحداث الحالية .

بقي الخرق لحجاب المستقبل . . المستقبل قلنا ان لا أحد يستطيع أن يحكم فيه بالأحداث . لماذا ؟ لأن الأحداث لها عوامل شتى : الحدث يتطلب فاعلاً ، ويتطلب مفعولا ، ويتطلب سببا للحدث ، ويتطلب طاقة تفعل الحدث . عناصر الفعل هكذا . اذا قلت كما ضربنا مثلا مرة : أنا أذهب غدا الى فلان لأكلمه في الموضوع الفلاني أنا هذا هو الفاعل أذهب الى ( فلان ) الذي يقع عليه الفعل ( لأكلمه ) هذا هو السبب . و ( اذهب ) يعني توجد طاقة تجعلني اذهب . تقول : يا أيها الانسان ماذا تملك من عناصر الحدث ؟ أنت لا تملك نفسك لتظل باقيا الى غد لتلقى فلانا . وهب انك ظللت ، فلا تضمن ان يظل المفعول الى أن تلقاه . وهب انكما الاثنين وجدتما ، الفاعل والمفعول . فما يدريك ان السبب الذي من أجله ستقابله سيظل سببا قائما لتقابله ؟ وهب ان هذه الأشياء كلها موجودة . فهل وجدت الطاقة لك على أن تذهب ؟ فأنت موجود ، وهو موجود ، والسبب موجود ، ولكن الطاقة الفاعل للفعل قد لا تكون موجودة ، بسبب ما يطرأ على الطاقة . اذن فالانسان يجاذف بنفسه حين يقول افعل ذلك غدا ، انما لأنه تحكم في أشياء لها عناصر ، لا يملك هو عنصرا واحدا من هذه العناصر . لذلك علمنا الله الأدب مع نفوسنا حتى لا نكون كاذبين فقال ﴿وَلَا تَقُولَنَّ

(٢٣) الآية ٨ من سورة المجادلة .

لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾(٢٤) ما دام ﴿الا أن يشاء الله﴾ فقد رددت الأشياء الى من يملك وجود هذه العناصر . فاذا فعلت فيها ، واذا لم تفعل فانك لا تكون كاذبا بأخبار انك ستفعل كذا . ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾(٢٥) .

ذلك بالنسبة لأحداث المستقبل . أما المستقبل بالنسبة لمن يملك العناصر ، اذن فالمستقبل لا تقدر تحكم بالأحداث التي تقع فيه لأنك لا تملك عنصرا من هذه العناصر ، ولكن الحق سبحانه وتعالى الذي خلق هذه العناصر ، وهي في ملكه ، ولا يستطيع عنصر ان يتأبى عن مراد الله فيه . اذن لا يكون عنده مستقبل . اذن المستقبل عنه مثل الماضي تماما .

ولذلك حينما تعرضنا الى قول الحق سبحانه وتعالى في قوله ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قلنا ان ﴿أتى﴾ هذه فعل ماض ، ولا تستعجلوه يدل على أنه لم يأت فكيف يكون ماضيا ؟ لأنه بالنسبة لله ما دام قال ﴿أتى﴾ يبقى «آتي» لأنه ليس عنده شيء مستقبل . كذلك من اعلامات النبوة الحق سبحانه وتعالى اعلم نبيه بما يكون من أمر هذه الدعوة المضطهدة في داعيها ، وفي أتباعها ، والمضيق عليهم والذين يحسرونهم في شعب ويمنعون أن يتاجروا معهم أو أن يصاهروهم أو أن تكون بينهم أية علاقة ، قوم يتحكمون في المسلمين . لم تكن هناك بارقة أمل توحي بأنه ستجيء عملية لتغير المقاييس . فحين يقول الحق له في ذلك الظرف الضيق ، الذي ليس فيه بارقة أمل ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ لا يمكن لمحمد ﷺ أن يقامر بدعوته ، بأنه يقول كلاما من عنده ويقول ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ثم لا يجيء . فهو لا يقولها الا وهو واثق من ان ذلك وحي من الله ، وان الذي قال له ذلك هو القادر على أن يأتي بالأحداث على وفق ما أخبر ، ولا يمكن لقوة أن تقف دون ذلك .

---

(٢٤) الآية ٢٣ من سورة الكهف .

(٢٥) الآية ٢٤ من سورة الكهف .

فإذا قال رسول الله ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وأصبحت قرآنا يتلى ، وقرآنا يتعبد بتلاوته ، فكأنه سجل على نفسه ذلك ، ولا يمكن أن يسجل على نفسه شيئا لا تحققه الأحداث ، والا انهارت الدعوة كلها ، وانهار الداعي .

مثلما قال سيدنا عمر ، قال : ما كنت أعرف ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٢٦) أي جمع هذا ما كان يأتي على باله انه سيلتقي بالكافرين الواقفين عصبة ، قوية ، ويمنعون الدعوة ، وبعد ذلك يسأل نفسه أي جمع هذا ؟ الى أن جاء يوم بدر ويقول الرسول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعلمت ان المعنى انه ذلك . ( سيهزم ) بالسين الاستقبالية . . اذن الذي قال هو الذي يخضع الأشياء لحكمه . فهذا اعلام منه بأمر المستقبل .

وبعد ذلك أيضا نجد أن المسلمين الذين حينما هاجروا الى المدينة ، وأصبحت لهم شبه منعة ، آمنوا على دينهم ، وعلى الفتنة في دينهم . أيضا كانوا يبيتون دائما في سلاحهم ، لأن العرب رمتهم عن قوس واحدة . فكانوا لا يبيتون الا في السلاح وكان من ضمن أملهم ، متى نبيت ليلة آمنين مطمئنين ؟ وبعد ذلك في هذه الأثناء ، ينزل القرآن فيقول ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٢٧) اذن المسائل والهواجس والظروف التي كانت تحيطهم لا تحكم على الله . . صحيح هذا هو الذي كان كائنا ، والمقدمات لا تدل على أنكم سيكون لكم كذا وكذا ، ولكني أقول لكم هذا وعد مني ، وسأمكن لدينكم ، وسأستخلفكم في الأرض في وقت كانت الدعوة فيه ضعيفة ، الدعوة ليس عندها قوة حتى نقول ان هذا استنباطا ، أو متواليات مثلا فكريا . يقول اذا كانت تقدمت في هذا الشهر خطوة ، يبقى في الشهر القادم كذا ، ويعملها عملية . . لا . . ليس هناك بوارق تدل على هذا ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول لهم سيكون لكم كذا وكذا

---

(٢٦) الآية ٤٥ من سورة القمر .

(٢٧) من الآية ٥٥ من سورة النور

وبعد ذلك تأتي ظاهرة أخرى ، هذه الظاهرة الاخرى في الاعلامات للمستقبل ، الأمر الذي لا يتعلق بالدعوة وانما يتعلق بذات رسول الله ﷺ . فمثلا الرسول ﷺ ، كان صحابته يخشون أن يعتدي عليه خصومهم من الكافرين والمنافقين ، فكانوا يتبادلون حراسة رسول الله ﷺ . وبعد ذلك في يوم من الأيام صرف رسول الله حراسه عنه وقال : ان الله أنزل علي ﴿والله يعصمك من الناس﴾ امرأة بلجيكية قرأت هذه الآية ، وهي تقرأ في تاريخ السيرة ، قالت : هذا الانسان ان كان قد جاء ليخدع الناس جميعا ما خدع نفسه في حياته . حياته أثمن حاجة ، لو كان يخدع الناس هل يخدع نفسه ويقول كذبا أن ربنا قال لي سأعصمك من الناس ، وبعد ذلك يصرف الحراس ، ومن يدريه أنهم ينتهزون فرصة فراغه من حراسه فيفتكون به ؟ لازم يكون صحيح هذا الكلام نازل له من عند من يملك ان يعصمه من الناس . وقد كان . ورسول الله ﷺفي معركتين تبدو له الشجاعة الفائقة . مثلا في معركة أحد وقد انكشف عنه الناس ، ورسول الله يقول : ( الى عباد الله ، الى عباد الله ، الى عباد الله ) ويقف وحده في المعركة . . وبعد ذلك في حنين أيضا ، ولما أعجبتهم كثرتهم ، وبعد ذلك حصل ما حصل ، يركب على ناقته ، وسيدنا العباس يمسك بزمام الناقة يريد أن يحجز الناقة من أنها تنبري ناحية الأعداء ، يحذد له موقف السلامة . ولكن رسول الله يترك الناقة ويقف ، ولا يقف فقط ، أنظروا الى العظمة ، عظمة الوثوق بأن الله عاصمه . فماذا قال ؟ قال : ( أنا النبي ) . . فكأن يا من لا تعرف أنا محمد . . ( أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ) اعلام بوجوده ، واعلام بمكانه ، وفي الوقت الذي انكشف عنه أنصاره ، وفي الوقت الذي انكشف عنه المسلمون وهو يظل وحده في المعركة ويدل على نفسه بصوته ويقول ( أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ) ذلك وثوق من الحق سبحانه وتعالى ، بأنه قال له ﴿والله يعصمك من الناس﴾ . .

تلك السورة التي نحن بصددها ، ايضا من اعلامات النبوة . لأن ﴿إذا جاء﴾ معناها ان الآية نزلت قبل أن يجيء . هذه السورة لها ظاهر وباطن ، أو لها وجه ، ولها تدبر . وتتعرض لأشياء منها ﴿جاء نصر الله والفتح﴾ النصر والفتح ، حجتان ﴿فسبح بحمد ربك﴾ . . والتسبيح والحمد ﴿واستغفره إنه كان توابا﴾ والاستغفار والتوبة . .

واذا جاء نصر وفتح . . ما هو النصر ؟ وما هو الفتح ؟ هذه واحدة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ما هو الاستغفار ؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ما هي التوبة ؟ ونريد التسبيح ؟ وما هو الحمد ؟ ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ ما هو ظاهر السورة ؟ وما هو باطنها ؟ وما هي واجهتها ؟ وما هو تدبرها ؟ هذا ما سنتعرض له في هذه السورة .

( النصر ) ملحوظ فيه التحام فريقين ومعارك ، ينتصر احدهما . ولكن ( الفتح ) دخول في الدين من غير معركة . يبقى أنت سيجيء لك الاثنان . ليس دخول في الدين من غير معركة فقط ؟ لا . . لأن رب قائل يقول : هم سكتوا له وانتهت المسألة ورضوا بالأمر الواقع ، لكن لو تعرضوا له ، كانوا يقدرون يوقفوه عند حده . . اذن يجيء بالاثنين : ( نصر ) يدل على البأس والقوة ، والسند القوي من الحق سبحانه وتعالى والفتح أي الدخول في الدين .

ولذلك اذا نظرت الى الدعوة الاسلامية ، وجدت الدعوة الاسلامية انساحت انسياحا في العالم ، بما ليس له نظير في الدعوات ، ولا في تاريخ الدعوات كلها . في نصف قرن تجيء من الشرق للغرب بهذا الاتساع . المسألة ليست عادية . لأن الناس فاهمة ان الاسلام كان يمتد باندفاع الفاتحين فقط ، عنصر واحد . نقول : لا . . الاسلام كان ينتشر باندفاع الفاتحين ، ويجذب المفتوحين . يعني المفتوحين في فساد ، ويريدون منقذا يخلصهم مما هم فيه . اذن ففيه عاملان : عامل الاندفاع من ناحية المؤمن ، وعامل الجذب والأخذ . ففيه قوة تدفعه ، وقوة تشده . يبقى لازم يجيء الفتح بمثل هذه الصورة .

يبقى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كثير من قبائل العرب كانت تنتظر المعركة بين قريش وبين رسول الله ﷺ . ويقولون : دعوه وقومه ، فان انتصر عليهم فهي ، وان لم ينتصر عليهم فقد كفينا أمره ، ويقفون موقف الحياد . فلما علموا أن محمدا عليه الصلاة والسلام في عراك مع قريش ، وقريش سبق أنه وقع عراك ـ وان لم يكونوا طرفا فيه ـ في مسألة الفيل ، وربنا سبحانه وتعالى نصرهم على ابرهة وعمل في أصحاب الفيل ما صنع ، فقالوا : ان هؤلاء اناس اذا لم ينتصروا هم فالسماء تنصرهم لأن خبرتهم للبيت أعطتهم ذلك . فقالوا : سنرى . . انهم لما اشتبكوا مع أبرهة ربنا نصرهم من عنده .

فما يدرينا ان هؤلاء ناس محظيون عند الله ، وان هذا لما يقول ربنا لن يمكنه . فقالوا : نترك المسألة . . والله ان انتصروا عليه يبقى عادة الله معهم انه لا يريد أن ينصر عليهم أحدا وإن انتصر عليهم نبقى نعرف ان تلك كانت دعوة باطلة وهذه دعوة حق . اذن فكانت جمهرة القبائل العربية تنتظر ما يحدث لرسول الله ﷺ بالنسبة لقريش . فلما جاء نصر الله وجاء فتح مكة ، ماذا كان ؟ المسألة انتهت . محمد ﷺ انتصر في مكة على قريش ، مع أنه سبق أن أبرهة وجيوشه لم ينتصروا عليهم . يبقى هذا دليل على ان هذا ايه ؟ على حق . . فبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، وكان قبل ذلك يدخل الناس واحدا واحدا ، أفواجا يعني جماعات جماعات اذن ذلك هو النصر وذلك هو الفتح .

﴿إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك﴾ هنا حديث أورده الامام أحمد رضي الله عنه في مسنده ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله : سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب اليه . وكان يقول تعديلا لذلك القول : ان ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي وأمرني اذا رأيتها ان أسبح بحمده واستغفره انه كان توابا ، فقد رأيتها ، وقرأ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ . .

هنا تجد المطلوب ﴿فسبح بحمد ربك﴾ ما هو التسبيح ؟ قلنا التسبيح تنزيه ، ومعنى التنزيه ، يعني تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن صفات النقص ، عن مماثلة الاغيار ، عن مماثلة الحوادث . ولكن ( الحمد ) هذه بالكمال ، بالفضل وبالفواضل . فكأن عندي شيء من السلب ، سلب النقائص ، وايجاب المحامد . سلب النقائص يأتي في ( سبحان ) يعني أنزهه عن كل نقيصة . . والحمد يأتي بصفات الفضل والفواضل .

هنا لما يقول ﴿فسبح بحمد ربك﴾ عندنا في النحو يقول : المصدر هذا مضاف الى الفاعل أم مضاف الى المفعول ؟ يعني ( حمد ) الله فاعله ، أم ( حمد ) الله هو المحمود فيه ، يعني يقع عليه الحمد . ﴿بحمد ربك﴾ يعني كن حامدا أنت الله هو المحمود . ﴿بحمد ربك﴾ يعني بحمد ليس صادر من صيغته . لماذا ؟ لأن حمد المحمود يتطلب الالمام بصفات الكمال له ، لكي تستطيع ان تثني عليه بما هو أهله ،

ثم يقتضي القدرة على ايراد الأساليب التي تناسب ذلك المقام . . ومن يستطيع من البشر أن يحيط بكمالات الله ؟ ومن من البشر اذا استطاع أن يحيط ببعض الكمالات ، يستطيع أن يأتي بالأسلوب الذي يليق بمدح الله وحمده ؟ لا أحد . اذن فمن رحمة الله بالخلق أن علمهم هو صيغة حمده . فقال لهم : قولوا ﴿الحمد لله﴾ و ما دام علمنا صيغة الحمد ، يبقى هو الذي تكفل بحمد نفسه ، لم يترك ذلك لأساليبنا ، ولا لاختلاف مواهبنا ، ولا لاختلاف ألسنتنا في الفصاحة أن ننشىء صيغا للحمد . والا،فما ذنب الغبي الذي لا يقدر على انشاء صيغة ؟ وما ميزة الانسان الذي عنده أسلوب ويقدر ينمق بعض العبارات ، وهذا رب حمده مطلوب من الجميع ؟ يقوم الحق سبحانه وتعالى يتحمل عن البشر كلهم صيغة الحمد التي يحمدونه بها كلهم ، فرحمنا جميعا بهذا . اذن ﴿فسبح بحمد ربك﴾ أي بالحمد الصادر من ربك . . ولذلك يقول رسول الله ﷺ : سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

أو ﴿فسبح بحمد ربك﴾ كن حامدا له ، سبح تسبيحا مصاحبا للحمد . سبح تسبيحا ملابسا للحمد . . يعني هات سلب النقائص وايجاب المحامد .

هنا ﴿واستغفره انه كان توابا﴾ المعقول ان يقول : واستغفره ، لأن هذا هو الأمر . لكن لتعليل انه كان توابا لا يناسب الأمر . لأنه لو قال : لتب اليه انه كان توابا ، كان يبقى معقولا . انما واستغفره كان يقول انه كان غفارا . . قالوا : هذا أسلوب من الأساليب التي يسمونها تربيب الفائدة . ماذا يعني تربيب الفائدة ؟ ان يأتي بأمرين : كل أمر فيه عنصران . يبقى عندنا كم عنصر ؟ أربعة ، اثنان للأمر هذا . واثنان للأمر هذا . فيأتي من الأمر الأول بعنصر ، ويحذف مقابله من الأمر الثاني . ويأتي في الأمر الثاني بعنصر ويحذف مقابله في الأمر الأول . . ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾[28] التقابل ليس تماما . فئة تقاتل في سبيل الله وفئة تقاتل في سبيل الشيطان . أليس معناها هكذا ؟ انما قال ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ لم يقل فئة مؤمنة وأخرى كافرة . كان من الممكن أن يقول : قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان . . أو يقول : قَدْ كَانَ لَكُمْ

(٢٨) من الآية ١٣ من سورة آل عمران .

آية في فئتين التقتا فئة) مؤمنة وفئة كافرة . لكن الحق أراد أن يقول : «قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان» . . فجاء للأمر الأول وحذف منه ( مؤمنة ) واستدل عليها بمقابلها ( كافرة ) . وأخذ من هذه تقاتل في سبيل الله ، وحذف مقابلها تقاتل في سبيل الشيطان . فكأن الحق يقول له : وسبح بحمد ربك واستغفره انه كان غفارا وتب اليه انه كان توابا . يبقى جاء بالاثنين : استغفره تعليلها انه كان غفارا . وتب اليه انه كان توابا . . فحذف من الأول ما دل عليه من الثاني . وحذف من الثاني ما دل عليه من الأول . فحذف إنه كان غفارا . وحذف وتب اليه . وهذا ما يسميه العلماء احتباك . . الاحتباك أن يأتي بأمرين كل أمر فيه عنصران . المتكلم يريد أن يربي الفائدة بايجاز دقيق ، فيجيء من العنصر الأول عنصرا ، ويحذف مقابله في العنصر الثاني . . ويجيء من العنصر الثاني عنصرا ، ويحذف مقابله في العنصر الأول .

الذي يدل على ذلك المعنى أن رسول الله ﷺ في الحديث الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها تقول : كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله : ( سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب اليه ) . اذن فما دام قال استغفر الله وأتوب اليه ، عمل عملين : استغفار وتوبة . فكأنه استغفر الله لأنه غفار . . وتاب اليه لأنه تواب لماذا ؟ لأن الاستغفار يجب أن نعرف أنه غير التوبة . كيف ؟ لأن التوبة الإياب . التوبة الرجوع . والاستغفار هذا ، صنع الانسان ذنبا ، ويطلب من الله أن يغفره له . لكن التوبة رجوع الانسان الى منهج ربه حتى لا يذنب . . فكأن الاستغفار له مدلول ، هذا في الواقع . ذنب وقع فهو يستغفر الله منه . أما في التوبة أن تؤوب الى منهج ربك . وتحاول ان لا يقع منك بعد ذلك ذنب .

هنا ما العلاقة اذن بين المطلوب بعد الفاء ، وبين ما قبلها ؟ ﴿اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك﴾ . المؤمن له منهج في استقباله للأعمال . حين يستقبل عملا ، لا يوجد عنصرا جديدا ليتفاعل معه ، وانما يأخذ العناصر الموجودة في الكون يؤلف بينها ، كما قلنا في الزارع ، يجيء ببذرة مخلوقة لله وتربة مخلوقة لله ويرويها بالماء المخلوق لله ، والفكر لله الذي خطط ، أو الطاقة التي

فعلت كلها مخلوقة لله . اذن هو في التحقيق ليس له عمل الا توليف العناصر . فحين يقبل على أي عمل ، لا ينسى من سخر له هذه الأشياء لتنفعل له . لأننا قلنا إن كل فعل يحتاج الى حاجتين : فاعل ومنفعل . قد يأتي الفاعل ، ولكن لا يوجد المنفعل . . فساعة ما تقبل على أي عمل تقول ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يعني أنا لا أقبل عليك لا بقدري ، ولا بعلمي . . ولا بشيء من عندي ، انما أقبل عليك بسم الله الذي سخرك لي ، وجعل انفعالك لي من فضل تسخيره . . يبقى أنت لا تقبل على الشيء بأسبابك لا تقبل على الشيء بعناصر الفعل منك ، بل اقبل على الشيء بعناصر الخالق لهذه العناصر ، والذي جعلها تستجيب لفعلك فتنفعل لك .

هذا اذا أقبلت على الفعل ، وهذا منهج المؤمن . فإذا ما نجحت في الفعل ، اياك أن تعزو ذلك الى حذقك ، أو الى مهارتك ، أو الى حسن تأتيك للأشياء ، بل قل ﴿الحمد لله﴾ فإذا ما أثمر العمل فقل : ﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ حينئذ يلتصق المؤمن بربه ، بادئا ، ومنتهيا ، وجانيا ثمرة خير . كل فساد يأتي للانسان منه وحده . ان أقبل على شيء وهو فاهم أنه به ، لا يقول بسم الله ، فيكون أبتر . . ان نجح في شيء يقول : أوتيته على علم عندي . كنتِ مخططا وعامل كذا وكذا . . وبعد ذلك اذا أدرك ثمرا قال : يا سلام أنا الذي عملته . يبقى اذن ثلاثة أشياء : الاقبال على الأشياء بـ ﴿بسم الله﴾ . والانتهاء منها بـ ﴿الحمد لله﴾ والاستصحاب لثمراتها بقوله ﴿ما شاء الله لا قوة الا بالله﴾ . . هذه مناهج المؤمن .

الغفلة قد تأتي للانسان ، وبعد ذلك تحشر نفسه في الأشياء ، فلما يجيء نصر وفتح يقول : نحن صمدنا وعملنا . . قال : لا . . استغفر ربك من كل هذه الخواطر . لقد حصلت لسيدنا أبو بكر الصديق ، فقال اننا لن نغلب اليوم عن قلة . يعني نحن ما شاء الله كثير . فقال لهم ﴿خذوا هذا القلم أولا ، لكي تفوقوا من هذه الحتة﴾ .

اذن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ سبح بحمد ربك يعني اياك أن تجعل له شبيها وإنه فاعل لشيء ، بل هو الفاعل ، غاية ما في الأمر إنه كرمك ، وأجرى الخير على يدك ، يبقى أنت حظك من التكريم ماذا ؟ إن الله جعلك أهلا لأن يجري الخير

على يدك ، انما أنت لم تفعل شيئا في الخير .. هذه المسألة ، نحن نعامل نفسنا بها ... لما تقول مثلا أنا قتلت الكافر .. يجيء واحد يحقق تحقيقا حكمي . يقول : انك لم تقتله ، ان السيف هو الذي أطار رأسه . أليس كذلك ؟ هو الذي قتله أم السيف السيف هو الذي قتل . اذن لماذا قلت قتلت ؟ لأن السيف آلة في يدي . قل له : وأنت آلة في يد الله . مثلما السيف آلة في يدك ، وبعد ذلك قلت أنا قتلت .. وطرحت الآلة ، كذلك لما أنت تقتل لا تقل : أنا قتلت قل ربنا الذي قتل . لأنك آلة ، والا كيف استبحت لنفسك أن تقول أنا قتلت مع ان السيف القاتل . وما الذي جعلك تقول هذا ؟ لأن السيف آلة في يدي . وكذلك أنت آلة في يد الله . فكما أبحت لنفسك أن تقول أنا قتلت ، ولم تقتل ، وانما قتل السيف . « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وأنتم آلة فقط في يد الله ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ اذن ففي غمرة النصر ، وفي زهو الانتصار ، يجب ألا تذكر نفسك أنك عملت ، استغفر ربك من مثل هذه الخواطر . أو مثلما تقول له : إن الفتح جاء ، والهواجس التي كانت في نفسك زمان استغفر عنها .. لماذا يبطىء ربنا بالنصر ألسنا على حق ؟ لماذا نرضى الدنية في ديننا؟ ان هذه كانت اعتراضات على المنهج الالهي . لما يقول لماذا نقبل الدنية في ديننا . انه الرسول يا أخي . ولذلك سيدنا أبو بكر كان يقول ماذا ؟ إلزم غرزك يا عمر انه رسول الله ﷺ ، في صلح الحديبية . لما قال لماذا نقبل الدنية على ديننا ؟ لماذا يردونا ؟ ولماذا يعملوا فينا ؟ . ان الرسول ﷺ هو الذي يتفاوض يا سيدنا عمر .. هو صحيح غيرة على الموقف ، انما سيدنا أبو بكر يقظ قال له : لا تنسى إنه رسول الله فالزم حدك . إلزم غرزك يا عمر انه رسول الله ﷺ .. فلما يقول : ألست أخبرتنا أننا سندخل المسجد الحرام محلقين ومقصرين ، فالنبي بكل أدب يقول له : أقلت لك هذا العام ؟ . لماذا يوقفوا النبي ﷺ هذا الموقف ؟ يوقفوه لماذا ؟ صحيح هي غيرة على الدعوة وغيرة منهم على رسول الله ، حتى ان الامام علي لما يجيء يكتب العهد ، يقول : هذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله .

فسهيل بن عمرو يقول له ، حيلك شيل ايدك ، لو أننا آمنا بأنك رسول الله لكانت المسألة انتهت . أنت تريد تدخلنا في الدين .. لا .. قل : هذا ما تعاقد عليه محمد بن عبد الله .

قال الرسول : اكتب هذا ما تعاقد عليه محمد بن عبد الله .

فالإمام علي تأخذه العزة ويقول : كيف لا أقول رسول الله ؟ . . انه رسول الله عندك يا سيدنا علي .

انما هؤلاء لم يؤمنوا بانه رسول الله ، ولو كانوا يؤمنون بانه رسول الله ما كان حصل خلاف .

رسول الله يقول له : اكتبها كذا . .

يقول علي : لا أمحو رسول الله . .

ـ امحها .

ـ لا أمحي رسول الله .

ـ امحها .

فالنبي عليه الصلاة والسلام من اعلامات نبوته ، يضحك ويقول له : ستسام مثلها فتقبل . ستسام مثلها يعني مثل هذه الكلمة والموقف فتقبلها أنت . . أنا أقول لك أقبلها وأنت لا تقبلها . . انما ستجيء لك مواقف تسام مثلها ويقال لك أكتب هكذا ، فتقبلها أنت .

وبعد ذلك ينتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى ، وبعد ذلك يأتي الخلاف ، وبعد ذلك تأتي موقعة الجمل ، وبعد ذلك تأتي موقعة صفين ، وبعد ذلك يجيئوا ليعملوا العهد .

هذا ما تعاقد عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين فعمرو بن العاص قال له : لا . . أمير المؤمنين !! لا . . أنت لست أمير المؤمنين لو كنا نعترف أنك أمير المؤمنين ما كنا قاتلناك . . مثل السابقة تماما ولكن قل : هذا ما تعاقد عليه علي بن أبي طالب .

فقال ﷺ : ستسام مثلها فتقبل .

اذن الاستغفار قد يكون من زهو الاسباب ، قد يكون من أن لك في الأمر عملا ، أو

قد يكون الاستغفار من هواجس ، قد سبقت زمان أيام ما قمت بنشر الدعوة .

﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾[٢٩] ولا يقولون متى نصر الله ؟ الا لما نفوسهم تضيق ، ﴿متى نصر الله﴾؟ هذا استبطاء ، كأنك تتعجل القدر ، وكل شيء له نظام ، فاستغفر من الهواجس التي كانت عندك ، فقد جاء لك النصر . استغفر من الأشياء التي أخرجتك قليلا عن ثقتك بالله و . . والخ ، واذا رأيت خطايا من مثل هذا مما يمنع عقلك أن يكون رسول الله موضوع للخطاب فيه ، فاعلم ان المراد أمته . القرآن لما يجيء في بعض لقطات منه يعطينا مبادىء ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ، وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[٣٠] انه يخاطبه ، لو كان الخطاب هو المقصود ، كان يقول : ان الله بما تعمل خبيرا .

اذن فقد يخاطب الرسول والمراد أمته . واذا كان الرسول يخاطب بهذا الخطاب ، فلا تتأبى أمته حين تسمع شيئا . لأن الرسول داخل فيهم .

اذن فقول الحق ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ الاستغفار اما من استيقاظ النفس البشرية بزهو الانتصار ، والاعداد ، و والخ . . ان خطر لك هذا الخاطر فاستغفر منه . أو استغفر عما بدر منك من استبطائك لنصر الله ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ ما معنى ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ يعني أن ربنا كذب عليهم ﴿جاءهم نصرنا﴾ استغفر من مثل هذه الأشياء .

أو استغفر استغفار مقامات . . ما هو استغفار المقامات . هناك آية في القرآن تعطينا هذه المقامات في قوله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا﴾ . . ثم . . ثم . . تدل على أنها مراحل . . فكأن المؤمن دائما في معارج ، المؤمن دائما في معراج ، المؤمن دائما في سلالم ، سلم يتحقق فيصعد على سلم

(٢٩) الآية ٢١٤ من سورة البقرة .

(٣٠) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الأحزاب .

ثان . . فإذا ما كان في المرتبة الثانية ، يستقل ما كان منه في المرتبة الأولى ، كأنه أذنب . اذن هذا استغفار المقامات . . ولذلك قالوا ( حسنات الأبرار سيئات المقربين )

هنا حين فهمنا ( النصر ) و ( الفتح ) . وحين فهمنا ( التسبيح ) وفهمنا ( التحميد ) وفهمنا ( الاستغفار ) وفهمنا ( التوبة ) . ما الواجهة للسورة ؟ وما باطن السورة ؟!

الحديث الذي رواه الامام أحمد رضي الله عنه ، تعرض الى واجهة السورة الذي يشترك فيها كل واحد وقلنا زمان إن القرآن يحتاج الى تدبر ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ وقلنا معنى يتدبرون ، يعني لا ينظرون الى واجهة الأسلوب ، بل ينظرون الى ما هو من معطيات خلف الأسلوب . هذا معنى التدبر . التدبر انك لا تكتفي بمواجهة شخص ، بل تلف حواليه لتعرف كل جوانبه، لا تكتفي بالصورة .

ولذلك قلت ان ابن مسعود رضوان الله عليه يقول : ثوروا القرآن . ما معنى ثوروه ؟ هيجوا أساليبه لكي تبان لكم الأشياء ، كما تثور الأرض لتخرج كنوزها . .

هنا الواجهة هذه يفهمها الكل ، لأنه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نستقبل ذلك بأننا نسبح بحمد الله ، ونستغفره . لكن البخاري رضي الله عنه في روايته عن سيدنا موسى بن اسماعيل ، يقول : حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا أبو عوانة عن بشر ، عن سعيد بن الزبير رضي الله عنه عن ابن عباس قال : كان عمر رضي الله عنه يدخلني ( يعني ابن عباس يتكلم عن نفسه عبد الله بن عباس) يدخلني في اشياخ بدر . ( وهو كأن ما زال حدثا صغيرا ) فكأن بعضهم قد وجد في نفسه . لم يدخل هذا معنا ونحن لنا أبناء مثله ؟ .

قال ابن عباس : فدعاهم ذات يوم ، ودعاني معهم . . فقلت انه ما دعاني الا ليريهم ( ليريهم ماذا ؟ يعني المكانة التي تؤهل ابن عباس لكي يجلس مع أهل بدر ، مع شيوخ بدر وان كان ما زال صغير السن )

قال عمر : ما تقولون في قول الله سبحانه ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ؟

قال بعض الصحابة : أمرنا أن نسبحه ، وأن نستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ( أليست هذه هي الواجهة ؟ وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ) .

قال عمر : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟

قال : لا . . ( ليس معنى ذلك أن الآية لا تعطي هذا ، هي تعطي هذا ، انما لما أفسر لا أقول هذا الكلام ، لأن هذا كلام على طرف الثمام ، كلام في الواجهة ) قال : فما تقول ؟

قال : أقول : ذلك أجل رسول الله اعلمه له . . فقال ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فذلك أجلك . لماذا لأن مهمة محمد رسول ، وما دام جاءه النصر والفتح والمسألة انتهت وكمل الدين يبقى كأن مهمة الرسول انتهت . وما دام مهمته انتهت ، يبقى الرفيق الأعلى خير له من هذه الدنيا .

قال : لا أعلم منها يا ابن عباس الا ما تقول . يعني أنا لما اقرأها لا يجيء المعنى الأول انما يأتي المعنى الثاني ) .

وقد كان . فانها لما نزلت هذه الآية استدنى رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وأسر اليها بها فبكت . ثم أسر اليها بشيء فضحكت . قالت أم سلمة فلما انتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى قلت لها يا فاطمة : أسر اليك رسول الله بشيء فبكيت ثم أسر اليك بشيء فضحكت . فماذا أسر لك في الأولى ؟ وماذا أسر لك في الثانية ؟ .

قالت : أسر لي أن قول الله ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ذلك أجله . ثم أسر إلي في الثانية أنني سأكون أول أهل بيته لحوقا به ، فضحكت .

هنا نحن نأخذ من سرورها بأنها أول أهل البيت لحوقا به ، ان الموت ليس كما نظن ، ان الموت ليس انعدام المسائل كما نفهم . هي انعدام الحياة المعروفة لنا . والا لو لم يكن بمجرد موت الميت لقاء بمن يموت وأنس به ، لما سرها أن تكون أول أهل بيته لحوقا به ، سواء لحقته أول ما تموت ، أو لحقته حين تقوم الساعة . . ما

سرورها في هذا ؟ اذن فلا بد أن نعلم أنه بمجرد أن يموت الميت يبقى له لقاءات ، ويبقى له أنس بأحبابه السابقين من المتقين ، و أنس بجوار ربه .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا في كل ما نأتي وفي كل ما ندع ، وأن يجعلنا دائما بادئين بسم **الله** ، منتهين بحمد الله مستثمرين بلا حول ولا قوة الا بالله .

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير ﴿سورة المسد﴾

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أحمدك ربي ، واستعينك وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

**وبعد . .**

انتهينا مما سبق الى أن الحق سبحانه وتعالى ، حينما عرض أمر الدعوة وأمر خصومها ، قطع كل وسيلة للتفاهم بين الحق والباطل على أي أساس من الأسس ، وذلك في قوله سبحانه ﴿قُلْ يا أيها الكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ . وهذا القطع انما كان لظاهر حال الدعوة ، من قلة مضطهدة في دينها ، يحاول خصومها أن يفتنوها عن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعلن أن ذلك الأمر لن يستقر ، وهو وجود معسكرين : معسكر للحق ، ومعسكر للباطل ، بل إن أمر الدين صائر الى أن يشمل كل الجزيرة فكان لا بد أن يتعرض القرآن لمستقبل هذا الدين ، مع وجود هذه الحال الميؤوسة فخرق الحق سبحانه وتعالى حواجز الغيب كله ، سواء كان ذلك حاجز المكان عن الحال أو حاجز الزمان عن الأمر الماضي أو حاجز الزمان عن الأمر المستقبل . وعرض على رسوله ﷺ نماذج عن كشف أحوال الكافرين والمنافقين في أنفسهم . وأعلمه بها . فإذا ما قالها رسول الله ﷺ وحدثهم حتى بما يقولون في نفوسهم ، علم هؤلاء أنه الدين الحق الذي أنزله الله ، وهو الذي أخبر رسوله بما في نفوسهم ، وبذلك يكون قد أعلمه بأمر حال فصله عنه المكان .

كما أن القرآن قد تعرض أيضاً للأحداث الماضية التي حجزها بالغيب حاجز الزمان الماضي . وقلنا إن الحق سبحانه وتعالى أوجز ذلك في كل آية فيها ﴿وما

كُنْتَ﴾ .. ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .. ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ .. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِم اذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ .

وبعد ذلك جاء في أعقاب سورة ( الكافرون ) ليخرق حجاب زمان المستقبل ، وقلنا إن المستقبل ، والحال ، والماضي ، ذلك بالنسبة للبشر ، وما الحق سبحانه وتعالى فلا ماضي عنده ، ولا حاضر ، ولا استقبال ، لأن الأمورتجري في كونه على مقتضى ما علم أزلا ، ولم يتخلف معلومه عن الواقع أبدا .

اذن فحينما يتحدث عن الأمر المستقبل ، يتحدث عنه حديث الواثق بحصوله ، لأنه يخرج شيء في كونه عن مراده ، وضربنا لذلك مثلا بقوله سبحانه ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾[٣١] .

ومن أحداث المستقبل الاسلامي في أنه لن يظل معسكرين : معسكر للحق ، ومعسكر للباطل لا يلتقيان بل اذن الله بأن يخرق حجاب الزمن المستقبل ليدل على مصير ذلك الدين ، وأنه سيعم الجزيرة كلها . وأن الله أرسل رسوله ليظهره على الدين كله .

قلنا إنه تكلم عن هذا كلاما عاما عن الدين كله ، وعن المسلمين المضطهدين المعاصرين لنزول هذه الآيات في قوله سبحانه ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾[٣٢] أحكام ما كان العقل البشري يستطيع أن يتطاول الى معرفتها ، لأن المقدمات لم تكن توحي بشيء من هذا .

وبعد ذلك يتكلم أيضا في أن يخرق الزمن المستقبل ، فيقول ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ

---

(٣١) الآية الأولى من سورة النحل .

(٣٢) الآية ٥٥ من سورة النور .

تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . . ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾(٣٣) ولذلك لما اشتد ايذاء قريش لرسول الله ، قال رسول الله اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف . . وفعلا وقعت دعوته ﷺ ، واشتكى الناس القحط والجدب ، حتى ان الواحد منهم كان ينظر الى السماء فيرى بينها وبينه دخانا من ضعف بصره من الجوع ، فلا يستطيع أن يرى شيئا .

وبعد ذلك قال الحق أيضا في حين الوعيد بهذه الآية ، ولكن لم تستمر هذه الآية على قريش ﴿إِنَا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً﴾ . ومع ذلك يكشف العذاب ثم يعودون الى ما كانوا عليه . . وبعد ذلك قال ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ . وفعلا وقعت الأشياء كما أخبر بها الحق سبحانه وتعالى رسوله ، في أمر لم تكن حال الدعوة مبشرة بما يمكن أن يستنبطه العاقل بأنها ستصير الى النصر أو الى القوة وبالعكس يختار أشخاصا مخصوصين ليتكلم عنهم بما يحدث لهم فمثلا يقول في الوليد بن المغيرة سنسمه على الخرطوم ، والخرطوم هذه في الوجه الذي هو الأنف ، وهو أشرف شيء يحافظ عليه الانسان ، وقد وقع ذلك في غزوة بدر ، وحينما وجدوه وجدوه مضروبا على أنفه ضربا ترك فيه علامة . . اذن فقد وقع حتى في الأشخاص .

فسورة ( النصر ) كانت خرقا لحجاب الزمان المستقبل بالنسبة للحق . فقال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فالمطلوب منك أن تسبح بحمد الله ، و أن تستغفر الله ، وأن تتوب اليه . وشرحنا ذلك بما فيه الكفاية . وقلنا إن ذلك مطلوب ساعة النصر ، لماذا التسبيح؟ ولماذا الحمد ؟ ولماذا الاستغفار ؟ ولماذا التوبة الى الله ؟ لأن ساعة النصر قد تغر الانسان ، وقد توحي له بشيء أن له في هذا النصر أسباب . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يذكر المؤمن حين أن يجني ثمرة أي فعل ، أن لا يذكر حوله ، ولا طوله ، ولكن يجب أن يسبح بحمد ربه الذي جعل ا لنصر على يديه ، وهو لم يكن في هذا النصر الا آية من آيات الله ، شرفه الله بأن يجري ذلك النصر على يديه .

---

(٣٣) الآيات من ١٠ ـ ١٦ من سورة الدخان .

ولذلك كان رسول الله ﷺ كما قصت السيرة ، يدخل مكة على الحال التي تعرفونها ، وقد حنى رأسه حتى كاد رأسه أن يمس الرجل ، تواضعا لله . فلا غرور ولا كبرياء . ومع ذلك أبو سفيان حينما يقف مع العباس رضي الله عنه ليستعرضا الفاتحين يقول للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما . . أيضا يظنها ملكا . . وكأنه رأى في رسول الله أبهة الملك ، أو غطرسة الملك ، أو غرور الملك ، ولم ينظر الى تواضعه ﷺ وقد أدخله الله مكة فاتحا بهذا اليسر ، وبتلك السهولة ، وقد وضع رأسه حتى ليكاد الرأس أن يمس الراحلة . لم يفطن الى ذلك . . ولكن العباس رضي الله عنه يفطنه اليه ، وينبهه : أهذه الحالة التي تراها حالة ملك ؟ حالة التواضع ، حالة الانكسار الى الله ، حالة ترك الغرور والحول التي تراها ، أهذه حالة ملك ؟ فيقول له : انها النبوة يا أبا سفيان .

اذن فهذا هو مقام النبوة ، والقرآن عرض لنا كثيرا من مقامات هذه النبوة ، في أنها حين تستقبل نعمة الله بالتمام ، وحين تستقبل فتح الله ونصر الله لا تنظر الى نفسها أبدا ، ولا الى السبب الذي أعدته ، وانما تنظر الى الحمد بالنصر، والحمد بالفتح وهو الله سبحانه وتعالى .

فمثلا نجد أن سيدنا يوسف حينما يمكن له الله في الأرض ويجمعه مع اخوته يقول ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ . . فكان ما حصل له لم ينسبه الا الى الله . . وبعد ذلك حينما صار على خزائن الأرض وجاء اخوته وجاء أبوه وجاءت أمه وخروا له سجدا ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ . وأيضا حينما يكون في السجن وبعد ذلك يأتي السجينان كما تعلمون في القصة ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ لماذا لجأ السجينان الى سجين مثلهما قالا انا نراك من المحسنين ، ومعنى انا نراك من المحسنين يعني إننا رأينا فيك انسانا غيرهم . لا بد أنهم رأوا فيه سمات صلاح وأدب واتساع حكمة ، رأوا فيه أشياء حتى لجأوا اليه في تفسير أحلامهم . . هذه تعطينا قضية نفسية ، هذه القضية النفسية لا بد أن تكون

نصب عين كل متدين، وهو أن الشرير يحترم الخير،.. المسيء يحترم المحسن.. وحين يطرأ له أمر من الأمور، يكون ثقته في المحسن هي الدافعة له على أن يطلب منه المعونة، لأنه لا يخدع نفسه. ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فماذا قال يوسف؟ قال لهم: لست عجبا في أن أكون محسنا، وماذا رأيتم من احساني؟. عندي أشياء كثيرة غير هذه.. لقد رأيتم أخلاقي، وسلوكي وسمتي، لكن أنا عندي أشياء أخرى غير هذه ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾.. اذن دخل في ماذا؟ ما دام عندهم الرصيد وقالوا ﴿انا نراك من المحسنين﴾ وأصبحت فيه حيثية، فأراد أن يدلهم على أن فيه ناحية من نواحي الخير أكثر من هذه.. يعني أنه يكشف عنه الغيب ويقول لهم ماذا ستأكلون اليوم.. هذه مسألة ثانية اذن.. المسألة أن من يعلمه يكشف له حجب الغيب.

استغل سيدنا يوسف هذه الفرصة ليقول لهما لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله وهذه ليست ذاتية لي يعني ليست شطارة مني ذلكما مما علمني ربي أي لفتهم الى مصدر الخير كله في قولهم ﴿انا نراك من المحسنين﴾ - ما هي حيثيتها ان هذا منهج ربنا ليست هداية ليست عبقرية ليست مواهب ليست بذاتية ولكن ذلك من فضل الله علي وفضل الله علي ليس أكون محسنا معكم فقط ولكن الله يعطيني من حجب الغيب وأقل لكم عليه ذلكما مما علمني ربي اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون يستغل الفرصة حتى يقل لهم على منهج الحق تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب. وبعد ذلك ينتهي الى أن يجلس منهما مجلس المبلغ للحق ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.. شهادتهما له بأنه محسن أولا استغل حاجتهم في أن لهم طلبا عنده، واستغل رأيهم في أنه محسن، ثم زاد ذلك الاحسان بما قال وأنبئكما بالطعام قبل أن يأتيكما، وهذا منهج من الله لأنني تركت دين الباطل واتبعت دين الحق. أي فمن الممكن لكل واحد منكما أن يكون مثلي. وبعد ذلك دخل على القضية الأصلية ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾.

فلما فرغ من مهمته واستغل حاجتهما له، وأنهى ما يريد، قال لهما على تفسير

الرؤ يا ، لم يتعجل في أول الأمر وفسر لهما الرؤ يا ، لماذا ؟ أخذ ثمنها ؟ لأن الآذان مصغية له ، فقال لهم على منهجه وما يريده ، ثم قال لهم تفسير الرؤ يا : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ .

المهم أنه ساعة ما مدح لم يغر بالمدح ، ولم يعز شيئا الى نفسه ، وانما عزاه الى ربه سبحانه وتعالى ، وتجرد من حوله ومن طوله . .

كذلك سيدنا سليمان حينما فهم عن النملة ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾(٣٤) .

اذن ففي ساعة النصر وفي ساعة الزهو وفي ساعة الفخر ، يجب أن يتذكر الانسان ربه ، فيسبحه ، ويحمده ، وان خطر على نفسه خاطر غير ذلك ، فيجب عليه أن يستغفر ربه وأن يتوب اليه .

بعد هذه السورة واصل الحق سبحانه وتعالى الجولة التي تخرق حجاب المستقبل . يعني أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم في اعطاء الكوثر ، وان شانىء الرسول هو الأبتر ، أعطانا لونا من الكوثر في الدنيا ، وهو ﴿إذا جاء نصر الله الفتح﴾ كان ولا بد أن يعطينا أيضا نموذجا لشأن المبغضين لرسول الله فيقول ﴿ان شانئك هو الأبتر﴾ فكما أعطانا النموذج الأول في الكوثر . . بما أعطاه الله للنبي في الدنيا عاجلا من النصر والفتح ، أراد أن يعطينا أيضا صورة من صور ﴿ان شانئك هو الأبتر﴾ واختار الشانىء من ؟ أي شانئ ؟ . . لا . . اختار شانئا له مع الدعوة مواقف ، وظلت مواقفه من العداء للدعوة من بداية الدعوة الى نهايتها ، ويختاره من عصبة رسول الله ﷺ . . عمه . . اذن المسألة لا بد أن يكون فيها مغازي هذه المغازي ان هذا الدين لم يجيء دين نسب ، لم يجيء دين رابطة دم ، لم يجيء دينا قوميا لم يجيء دينا عصبيا بل جاء دين من يتبع رسول الله ﷺ فهو منه ، قال : سلمان منا آل البيت . . وقلنا نبوة الأنبياء تنتقل الى صلة الدعوة ، لا الى صلة النسب وضربنا المثل بنوح وابنه .

---

(٣٤) الآية ١٨ من سورة النمل .

الرسول عليه الصلاة والسلام ساعة ما حدث جفوة بين سيدنا بلال وبين سيدنا أبي ذر . . أبو ذر كان ما زال قريب عهد بالجاهلية فقال لبلال : يا ابن السوداء . . فغضب بلال وذهب الى رسول الله ليشكو له أبا ذر . . فقال رسول الله : طف الصاع ، طف الصاع ، طف الصاع ، أعيرته بامه انك امرؤ فيك جاهلية . . يعني ما زال عرق الجاهلية فيه . . وما زال به حتى أن أبا ذر ذهب الى بلال وطرح عنقه على الأرض وأقسم أنه لا يرفعه حتى يطأه بلال . وبعد ذلك قال رسول الله ﷺ قولته المشهورة : ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى والعمل الصالح ، ولو أن الأعاجم جاؤوني بأعمالهم وجئتموني بلا عمل ، لكانوا أولى بمحمد منكم .

فالله بعد ذلك يأتي بعمه أبي لهب لينزل فيه قرآنا بالتباب ، والهلاك، والدمار . وقرآنا يتلى ، ويتعبد بتلاوته ، ويظل يقرأ الى أن تقوم الساعة . في من؟ في عم رسول الله ﷺ. يعني اختار من أعداء رسول الله ﷺ أقرب العصبة له . لكي يدلنا على أن هذا الدين ليس دين عصب ولا أي شيء من هذا . فجاء الحق سبحانه وتعالى يعطينا نموذجا من خرق حجاب الزمن المستقبل ، ويخبر بأشياء والأخبار بأشياء في الزمن المستقبل قد تكون من متعلقات القدرة ، وقد تكون من متعلقات العلم . ما الفرق بين متعلقات القدرة في الزمن المستقبل ومتعلقات العلم ؟ يعني مثلا متعلقات القدرة انك بقدرتك تستطيع أن تسيطر على انسان فيما يأكل غدا لأنك تحبسه في مكان والمفتاح معك وليس هناك سبيل لأن يذهب اليه أحد ، ولم تترك له الا طعاما عيشا وجبنا ، فتستطيع أن تقول هو لن يأكل غدا الا هذا الطعام . لماذا قلت هذا ؟ لأنك أنت بقدرتك تحكمت في أن تحجزه ، وتحكمت في أن لا تدع عنده الا عيشا وجبنا . يبقى هذا متعلق بماذا ؟ . متعلق القدرة ثم هناك شيء اسمه متعلق العلم ، بأن تتركه مختارا بين أشياء كثيرة ، ومع ذلك تحكم بعلمك انه لن يختار الا ذلك الشيء . تحبسه أيضا في مكان وتضع عنده لحما مشويا وفراخا . . وسمكا ، وجبنا ، وغيره . . وبعد ذلك تقول انه عنده أشياء كثيرة ، انما أنا أخبركم بما يأكله غدا . ماذا سيأكل ؟ . . سيأكل كذا وكذا . . هو عنده أشياء كثيرة فلماذا اخترت أنت ولم تقيده

قدرتك بلون واحد ، بل تركت له خيارا في أشياء كثيرة ، تبقى أنت تعلم ما يختاره . هذا تحكم العلم . . اذن تحكم العلم انما يأتي في أمر لم يسبق فيه تحكم القدرة ، ولكنه فيه بديلات كثيرة ، وأنت علمت قبل أن يقع الشيء أنه سيختار ذلك الشيء . . بمحض اختياره ، ولا قدرة ترغمه على شيء من الأشياء . . يبقى هذا اسمه تعدي العلم الى الزمن المستقبل . اذن تعدي العلم الى الزمن المستقبل لا يمكن أن يأخذ حظه كعلم الا اذا كانت هناك بديلات ، فان لم تكن هناك بديلات يبقى التحكم للقدرة .

فالحق سبحانه وتعالى يضرب لنا ذلك المثل في خرق حجاب الزمن المستقبل . . نحن نعلم ان كثيرا من خصوم رسول الله ﷺ ، ظلوا مدة على خصومتهم ، ثم لانت قلوبهم للاسلام ، وجاؤ وا الى رسول الله ﷺ وأعلنوا اسلامهم . . هذا عمر بن الخطاب ذهب ليقتل رسول الله ، فإذا به يرجع مسلما . . وهذا خالد بن الوليد . . وهذا عمرو بن العاص . . اذن فالسوابق الموجودة تدل على أن كثيرا من الذين آذوا رسول الله ﷺ والذين كانت لهم عداوة معه جاءوا مسلمين : فكيف يختار الحق واحدا من هؤلاء ليحكم بأنه لن يصيبه ما أصاب هؤلاء . يعني لن يأتي مسلما . تحكم في أمر له فيه خيار ، فيقول ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ كأنه انتقاه من دون القوم الذين علم الله أزلا انهم سيسلمون قال ان هذا لن يسلم، وبعد ذلك يصلى نارا ، وما دام يصلى ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ هذا كلام في الآخرة ، ولا يصلى نارا ذات لهب وامرأته ، الا إذا كان محكوما عليه بأنه لن يسلم . . نظائره يأتون ويسلمون ، هل كان محمد ﷺ يجازف في مثل أبي لهب بهذه القولة ، مع أنه يعلم كثيرا ممن كانوا على مثل أبي لهب جاؤ وا فأسلموا ؟ فلو فرض أن أبا لهب هذا جاءني وسط العرب وقال : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . . ماذا يكون موقف القرآن وموقف محمد ﷺ ؟ . أظن لو قبلناها منه لقال بعد ذلك ، لكن قرآنكم قال اني سأصلى نارا ذات لهب ، ومع ذلك أنا آمنت بالله ، وشهدت بصدق رسول الله .

اذن رسول الله لم يقلها ، وانما بلغها عن الله الذي يعلم أزلا ما ينتهي اليه أمر أبي لهب دون بقية القوم سيأتون مسلمين ، إلا أن أبا لهب في هذا الأمر الذي له فيه خيار لم يقلها ولو نفاقا وقال الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ اذن هذا خرق لحجاب الزمن

المستقبل في أمر له بديل وللانسان فيه خيار ومع ذلك علم الله به ، فكان على ما قاله الحق سبحانه وتعالى .

وقلنا إن أبا لهب موقفه عن الدعوة من أول يوم حينما قال الحق لرسول الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وقف بين الصفا والمروة وقال : وا أصحاباه . ودعا القوم وقال : يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم فلما اجتمع القوم قال : أرأيتم لو أني أخبرتكم أن بأسفل هذا الجبل عدو لكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قط . قال : ﴿إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ مِنْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . . فقال له أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ وأيضا في تتبع رسول الله ﷺ للقبائل ، كما حدثنا ربيعة بن عياد الجبلي قال : كنت مع أبي رجلا شابا ، وأنا أنظر الى رسول الله ﷺ يتتبع القبائل، ووراءه رجل طويل له وجاهة ، وله جسمه ، فإذا ما وقف رسول الله ﷺ على قبيلة قال يا بني فلان : اني رسول الله اليكم جميعا ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تنصروني ، وأن تمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به فإذا انتهى من قوله قال الذي وراءه : يا بني فلان ، ان هذا جاء ليسلخكم عن اللات والعزى ، وعن حلفائكم من الجن من بني مالك بن أخنس فلا تسمعوا له ، ولا تتبعوه . فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : انه عبد العزى . .

يبقى في أول ما جهر رسول الله بالدعوة ، وقف منه أبو لهب هذا الموقف ، ولما جاء يعرض نفسه على القبائل وقف منه أيضا هذا الموقف ، كأنه مترصد حركات النبي عليه الصلاة والسلام . يعني ليست عداوة فقط ، امتنع عن أن يقول لا بل ويحاول أن يسد الباب . .

وأيضا العصبية التي جاءت ببني هاشم ، والتفوا حول ابي طالب نافل النبي عليه الصلاة والسلام وبعد ذلك حصل حصار الشعب ، أبو لهب وحده من بني هاشم انسلخ عن قومه وعاهد قريشا في مقاطعة بني هاشم . يبقى الانسان الذي انسلخ عن قومه ، وبنو هاشم انحصروا في الشعب وعلى رأسهم أبـو طالب ، كان أبو لهب مع قريش في جانب من المقاطعة ، يبقى اذن سائر أيضا في عدائه لرسول الله ، ويتعدى ذلك الى امرأته . فما كان من الحق سبحانه وتعالى الا أن سجل هذه الأحداث كلها . ثم كما قلنا خرق حجاب المستقبل وقال هذا لا يمكن أن ينال نور الاسلام ، فقال الحق سبحانه

وتعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ . . وتب بمعنى القطع، الهلاك ، البوار . وطبعا عبر عن اليدين ويعنون كل الجسم . لأن أغلب الأعمال تزاول بالأيدي ﴿بما عملت أيديكم﴾ هل سنجازى فقط في الآخرة بما عملت أيدينا ؟ لا ، بل أيضا بما عملت أرجلنا ، وبما عملت ألسنتنا ، وبما عملت عيوننا ، ولكن نظرا لأن أغلب الأشياء تتناول دائما باليد ، فيقول الحق سبحانه وتعالى ﴿تبت يدا﴾ . . هو أبو لهب دعا ، لا شك انه دعا وهو يعرف من يجيب ذلك الدعاء ، لو كان في مقدوره أن يتبها . كان يتبها . اذن فهو في قوله ﴿تبت يدا﴾ يدعو أن تبت يدي رسول الله ﷺ ، معنى أن يدعو أن تبت يديه ، يدعو عليه ، انه ليس في مقدوره هو انه يتب ، يبقى لازم يوجد انه وبعواطفه ، وبفطرته يعلم أنه غير قادر على ذلك ، فلسانه يقول الدعوة لا بد لمن يملك ؟ اذن هذه شهادة منه حينما يدعو على رسول الله بأنه لا يملك أن يفعل المدعو به برسول الله . أبولهب حين يدعو اذن فهمنا منه أنه لا يقدر ، وانه بفطرته وغلبة الحق على لسانه يتوجه بالدعاء الى من يتب . . ان من تتوجه بالدعاء اليه هو نفسه من تكذب محمدا في البلاغة عنه . . هذا مما يدل على أن الفطرة التي في النفس ماذا تفعل ؟ تصادم الفكر ، تصادم التعقل الكاذب ، تصادم الهوى . . فلما هو يقول تبت يدعو من ؟ يدعو القوة التي تقدر على التب . هل تسمع له هذه القوة ؟ يبقى دعاؤه هراء ولغوا أم لا ؟ تبقى اذن أبو لهب دعا لغوا في قوله . تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ ولكن الحق سبحانه وتعالى الذي يملك هو الذي قال ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ حين يكون المدعو لأن ينب هو الذي قال ﴿تبت يدا﴾ يبقى معنى ذلك ماذا ان التباب حاصل لأن الذي يملك أن يتب هو الذي قال تبت يدا . لكننا سنقولها وستكون قرآنا . فهي منا دعاء ، ولكنها من الحق قطع . ولذلك قال الحق ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ ولا تفهموا انها على منطق الدعاء قد يجاب وقد لا يجاب . . ولكنه قال ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ يعني وقد حصل . اذن لغتنا على أنها من الحق الذي يدعى لأن يتب ، قال عدو محمد ﷺ « تبت يداك » اذن هذه دعاء لأنه لا يملك وحين تكون من الذي يملك اذن فهي ليست دعاء ، لأن المدعو هو الذي قال ، وأنا سأقولها ، والرسول يقرأها ، تبقى منا نحن دعاء . . الحق يقول ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ يعني قد حصل المراد .

هذا أمره في دنياه ، ولذلك تجد أن أبا لهب ، رغم ما كان له في قومه ، تحدث له أحداث حين يموت لم تحدث لأتفه واحد في مكة . مثلا يصيبه الله بمرض اسمه العدسة ، ان العرب يعتقدون في هذا المرض أنه كالطاعون ، وأن الانسان السليم اذا اقترب ممن أصيب بالعدسة لازم يصاب به ، فكانوا يفرون منه . . مات أبو لهب بالعدسة وظل ثلاثة أيام لا يقربه أحد ، حتى كاد أن ينتن ، فرق قلبهم على أن يستروا جسمه . . فماذا صنعوا ؟ . . حفروا حفرة ، وأحضروا عيدانا من الخشب وأخذوا في دحرجة جثمانه من بعيد حتى القطع صار في المشيع [ يعني ليس هناك أحد يحمله فيحضروا عيدانا من الخشب الى أن يلقوه في الحفرة ثم يردموا عليه من بعيد . . حتى في الموت ، وهو الوقت الذي يستطيع كل واحد أن يعاون في الحمل ] . .

كان أبو لهب له ولدان : عتيبة ، وعتبة قبل أن يعلن رسول الله ﷺ دعوته ، وكان الرسول له بنتان : رقية ، وأم كلثوم ، فخطب بنتي رسول الله لإبنيه . فلما جهر رسول الله بدعوته ووقف منه أبو لهب ذلك الموقف قال لابنيه : لستما مني ان لم تطلقا بنتي محمد . . فعتبة كان مؤدباً وطلق رقية . لكن عتيبة قال : والله لا أطلقها حتى أؤذيه . فمر على رسول الله ﷺ وقال انني رددت عليك ببنتك وطلقتها ثم تفل في الجهة التي فيها رسول الله ﷺ . فقال ﷺ ، وكان عمه أبو طالب موجودا : أكلك كلب من كلاب الله . .

في هذه الأثناء كانت فيه رحلة لقريش ذاهبة الى الشام وكان فيها أبو لهب وابنه ، فلما وصلوا الى مكان أرادوا أن ينيخوا فيه فقال أصحاب ذلك المكان انه مكان مسبعة ، يعني مكان ظهور السباع فتنبه أبو لهب وقال يا معشر قريش أغيثوني من دعوة محمد . فما كان منهم الا أن جاؤوا بإبلهم وأناخوها كالدائرة وجعلوا المبيت في وسط الدائرة . وبعد ذلك جاء سبع فظل يتشمم الى أن وصل الى عتيبة فأكله .

هنا يقولون إن رسول الله ﷺ حينما قال : أكلك كلب من كلاب الله . . الكلب أضيف الى من ؟ الى الله . ولما أضاف القليل الى الله صار كثيرا . . يعني الكلب لما أضيف الى الله لازم يبقى سبع . . وفعلا حصل الواقع كما قال رسول الله ﷺ .

وبعد ذلك الحق سبحانه وتعالى يعد بها تعدية أخرى ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ لأنه كان يقول : والله ان كان ما يقول ابن أخي حقا ، فسأفتدي نفسي منه بمالي ، وبولدي .

اذن فرد الحق سبحانه وتعالى على قوله بأنه لا يغني عنه ماله وما كسب هنا العلماء عندما جاؤ وايفرقون بين ماله وما كسب المال هو الأصل والمكاسب هو ما ينشأ عن المال من أرباح . . يبقى عنده بستان وشجر وبعد ذلك يأتي بثمر . . عنده حيوانات وبعد ذلك تلد ، يبقى هذا كسب . . . أو ماله الذي ورثه وكسبه الذي نتج من مجهوده . . وقال قوم : لا . . انما يعني الحق بما كسب . . ولده . . لأن رسول الله ﷺ يقول : ان من أطيب كسب الرجل أن يأكل من عمل يده وكسبه ، وولده كسبه . . يعني الانسان عندما يأكل من ابنه يبقى هذا أيضا اسمه كسبه . ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ يعني المال والولد . . وبعضهم قال : انه كان اتخذ عند رسول الله ﷺ يدا ، واتخذ عنه قريش يدا فقال : أما اليد التي لي عند محمد فهي ستكون عونا لي ان كان على حق وينتصر ، وأما اليد التي لي عند قريش فتنفعني ان انتصرت قريش . . ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يبقى اذن ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ هذا أمر دنياه ، يجعل الله سبحانه وتعالى ما يقف عليه البشر في أمر الدنيا من أشياء يحسونها ، بعد أن كانت مستقبلا فتصير حالا ، وبعد أن تصير حالا ستصير ماضيا ينقله الثقاة . . فكل حدث من الأحداث التي تحدث كانت في وقت ما مستقبلا .

بعد ذلك كانت في وقت ما حالا ، ثم تكون بعد ذلك ماضيا .

وهذا الذي حدثنا عنه كان مستقبلا ، ثم صار حالا . . ثم أصبح ماضيا . . ووقع على وصف ما قاله الله ، في أن الله تب يده وان ماله وما كسب لم يغنيا عنه شيئا . بعد ذلك جاء الحق بغيب لا يحدث الا في الدار الآخرة ، وجعل صدق ما نراه في محس دنيانا دليلا على الصدق فيما لم نعلم من غيب الآخرة . الحق حين يعرض قضية من القضايا يستدل عليها بالأمر المحس ، فلما يصدق في الأمر المحس يبقى النتيجة الحتمية ما دام قد صدق فيما نعلم ، اذن فهو صادق أيضا فيما لم نعلم من غيب الآخرة .

الحق حين يعرض قضية من القضايا يستدل عليها بالأمر المحس ، فلما يصدق في الأمر المحس يبقى النتيجة الحتمية ما دام قد صدق فيما نعلم ، اذن فهو صادق أيضا فيما لم نعلمه بعد .

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. ما دام قال يبقى قال .. ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾ ولذلك جاء بها بالسين ونحن نقرأها بالسين، اذن ستظل مستقبلا الى أن تقوم الساعة . اذن تصديق واقعها لن يكون الا في قيام الساعة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى ضرب المثل لنا بما أحسناه على صدق ما يكون بعد قيام الساعة .

﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ﴾ .. طبعا امرأته هذه نحن نعرف أن أبا لهب كان متزوجا أروى وهي أخت أبو سفيان بن حرب ، اذن هي أروى بنت حرب بن أمية . كانت سيدة في قومها ، زوجة أبي لهب ، وأخت أبو سفيان ، سيدة لها مكانة . السيرة قصت علينا أنها كان لها دور في ايذائه ﷺ ، مما يدل على أن المسألة وصلت الى أن تشترك النساء في صغار الايذاء لرسول الله ﷺ ، يعني لم تترك الدعوة لرجال مع رجال ، المسألة دخلت فيها النساء. لماذا ؟ لأن النساء هؤلاء كن يأخذن وضعهن ، بسيادات آبائهن ، أو بسيادات أزواجهن فالانسان الذي جاء لكي يهدم هذه السيادات كلها ، وطبعا هي آخذة وضعها في مجتمع نساء قريش ، لأنها بنت حرب ، وزوجة أبي لهب ، فلما يأتي رسول الله ليبلغ عن الله ويهدم هذه السيادات ، يبقى معناه ان فرصتها في أن تأخذ مكانها في مجتمع مكة قد ضاعت فتنظر هي الى رسول الله ﷺ نظرة الحقد ..

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ﴾ . حمالة الحطب العلماء قالوا : ان الشيء قد يكون له حقيقة ، وصحيح كانت هي تحمل الحطب وترميه ، لأنهم كانوا جيران النبي عليه الصلاة والسلام ، وطبعا مجرد الحطب ليس فيه ايذاء ، لازم يكون حطب من نوع مخصوص ، الشوك وحسك الثعبان وو .. الخ . فكانت تحضره وتؤذي النبي .. هذه هي العملية الحسية ، لكن المفسرين قالوا : انها كانت مشهورة بشيء آخر ، مشهورة بالنميمة بين الناس ، وعادة الحطب يأتي للنار ، اذن الحطب هو أسباب ايقاد العداوة بين الناس ، فيبقى النميمة التي تمشي في الناس كأنها

الحطب . . فقالوا لا مانع أن تكون قد فعلت الحقيقة ، وفعلت أيضا ما يكنى به عن الحقيقة . . يبقى حمالة الحطب لها حقيقة ولها كناية عن كونها نمامة . . فلما يأتي الحق بالشيء يصح أنه يخدم الكنية ويقول ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ . كلمة الجيد هذه اذا ذكرت في اللغة ، يبقى لا بد أن تأتي فيها الأوصاف الحسنة .

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش

إذا هو مضته ولا بمعطل

عندما تأتي كلمة الجيد لا يكون الا للأوصاف الحسنة ، ولكن هنا في هذا الجيد رأي مفروض فيه أن يكون للجمال ومحل الزينة ، سيبقى فيه حبل من مسد ، فتصور جيد واحدة سيدة في قومها ومدللة على عشيرتها . . الخ وبعد ذلك يصورها الله بأن جيدها سيكون فيه حبل من مسد ، والمسد هو الليف الخشن حين يجدل جدلا محكما ، ولما يجدل الليف جدلا محكما فيكون بطبيعته مؤذياً ، فما بالك اذا جدلت جدلا محكما ؟ وبعد ذلك يصير حبلا في العنق . . يبقى هذا تشويها للصور وانزالاً لها من عليا جاهها الى أن الواحد يتصورها في جيدها حبل من مسد ، ليكون الجزاء من جنس العمل . لأنها ما دامت تحمل الحطب ، والتي تحمل الحطب ، تحمله بحبل . . اذن فكل شدة على حطب بحبل ، سيكون جزاؤها عقدة بحبل من مسد في جيدها . اذن هذا تبشيع للصورة .

أيضا لينسجم الإيقاع التصويري في السورة ، الإيقاع جاء من كنية أبي لهب ، هو اسمه عبد العزى ولكنه كان وجهه أحمر مثل لهب النار ، فكنيته عند العرب أبو لهب ، يعني وجهه مثل لهب النار . والكنية تصادف العذاب ، ولذلك تجد ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب﴾ . . فاسمه ملائم للنار فكأنه وقود . . وكلمة تب معناها ماذا ؟ تب التي فيها التشديد ما معناها ؟ القطع بشدة وبإحكام ، والحبل من مسد الذي يشد فيه شدة واحكام أم لا ؟ . . اذن فكل ألفاظ السورة وكل جمل السورة ، جمل منسجمة التوقيع مع أدائها للمعاني ، يعني لم يأت بالتوقيع هو الأصل ، وبعد ذلك فأتى من المعاني ؟ لا . . بعدما أدى أحكام المعاني ،

الحق سبحانه وتعالى يقدر على أن يعطي أحكام المعاني ، ويعطي الأسلوب التصويري لواقع الأمر من واقع الألفاظ فيقول ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد﴾ . فكما صدق الله في الأولى في قوله ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ فيجب أن نؤمن بصدقه في الثانية في قوله ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾ . وتلك هي العلة في أن الله يقدم الشيء ليدرك بالحس ، ليكون دليلاً على تصديقه فيما يجيء من عالم الغيب .

# الماعون . الكوثر . الكافرون .

أحمدك ربي وأستعينك ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم . .

وبعد .

يقول الله تعالى :

« أرأيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ » . . السورة جاءت لتوضح منهج الاسلام ، وأنه ليس عقيدة تعتقد فقط ، ولا كلمة تقال فقط ، وإنما هو منهج لحركة الحياة . . ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى في سورة « أرأيت الذي يكذب بالدين » أعطاءنا صورة من التكذيب فقال : « فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » . فكأن من لم يخرج قواعد الدين الى نطاق عملي منهجي لحركته ، فكأنما كذب بالدين . . اذن فالدين منهج لحركة الحياة . .

واختار الحق سبحانه وتعالى الصورة في قوله : « فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » لأنها الصورة القبيحة في أي مجتمع حتى وان يكن متدينا لأن اليتيم قد فقد عائله ، فحين يدع أو لا يكتفى بمنعه من الخير وانما يدفع دفعا عنيفا هكذا يدع . . تلك صورة وان لم يكن هناك منهج سماوي ، فهي صورة تنافي انسانية الانسان كانسان .

ثم بعد ذلك بين أن الذي لا يحض على طعام المسكين ، أيضا من المكذبين . . لماذا لأنه قد يكون في الانسان أريحية ، الا أنه لا يملك ، فما دامت فيه أريحية وهو لا يملك فلا أقل من أن يستعمل لسانه ودعوة الخير فيه الى أن يحض القادر على أن يفعل . . « فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ » . . والصلاة حضور العبد بين يدي ربه ، فيجب الا يشغل وهو بين يدي الخالق بالخلق . فالذي يفعل ذلك يكون ساهيا عن مقام صلاته ، ساهيا عن حضرة ربه ، « الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ » . . فلا يؤدونها في أوقاتها وتلك أبشع « الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون » . . يراءون الناس . ومعنى المراءاة أن تفعل لترى من الخلق . أما الرؤية المعتبرة في التشريع فهي أن يراك الله حيث أمرك ولا يراك أبدا حيث

نهاك ، فالذي يطلب هذه القضية يكون مرائيا جزاؤه عند من راءاه ولذلك قلنا أن الانسان يفعل الفعل وفي باله البشر ، يمدحونه، ويثنون عليه ،ويعظمونه ويبجلونه ، يكون قد أخذ ثواب عمله . . فحين يقبل على ربه يقول له : قد فعلت ليقال وقد قيل ، انتهت الصفقة .

« الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » تلك خصلة خسيسة أيضا ، لأن الذي لا ينفق من ماله على المحتاج لا يخرج ماله أما الذي يتصدق بالماعون على الناس فيتصدق بأثر النفع والماعون باق في ملكيته ، فاذا وصل الانسان الى مثل هذه المرتبة كان نهاية ما يوصف به من الشح .

وبعد ذلك جاء الحق بسورة تعطي التقابل . . في السورة الأولى شح ، وفي السورة الثانية عطاء . . وأعطاء ممن ؟ من الله . . واعطاء ماذا ؟ . الكوثر وهو الكثير في كل اتجاه من الخير . . « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » . وما دام الحق هو الذي أعطى فيجب أن يكون الانسان موصولا بربه وهو المعطى ، حتى لا يشغل الانسان بالنعمة عن المنعم ،ما مظهر ذلك ؟ أن يصلي لربه . . والمظهر الثاني أن الله كما أحسن عليه ، يحسن على الناس فقال : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ » . . هنا السورة ناسبت السورة الأولى ، ولكنها جاءت في مناسبة ، هذه المناسبة هي أن خصوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعداءه، حينما مات أولاده الذكور ، قالوا : إن محمدا قد صار أبتر . . وكأن هؤلاء يعلمون أن حفظ الذكر ، وحفظ الخير ، وحفظ النسل ، انما يكون بالأبناء وجهلوا أن الأنبياء بنوتهم في أتباعهم فقال : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » . لم يدفع ويقول أعطيناك الكوثر ، وبقي خصمه على ما هو عليه . . قال : لا لعل انسانا يعتقد أن الله قد عوض محمدا فأعطاه الكوثر ليكون مثلهم يعطى شيء ، فقال : لا وقلب القضية . قال : بل ان مبغضك هو الأبتر المنقطع .

وبينا على ذلك بأننا نجد أصنافا من الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء أبناؤهم فأسلموا ، فكانوا لمحمد أذكر من آبائهم . . نسوا آباءهم وصاروا يشهدون لمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، ويصلون ويسلمون عليه في كل صلاة . .

اذن فهؤلاء صاروا بترا ، حتى من العصبة التي كانوا يفهمون أنهم سيحفظون بها

ذكراهم .

وبعد ذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » ما دام هناك منهج يقوم عليه رسول أعطاه الله الكوثر ، الكوثر الموصول دنيا وآخرة ، لا يقتصر الكوثر على النهر الذي أعطي في الجنة ، لأن الكوثر النبوة . . الكوثر الحكمة . . الكوثر القرآن ، لأن الكوثر الايمان . . الكوثر الاسلام . . كل ذلك داخل في الكوثر . فكأن الكوثر الذي قيل عنه : إنه نهر في الجنة هو بعض الكوثر الذي أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك قال : « ان شانئك هو الأبتر » فهنا معسكران : محمد وصحبه، وشانئوه . . قال الحق سبحانه وتعالى ليفصل العلاقة بين المعسكرين وإنه لا تلاقي . . وقلنا أن هذه السورة التي جاءت بعد سورة الكوثر بمثابة قطع العلاقات التي لا أمل يرجى في عودتها : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » . . اذن قطع العلاقات نهائيا . . وتكرر : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » ثم قال : « ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » لتأكيد مضمون الجمل أو لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أنني الآن لا أعبد ما تعبدون ولا أنا في المستقبل لعلهم يعتقدون أن ذلك ظرف يمنع التفاوض ، ومن الجائز أن تهدأ النفوس وتأتي فترة أخرى نتفاوض فيها ، اذن أنا لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد الآن ولا أنا عابد ما عبدتم أي فيما يأتي ، فلن تجدّ أحداث تجعل بيني وبينكم صلة « لكم دينكم ولي دين ».

وبعد ذلك جاء الحق في قوله : « لكم دينكم ولي دين » توحي هذه الكلمة أن هناك معسكرين . المعسكر الأول محمد وصحبه ولهم دينهم . . وشانئوه وأصحابهم ولهم دينهم . . يقول الحق سبحانه وتعالى لا تظنوا أن لكم دينكم ولي دين ، بل إن دين رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب ، وهؤلاء لن يصبح لهم دين له قوام في الجزيرة فقال : « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بسورة « تبت يدا أبي لهب » . . لأن التب هو القطع والهلاك وهذا يفيد « إن شانئك هو الأبتر » فكأن الحق في اعطاء الكوثر جاء بـ « اذا جاء نصر الله والفتح » . . وجاء في الأبتر بصورة قوية وهي صورة القرابة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في عمه أبي لهب . . فكأن « تبت يدا أبي لهب وتب » مقابلة لـ « اذا جاء نصر الله والفتح » . . فـ « اذا جاء نصر الله والفتح » في مقابل« انا أعطيناك الكوثر » . . و « تبت يدا أبي لهب وتب » في مقابل « إن شانئك هو الأبتر » .

يلاحظ هنا أن سورة « الكافرون » التي يقول الحق فيها « لكم دينكم ولي دين » مرتبطة بسورةالإخلاص ،هذا الارتباط في ماذا .. لأن « قل يا أيا الكافرون » سلب و « قل هو الله أحد » ايجاب . . والتوحيد انما هو اجتماع السلب مع الايجاب . . سلب الألوهية عن غير الله وايجاب الألوهية لله . . فكذلك تقول أنت « لا اله » . . وبعد ذلك تقول « الا الله » . . فكأن هنا في كلمة التوحيد الايجاب والسلب ، ولا يأتي الايجاب أبدا الا بعد السلب ، لأن الأصل أن تنفي الضار وبعد ذلك تأتي بالنافع ، لأن درء المفسدة مقدم دائما على جلب المصلحة . واذا نظرنا الى السلب والايجاب وجدناهماقضيةشائعةفي الوجود حتى الوجود المادي . وهناك ألصق شيء بالنار ومناسب للتشريعات هو مثلا ضوء الكهرباء ، سالب وموجب : سالبان لا يعطيان نورا . . موجبان لا يعطيان نورا . . لا بد من السالب والموجب . . فكأن سورة « الكافرون » أعطت عنصر السلب : « لا أعبد ما تعبدون » وسورة «الإخلاص » أعطت عنصر الايجاب : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

هذه الصورة جاءت بعد « تبت يدا أبي لهب » وكان الواضح أن تأتي بعد سورة « الكافرون » ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة « الاخلاص » في الركعة الثانية بعد سورة « الكافرون » في الركعة الأولى . . فمثلا سنة الفجر ، يقرأ « قل يا أيها الكافرون » ويقرأ « قل هو الله أحد » . . وكذلك في سنة الضحى يقرأ« قل يا أيها الكافرون » ويقرأ « قل هو الله أحد » . . وكذلك في سنة المغرب « قل يا أيها الكافرون » و « قل هو الله أحد » وكذلك في مغرب يوم الجمعة وكذلك في صبح يوم المسافر . . كل هذا يدل على أن سورة « الكافرون » وسورة « الاخلاص » يكونان معا حقيقة التوحيد

الخالص ، من نفي الألوهية عن غير الله ، وإثباتها لله سبحانه وتعالى .

وأيضا هناك مناسبة « **قل يا أيها الكافرون** » و « **اذا جاء نصر الله والفتح** » و « **تبت يدا أبي لهب وتب** » انما هي من التفريع الذي اقتضاه « **انا أعطيناك الكوثر** » و « **لكم دينكم ولي دين** » . . الا أن هناك مناسبة أيضا بين مجيء سورة الإخلاص بعد سورة « **تبت يدا أبي لهب** » . . كيف ؟ . الحق سبحانه وتعالى حينما قال : « **تبت يدا أبي لهب** » هذا دعاء . . والدعاء في العادة أن يكون من الداعي ، يتوجه به الى من يقدر على استجابة الدعوى ، فهو دعاء ولكن حين تكون اخبارا من الله ؟ أنا أدعو الله أن يتب أبا لهب ، واذا كان الله هو الذي علمني أن أقول هذا اذن فقد فعل أو لم يفعل ؟ اذن فقد فعل . . ولذلك قال : « **تبت يدا أبي لهب وتب** » يعني هو دعاء وانتهى منه وقد حصل .

حتى يؤكد هذا المعنى ، جاء الحق بسورة : "**التوحيد أو الاخلاص** » بعدها ليفيدنا فائدة ، هذه الفائدة هي أن الله الأحد هو الذي قال ذلك فلا شريك معه يرد ذلك الكلام ويعطي أبا لهب ما لم يعطه الله . . اذن فكأن سورة « **الإخلاص** » جاءت بعد سورة « **تبت يدا أبي لهب وتب** » ليدل على أنه حكم غير منقوض أبدا ، لأنه لا إله مع الله حتى ينقض على الله حكمه الذي قال وتب . . اذن « **قل هو الله أحد الله الصمد** » لها مناسبة مع « **تبت يدا أبي لهب** » . .

هذه السورة تعددت أسماؤها عند العلماء . . فسميت سورة « **الاخلاص** » وسميت سورة « **الأساس** » وسميت سورة « **الايمان** » وسميت سورة « **البراءة** » وسميت سورة « **التجريد** » وسورة « **التفريد** » وسورة « **التوحيد** » وسميت سورة « **المبرئة** » وسميت سورة « **المعرفة** » وسميت بسورة « **المعوذة** » وسميت سورة « **المقشقشة** » وسميت سورة « **الجمال** » وسميت سورة « **نور القرآن** » . . كل اسم من هذه الأسماء يلحظ ملحظا في السورة . . فحينما سميت سورة « **الاخلاص** » . **ما معنى الإخلاص؟** . . الاخلاص يعني أنه كانت هناك أمور مشتبكة وأنت تخلصها من بعضها ، فكأن اشتراكاً في الألوهية مسألة شبكة من الألوهية ، يريد أن تخلص بهذه السورة الاله الحق من الاله الباطل . . اذن سميت سورة « **الاخلاص** » لتخليص تصورك للاله الحق من الاله الباطل ، فقد انعزلت جواهر الفساد من جوهر الخير ، وحين تعزل جواهر الفساد من جوهر الخير ، يتجه الانسان

الى مضمون الفائدة في الاتجاه لأنه اذا خلق آلهة غير حق ، واشنها الهوى في النفس ، واكثفها الأصنام ماذا يجدي الهوى على الانسان ، وماذا تجدي الأصنام ؟ . . اذن فالاخلاص في التوحيد ، أو تخليص جوهر الاله الحق من جوهر الالهة الفاسدة ، معناه أنه أراحك من هذا الاختلاط وهذا الامتزاج الذي لا ينفعك اختلاطه في شيء ، بل يضرك ولا ينفعك أن تشرك مع الاله الحق آلهة باطلة . لماذا ؟ . لأنه بمجرد أن تشرك مع الاله الحق آلهة باطلة ، يقول الحق أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، فمن أشرك بي شيئا فهو لشريكي فكأن الحق تخلى بمجرد الاشتراك ، ولا ينفع الانسان أن يشرك الله مع غيره ، يعني لا يأخذ من خير الله ما دام قد أشرك معه غير الله .

والاخلاص حين يوجد ، يتوجه الانسان في مراداته الى من يفيده قطع الفائدة . . ولذلك يقول الحق « **الاخلاص سر من أسراري أودعه قلب من أحببت من عبادي لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده** » . وما دام الاخلاص موجودا فستتجرد فكرة التوحيد حتى عن شبهة الأسباب المخلوقة لله أيضا . ولذلك جاء الفساد على كثير من العابدين في الديانات التي سبقت الاسلام ، حينما فتنوا بقوة بعض الأسباب ، فظنوا لها قوة وغفلوا عن أن قوتها مخلوقة لله ، وأن المسببات تنشأ معها لا بها ، فغفلوا عن الخالق السببي وذهبوا الى المسبب في مظهر من مظاهر قوته .

فكأن المؤمن حين يلتفت الى الأسباب على أنها فاعلة لا يكون مخلصا الدين لله ، تأتي المسببات معه ولا تأتي به ، بدليل أن الأسباب قد تكدي ، ولا تجدي شيئا ولو كانت الأسباب نافعة بذاتها، أي بمعنى أن الله خلق الأسباب وأطلقها في كونه وهذا هو آفة البحث الفلسفي من قديم الفلاسفة حينما قالوا نؤمن بالله ولكنا نؤمن بأنه خلق القوانين والأسباب ، ثم ترك للقوانين والأسباب أن تفعل . . فكأنهم بذلك يعنون أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه في ملكه مرة واحدة ، فخلق الأسباب ثم ترك الأسباب تفعل ، فصارت آلية . . نقول لهم : لو كان الأمر كذلك لما أخطأت الآلية ، ونحن نرى الأسباب توجد ولا توجد المسببات ، ونرى مسببات توجد بدون أسباب ، كالمعجزات التي أجراها الله على أيدي رسله .

اذن فمن قمة الاخلاص أيضا ، ألا يلتفت الانسان للأسباب ولو كانت مخلوقة لله

وينشغل بها عن السبب وهو الحق سبحانه وتعالى . . اذن فسورة « **الاخلاص** » توضح العقيدة صافية ، العقيدة التي تغمر القلب ، وهو انه اله واحد . . العقيدة التي تفسر معنى الوجود .

وبعد ذلك جاء اسم آخر وهو سورة « **الأساس** » ومعنى الأساس فيما زوي من أحاديث رسول الله ، أن السماوات السبع ، والأراضين السبع ، قد أسست على « **قل هو الله أحد** » . ومعنى أسست على « **قل هو الله أحد** » أن « **قل هو الله أحد** » هي الأساس الذي بنيت عليه هذه . . كيف هذا ؟ قالوا : يشير الى ذلك قول الحق سبحانه وتعالى « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** »[1] . . اذن كون السماء والأرض لم تفسدا ، دليل على أنه لا اله مع الله . . اذن « **قل هو الله أحد** » هي الأساس التي عليه أسست السماوات والأرض ولو لم توجد هذه العقيدة في ذاتها ، لما أمكن للسماوات والأرض أن تقوما . « **ان الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** »[2] فقول الحق « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » يسمونه دليل التمانع ومعنى دليل التمانع أن يطرح الحق سبحانه وتعالى قضية ، لا على قياس المناطقة حين يصنعون قياسا يأتون بقضيتين ، القضية الأولى يسمونها الصغرى، والقضية الثانية يسمونها الكبرى وان كانت في الشرط يسمونها مقدما ويسمونها تعالى . . مثلا يقول : الانسان حيوان . . هذه قضية ! وكل حيوان متحرك . . ينتج من هذا أن نحذف المكرر فينشأ : الأنسان متحرك . . حيوان ، وكل متحرك ، الوسط ، يعني نهاية القضية الأولى وبداية القضية الثانية مكررين حذف المكررين يبقى معنى ذلك ينشأ : الانسان متحرك .

هذا قياس منطقي من الشكل الأول . . لكن الحق حين يأتي بالقياس ، لا يجيء به على منطق أرسطو ، انما يجيء به على منطق أقوى من ذلك ، لماذا ؟ لأن منطق أرسطو يأتي بقضيتين : صغرى وكبرى ، ويحذف المكرر ، وبعد ذلك يأتي بالنتيجة من الباقي من المقدمتين . . لكن الحق لم يفعل ذلك في كل براهينه . . ماذا قال الحق ؟« **لـــوكان فيهما**

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٢) سورة فاطر آية ٤١ .

الله لفسدتا » . . كان يجب لاستكمال القياس أن يقول : ولكن الفساد ممتنع فامتنع تعدد الآلهة . . « لو كان فيهما آلهة الا الله» . ما هي النتيجة ؟ « لفسدتا » كان لا بد أن يأتي بقضية ثانية يقول : ولكن الفساد ممتنع . . اذن تعدد الآلهة ممتنع . . وهذا يسمونه دليل التمانع .

الحق سبحانه وتعالى لم يطرح القياس بهذا الشكل ، وانما طرح قضية واحدة ، وترك للسامع أن يجيء بالقضية الثانية على وفق ما يرى ، لا تلقينا ولا اخبارا منه ، فقال : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » . . انظر أيها السامع أتجد فسادا في السماوات الأرض ؟ ان وجدت فسادا فقل . . كأنه موقن أن الجواب لا يكون الا الفساد ممتنع . . وحينئذ تجيء أنت بالتالي . . جاء الله بالمقدم في القضية الأولى ، وتجيء أنت يا مخاطب ويا سامع بالتالي فكأنه لم يترك القضية الثانية ، الا ليقينه أن العقل اذا خلا ليجاوب على هذا أهو فساد أو لا؟ يقول : الفساد ممتنع . . لأنه يرى نظاما محكما دقيقا سائرا بتقنين دقيق وبحساب دقيق . . فسيقول قطعا : ولكن الفساد ممتنع . .

ما دام « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » وأنت ستقول بحكم شهادة الواقع ولكن الفساد ممتنع . . اذن فالنتيجة : تعدد الآلهة ممتنع . . النتيجة التي وصلنا اليها لم تكن من قول الحق كلها ، ولكن المخاطب شارك في بناء القياس ، وما دام المخاطب قد شارك في بناء القياس ، فايمانه بالنتيجة أقوى من أن يكون هو الذي أتى بقضيتي القياس من عنده .

اذن فقول الحق « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ الَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » معناه أن الفساد محكوم عليه بالامتناع ، وما دام الفساد محكوماً عليه بالامتناع ، فاذن تعدد الآلهة ممتنع .

بقي أن نقول أن القضية الأولى تحتاج الى تدليل . . « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » . . كيف ؟ هناك عند الفلاسفة وأهل الكلام شيء اسمه الضدين وشيء اسمه النقيضين . ما هو الضدين ، وما هو النقيضين ؟ .

قد يبدو لأول وهلة أن المعنى متفق ، الضد هو النقيض ؟ . . الضدان أمران لا يجتمعان أبدا ولا يرتفعان معا ، يعني لا بد أن يوجد واحد منهما . . فمثلا ساكن ومتحرك كل شيء لا يخلو عن هذا ، إما ساكن أو متحرك . . ولا يمكن أن يجتمعا فيكون ساكناً

ومتحركاً في آن واحد . ولا يرتفعان معا فيكون لا ساكنا ولا متحركا فلا بد أن واحدا منهما موجود . . اذن الضدان لا يجتمعان معا ، ان ثبت السكون انتفت الحركة . . وان ثبتت الحركة انتفى السكون اذن لا يجتمعان أبدا ، ولا يرتفعان ، فلا يخلو جسم عن واحد منهما : اما ساكن ، واما متحرك .

ولكن النقيضين صحيح لا يجتمعان ، ولكنهما قد يرتفعان ، يعني يجيء واحد ثالث مثلا : أبيض وأسود . . الأبيض والأسود لا يجتمعان . فشاركا الضدين في أنهما لا يجتمعان لكن الخلاف أن الضدين لا يرتفعان معا أيضا ، انما النقيضان قد يرتفعان معا ويجيء لون أحمر . . اذن هما لا يجتمعان معا ولكن قد يرتفعان ، بمعنى أن يجيء شيء آخر يحل محلهما . . اذن فالضدان ذوا قسمين . . شيء ليس له الا وجهين اثنين ، هذا أم هذا . . لكن النقيضين يأتي في الشيء ذي الأقسام الكثيرة . . الألوان عندنا كم ؟ . . كثيرة . . لما يكون لونان متناقضين يبقى ليس هناك مانع من حذفهما ويجيء لون ثالث يجيء لون رابع . . يجيء لون خامس . . اذن فالضدان لا يجتمعان معا ، لا بد من وجود واحد . . ولكن النقيضين لا يجتمعان صح ، وانما قد يرتفعان.

في تعدد الآلهة . . اما أن يتفقا ، وإما أن يختلفا . . نريد أن نشرح دليل التمانع الذي يخدم قضية سورة الأساس . . إما أن يتفقا واما أن يختلفا . . نمسك سورة الخلاف . ان اختلفا . . أراد الله أن يخلق هذا ساكنا ، والاله الآخر أراد أن يخلقه متحركا . . والشيء كما قلنا لا يكون ساكنا ومتحركا في آن واحد ، بل لا بد أن يبقى على حالة واحدة اما متحرك واما ساكن . . اذن فلا بد أن يوجد واحد منهما ، فثبت مراد اله ، ولم يثبت مراد اله آخر ، لأن الضدين لا يجتمعان معا ، فاذا كان الاثنان سينفذ مرادهما يبقى هذا محال . . هذا يخلقه متحركا وهذا يخلقه ساكنا . . اذن فمرادهما معا لا ينفذ أبدا . اذن فلا بد من مراد واحد ، إما أن يوجد على هيئة الحركة واما أن يوجد على هيئة السكون فان وجد على هيئة الحركة كان الاله صاحب خلق السكون عاجزا أمام الاله خالق الحركة . . واله متصف بالعجز في مظهر من مظاهر الإيجاد لا يصلح أن يكون الها .

يبقى اذن القضية عندنا . . الضدان . والنقيضان . . الضدان لا يرتفعان ولا يجتمعان . . النقيضان لا يجتمعان وقد يرتفعان . . فهنا نأتي ونرى شركاء مع الله سيتفقوا

أم يختلفوا ؟ . . هذا يريد ساكنا وهذا يريد متحركا ، فان نفذ مرادهما معا كان ذلك عين المحال لاجتماع الضدين ، والقضية الأساسية أن الضدين لا يجتمعان . فانِ نفذ مراد واحد منهما ثبت عجز الآخر ، وما دام الآخر قد عجز فلا يمكن أن يكون الها . . وان اتفقا ؟ . . ان اتفقا على أن يكون كل واحد بمنطقة نفوذ أو أن يكون العمل لواحد والثاني يوافق ، أو على أنهما يباشرا العمل هما الاثنان . مباشرة العمل هما الاثنان يبقى تحصيل حاصل ، أو أن هذا أخذ جانبا وهذا أخذ جانبا ، يبقى الذي أخذ جانبا قادراً فيه ، والذي لم يأخذه عاجزاً فيه . يبقى ثبت العجز في الآلهة ، يبقى أيضا لا ينفع .

اذن المسألة سواء كان بالاتفاق ، او بالاختلاف لا تنفع أن يكون فيه له شريك قضية اثبات الاله الواحد ، هي القضية التي شغلت الأديان كلها ، ليست قضية اثبات الوجود . اثبات الوجود أمر فطري ولذلك لم يشغل القرآن حيزا لاثبات وجود الله ، انما كل الكلام فيه أإله مع الله. أإله مع الله . أإله مع الله . . لماذا ؟ . . «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله»[1] خلقهم وخلق السماء والأرض . .

اذن المسألة الفطرة والبديهة مجتمعة بأنه لا يمكن أن يوجد ذلك الوجود بدون موجد . . قضية بديهية فطرية ، ولذلك عرضها القرآن عرضا في قضية واحدة قال : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون »[2] أخلقوا من غير شيء ؟ هذا لا يقوله العقل . . أم هم الخالقون ذلك لم يدعوه . . اذن لم يخلقوا من غير شيء ، فقد خلقوا من شيء . . وهم لم يدعوا انهم خلقوا . . اذن فالدعوى تظل لصاحبها الى أن يوجد واحد ويقول : لا أنا الذي خلقت ، والله هذا أخذ مني الخلق . . الى أن يوجد الإله الذي يقول أنا الخالق والله أخذ مني الخلق وادعاه لنفسه يظل الأمر لله . . « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » يعني ان كانت هناك شبهة لعقل في مظاهر القوى في الوجود ، فلعل انسان مثلا يظن أن الشمس أو النجوم أو الكواكب أو الصخر أو أي مظهر من مظاهر القوى يظن أن له فاعلية . . قد تكون فاعلية السببية ؟ ولكنه ينفي السبب وينزل الى المسببية فاذن قضية

---

(١) سورة لقمان آية ٢٥ .

(٢) سورة الطور آية ٣٥ .

التوحيد هي الأساس الأصيل في مناقشة الدين .. ولذلك كلها أإله مع الله .. أإله مع الله .. أإله مع الله .

أما قولهم سورة « الايمان » .. فما معنى الايمان ؟ .. الايمان كل مادته الاطمئنان من : الأمن ، الأمانة ، الأمين ، الأمن المأمون .. كل المادة توحي الى الاطمئنان الايمان : اطمئنان القلب الى قضية ما .. ومعنى اطمئنان القلب الى قضية ما ، أن هذه القضية تجاوزت منطقة العقل الذي يبحث في صدقها ، يعني لم تعد محل بحث ولا تطفو مرة أخرى للذهن ليناقشها من جديد .. هذا معنى ايمان .. ايما ن يعني قضية تحمل مبدأ من المبادىء ، هذه القضية آمن بها العقل أولا ، واستقرت في القلب ، ومعنى استقرارها في القلب : انها لم تعد محل بحث وما دامت لم تعد محل بحث نبقى في منتهى التسليم والاطمئنان اليها . هذا هو الايمان .

فسورة الايمان ما هي ؟ .. سورة الاطمئنان الى أنك توجه بعبادتك الى الاله الذي يملك الحول والطول ، والضر والنفع ، لم تظل فكرتك في أنك تعبد ما لا ينفع ولا يضر ، لم تظل فكرتك في أنك تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، وما دام آمنت بالاله الواحد الذي ليس له شريك يعارضه وسند مقصود قصد اضطرار أو قصد اختيار قصد اضطراري زي كونه مسخر ، وقصد اختيار زي احنا .. اذن فما دام هذا ، فأنت مطمئن تمام الاطمئنان الى أن هذه العقيدة قد جعلتك تؤمن بإله يمنح لك كل الخير .

هذا هو الاطمئنان .. وقد سبق أن عرضنا الى قضية الايمان والاطمئنان وقلنا إن المفسرين حينما تعرضوا لقول الله حكاية عن ابراهيم « أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن قال بلى »[1] .. قلنا إن كلمة « بلى » بعد الاستفهام بالنفي « أو لم تؤمن » قال ابراهيم : بلى .. ما معنى بلى ؟ يعني آمنت بعد ذلك ولكن ليطمئن قلبي .. اذن فمطلوبه القلب مطمئن .. فكيف جاز له أن يحكم بأنه آمن من السؤال اطمئنان القلب ، وقال : انني آمنت بقوله « بلى » وبعد ذلك يقول : « ليطمئن قلبي » ما دام سؤاله يقصد به أن يطمئن قلبه ، يبقى الاطمئنان غير موجود .. قلنا إنه فات المفسرين أن الجملة جاءت على صيغة السؤال .. صيغة السؤال لم تكن : أتحيي الموتى ؟ ولكن قال : كيف تحيي الموتى ..

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

وحين نسأل عن الكيفية ، الحدث في ذاته متيقنا ، فقول ابراهيم « بلى » يعني أنا اؤ من بأنك تحيي الموتى ، وذلك هو القدر المطلوب من المؤمن . . ما هي كيفيتها ؟ ليس هو القدر المطلوب منك . . فكأن الحق في قوله : « أو لم تؤمن » يلفته الى لفتة أن كيفية حدوث الأشياء من الله ليست عنصرا من عناصر الايمان ، وانما عنصر الايمان أن نعرف أن الله يحيي الموتى ، أما كيف يحييها هذا علمه عند الله . . ليس مهما أن نعرفه . . فكأن قول ابراهيم « بلى » أي أعتقد أنك تحيي الموتى ، ولكن أنا أريد الكيفية . . اذن الاطمئنان لم يأت للقضية ، وانما للكيفية التي جاءت عليها القضية . . ولذلك تقول كيف بنيت هذه الكلية . . أنا لم اقل الكلية بنيت أم لم تبن ؟ . الكلية مبنية وأنا أشير اليها . . كيف اشتريت هذه الغطرة ؟ أنا لم أسأل أنت اشتريتها أم لا . لأنها قائمة ؟ . . اذن فالسؤ ال في قوله أرني قال كيف ؟ ولم يقل أتحيي أو تحيي .

اذن فالاطمئنان لا يعني معرفة الكيفية التي تحدث عليها الأشياء ، لأن الكيفية التي عليها الأشياء من اختصاص الرب سبحانه ، ولذلك أجاب الحق على سيدنا ابراهيم اجابة ليست جبرية . . ليست اجابة لسانية . . بل اجابة فعلية وجملة مشاركا هو فيها ، بل الفاعل الأساسي فيها . . قال له « خذ أربعة من الطير » أنت الذي تأخذها . . وبعد ذلك « فصرهن اليك » ضمهن اليك وتأكد منها ، وبعد ذلك اذبحها وقطعها واجعل على كل جبل منهن جزءا ، وبعد ذلك ادعهن لا تدع الدعوة لي ، لأن كوني أدعوها فتحيا هذه سهلة ، انما العظمة في أن أنقل لك من قوتي لتفعل أنت . . وقلنا ان الفرق بين قوة الحق وقوة الخلق أن قوة الخلق لا تتعدى الى الضعيف ، وانما تعدى أثرها الى الضعيف . . أنا لا أستطيع أن أحمل هذه الماصة قوتي عاجزة فيأتي واحد لا ليعطيني قوته فاحمل أنا ، ولكن ليحملها هو وقوته معه اذن فهو يعدي لي أثر قوته وقوته باقية ، لا يقوى على أن يعطيني قوة . . ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يعدي أثر قوته فحسب ، وانما يجعل الذي لا يقوى يقوى بمجرد أن يفعل . . قال ادعهن أنت والا فاذا دعيت أنا المسألة تبقى بسيطة ، العظمة في أن أجعلك بدعوتك يستجاب لك فتأتي الطير حية .

اذن ذلك هو الايمان . . فالايمان المطلوب انما هو ايمان مارس الاطمئنان بالقضية ولا أن يكون الايمان مارس الاطمئنان الى الكيفية ،فحسب كل كيفية أن تنسب الى ربها ما دامت

كل كيفية تنسب الى الله ، الكيفيات محصورة في قانون الأحداث ، في قانون الحوادث في قانون المخلوقين . انما الكيفيات عند الحق سبحانه وتعالى . . كل ما تصور الكيفيات ، التي تأتي عليه . الساحر الذي يقف يخيل للناس ، عندما تقول له اشرح لي ما تعمل لا يستطيع أن يشرح لك حتى يعطي لك الكيفية التي يخيل بها للناس أن هذه حقائق أمامهم . . اذن فاذا كانت كيفيات البشر مما يتعذر أن تنقل الى البشر مثله . فالكيفيات التي يزاول بها الله سلطانه في ملكه ، العقل البشري عاجز ، ولذلك كان الجواب تطبيقا عليها .

الايمان حين يوجد ، يورث الاطمئنان ، ويبقى الانسان في حياته بكل الطاقات الممنوحة له من الله . . الحياة فيها أنواع . . والحياة فيها متقابلات . . فيه قوي وفيه ضعيف ، وفيه قادر وفيه عاجز ، وفيه عالم وفيه جاهل . . وفيه خير وفيه شر . . وفيه أحداث سواء . . فلو لم يكن الانسان في هذه الدنيا مستندا الى رصيد قوي من ايمانه بالله ، وأن الله هو الوجود الحق ، وما عداه وجود مقيد الوجود الحق هو الموجود لذاته ، أما وجود كل العالم أي ما سوى الله فوجود لغير ذاته وعلى التحقيق لا وجود له ، وما دام على التحقيق لا وجود له لأنه أثر من آثار الفاعل الحق اذن فالفاعل الحق الذي يدير أحداث الكون هو الذي يجب أن تعتقد أنه الفاعل لكل شيء . فان كنت ضعيفا فلن يستعبدك قوي ، ولن ترهب قريبا . . ان كنت فقيرا كذلك ، ان كنت في أي مظهر من مظاهر الضعف ، في أي صورة من صور الحياة ، لا تفتن في ماله بالقوي فيها ، ولا تعتقد أن ذلك القوي يستطيع أن يعطيك منها شيئا . . حين تعلم أن الفاعل الحق الخالق الحق ، اذن الناس كلهم في نظر الله سواء ، لا فضل لقوي على ضعيف ، ولا لغني على فقير . . واذا عرفت الفاعل الحق هو الحق سبحانه وتعالى اذن فأحداث الحياة لا تهزك أبدا . . حين يجري عليك شر مما تعرف أنه شر في قانونك ، تعلم أن مجريه عليك هو الله ، وأنت صنعته ، وما دمت أنت صنعة الله ، فلا يوجد آخر من صانع البشر يحطم صنعته ، وانما يعمل فيها يده لاصلاحها ، فلا بد أن تعلم أن ذلك الشر انما جاء لخير . . . أنا بقانوني شر وانما مراد الله فيه خير . . ما دام الانسان يعتقد هذا اذن سيعيش بكل رجولته وكامل طاقات انسانيته لا يتزعزع أمام حدث ، ولا يرهب شيئا ، ولا يخاف لأنه يعلم أن الواجب الحق هو الله سبحانه وتعالى . .

هات مجتمعا من المجتمعات وطبق فيه هذه .. حين تجد المجتمع مطبق فيه هذه ، تجده مجتمعا متكافىء النفسيات ، وان لم يكن متكافئا في مظاهر القوى والمطلوب أن تتكافأ النفسيات ، لا تتكافأ مظاهر القوى لأن مظاهر القوى انما وجدت وسائل ايضاح في البشر ، قوة تتعدى تنتقل من هذا فيصير القوي ضعيفا ، ويصير الضعيف قويا ، حتى أعلم أنه لا قوة تعزني ، ولا ضعف يهزني . كذلك الغنى ، والفقر ، كل صور الحياة ..

اذن فما دام الانسان لا يرغب الا من الله ، ولا يرهب ظاهرة من ظواهر الكون أبدا ، سيظل بكامل انسانيته « لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلَا تفرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ »(١) .

هنا الايمان لا يوجد الا بعد أن يوجد العلم بالمؤمن به ، يعني لا يوجد الايمان أولا وبعد ذلك يأتي العلم . هنا قضية الايمان يوجد أولا وبعدين العلم أم العلم أولا والايمان بعدين ؟ .

في الواقع ان هذا سؤال مغالطة ، فيه فرق بين ايمان القمة ، الايمان القمة يعني ايمانك بأن هذا الكون له اله واحد، له كل صفات الكمال المطلق ، وأنه هو الموجود الحق ، وأنه هو الفاعل الحق . بعد ذلك اذا آمنت به أعلم عنه ، يعلمك منهج حياتك ، نظام حركة دنياك ماذا ؟ . اذن فالعلم المتأخر عن الايمان انما هو علم المنهج ، أما العلم المتقدم على الايمان ، فالعلم بقمة الايمان .. ما هي قمة الايمان ؟ هو وجود اله . لا يمكن أن تدخل على الايمان بدون علم . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : « شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ »(٢) لم يقل وأولو الايمان . لماذا ؟ لأن الايمان لا يحصل الا بعد علم ان الله واحد ويعرض قضايا مثلما قدمناها ، فيثبت العلم ان الاله واحد . اذن فالذي يقول الايمان قبل العلم . مثلا الرجل الالماني قال : أنا لست في حاجة الى المعرفة لأومن ، ولكني في حاجة الى الايمان لأعرف . نقول له : أنت صح في جزئية ، وخرمت في جزئية ثانية ، لأنه لا بد من المعرفة الأولى بقضية الاستدلال على وجود الواحد وبعد ذلك اذا آمنت به فقد أراحك وعرفك هو . لأن قصارى ما تعلمه ، مستعلم ظاهرا من الحياة

---

(١) سورة الحديد آية ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٨ .

وأما ما غاب عنك من أسرار الكون فلن تعلم عنه شيئا ، وسيظل علمك قاصرا على نشاطك الذهني في تجاربك . كلما تعمل تجربه بعد مدة تعرفها ،ولكن الحق يخبرك عن أشياء لا تحسها ، وأشياء لا تدخل تجربتك ، ولا تدخل في معملك كل الغيبيات التي أخبرنا الحق بها أكان من الممكن أن نصل اليها بنشاطنا الذهني لا يمكن . اذن هو في حاجة الى الايمان بالله ليعرف عنه ما غاب عن حسه ، ليعرف عنه ما ادخر له بعد هذه الحياة . والا فأي عاقل يصدق أن الكون كله بواقعه المسخر لذلك الانسان الذي قد لا يعيش من عمره الا عاما ، أو لا يعيش الا يوما أو قد يولد ويموت في ساعتها . هذا الكون الواسع العريض العميق مخلوق لذلك الانسان الذي قد يمر بالكون لحظة عابرة . هل ما هو مخلوق لي يكون أثبت مما خلق ؟ السماوات والأرض والجبال تكون أثبت مما خلقت له السماوات والأرض والجبال ؟ لو أن الانسان كانت مدته طويلة قليلا كان من المعقول ، لكن ليس من المعقول أن الشيء المسخر لك يكون أطول من عمرك ، لأنه هو مسخر لخدمتك فلا تتركه أنت ، اذن فلا بد أن يعتقد الانسان أن فيه حياة ثانية ، وأن هذه معبر الحياة ، وان قيمة الانسان في أنه يؤسس حياته المقبلة ، ليس حياته الفانية ، لأنها مثلما قلنا مظنونة غير متيقنة ، والأخرى متيقنة غير مظنونة ، اذن فهذه سورة الايمان .

أما حين تسمى سورة « البراءة » فالرسول صلى الله عليه وسلم قال ( براءة من النار أو براءة من الشرك ) واذن براءة من النار لأنها براءة من الشرك ، يعني اذن المعنيان يلتقيان . الرسول صلى الله عليه وسلم كما روى سيدنا أبو هريرة قال : ( سرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال : وجبت . قلت : وما وجبت يا رسول الله . . ؟ . . قال الجنة ) .

اذن وجبت الجنة يكون بارئا من النار ، وما بريء من النار الا لأنه بريء من الشرك . ولذلك يقص علينا الرواة أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما بعث سرية ، معنى سرية يعني فصيلة من الجيش ، يقوم بقصد الاستطلاع أو بقصد المناوشة ولا يكون فيها رسول الله ، فلما كان الرجل يصلي بأصحابه وفي الصلاة يقرأ سورة من القرآن ثم يختم بعدها بـ « قل هو الله أحد » فلما ذهبوا الى رسول الله قالوا فلان كان لا يكتفي بالسورة يقرأها بل عقب كل سورة « **قل هو الله أحد** » . فقال سلوه لم صنع ذلك ؟ فسألوه فقال :

لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . حين ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بشروه أن الله يحبه . . والقصة قصة الانصاري الورع الذي كان يصلي بالناس ويفعل ذلك أيضا ، يقرأ سورة وبعد ذلك يقرأ « قل هو الله أحد » في كل ركعة . فقال له المؤتمون به : إما أن تقرأ : « قل هو الله أحد » وحدها ، أو تقرأ سورة وحدها . فقال : هكذا أصلي ان أعجبتكم أهلا وسهلا ، وان لم أعجبكم فأتموا بغيري . وكان رجلا ورعا فأصروا عليه . فذهبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ا منعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ ولماذا الاصرار على هذه السورة ؟ فقال : اني أحبها . فقال : حبك إياها أدخلك الجنة . . تبقى براءة أم لا ؟ براءة من الشرك ، وبراءة من النار . .

حديث جابر رضي الله عنه مثلا . . يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« ثلاث من أداهن دخل الجنة من أي باب شاء ، وزوج من الحور العين حيث شاء : من عفا عن قاتله ، ومن قضى دينا خفيا »** ( يعني لا حجة لصاحبه عليك الا دينك ، لا يقدر يرفع عليك قضية ، لا يقدر أن يقدم عليك صكا . يبقى هذا دليل صحيح أنك حاولت أن تستبرىء شيئا بينك وبين الله ، لأنه يمكن الذي يقضي لدين خائف أن يناهضوه أو يحبسوه أو يفضحوه لأنه مماطل . انما الذي لا يعرف شيئا أبدا وبالدين خفي ، يكون يؤديه اخلاصا ) . . **ومن قرأ دبر كل صلاة عشر مرات « قل هو الله أحد »** . قال أبو بكر رضي الله عنه : أو احداهن يا رسول الله ؟ يعني غير ضروري الثلاثة لأن الرسول يقول : **« ثلاث من أداهن يفعل كذا وكذا »** فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« أو احداهن »** . .

هذه تعطينا منزلة هذه السورة . . الرسول صلى الله عليه وسلم حينما جاء له رجل قال يا رسول الله ان فلانا يصلي فقط بـ« قل هو الله أحد » قال رسول الله والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن . . والحديث الذي رواه سيدنا عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأته فأخذت بيده وقلت بما نجاة المؤمن يا رسول الله ؟ قال : يا عقبة اخرس لسانك وليسعك بيتك وابكِ على خطيئتك . . قال عقبة : ثم لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فابتدأني هو فأخذ بيدي وقال يا عقبة : الا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والانجيل والزبور والقرآن العظيم . فقلت : بلى جعلني الله

فداك . قال : « قل هو الله احد » حتى انتهى منها ثم قال : « قل أعوذ برب الفلق » حتى انتهى منها ثم قال : « قل أعوذ برب الناس » حتى انتهى منها ثم قال : يا عقبة : لا تنسهن ولا تنم ليلة دون أن تقرأهن . قال عقبة : والله ما نسيتهن منذ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تنسهن وما بت ليلة قط حتى أقرأهن . قال عقبة : ثم لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسول الله : ما فواضل الأعمال ( يعني الأعمال الفاضلة ) فقال : « صل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعرض عمن ظلمك » . .

تلك هي نصائح رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها ما فيها حول سورة الإخلاص « قل هو الله أحد » .

نعود بعد ذلك لقوله تعالى : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » ان ما بعد الفاء مترتب على ما قبلها ، فما بعد الفاء طلب صلاة ، وطلبَ نحر ، وما قبل الفاء اعطاء الله لنبيه الكوثر ، والكوثر قلنا إنه الخير العظيم في كل ناحية من النواحي : الدنيوية والأخروية . . والعطاء دائما انما يوجد من معطي انما هو الحق سبحانه وتعالى : « انا أعطيناك » والمعطى هو « الكوثر » والذي أعـطي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اذن فهناك منعم ، وهناك نعمة . . المنعم هو الله ، فما دام المنعم هو الله ، فيجب أن يترتب على أن المنعم الله أن يصل رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته بربه دائما والصلاة هي حضور الانسان في حضرة ربه . . اذن « فصل » انما ذلك اداء الحق المعطي ، والمعطى خير كثير ، فكيف يؤدى حق الخير الكثير ؟ حق الخير الكثير ان الله كما أنعم عليه بالخير ، فلينعم أيضا على خلق الله بالخير . . اذن « فصل لربك وانحر » ترتب على المعطي وهو الله ، وترتب على المعطى وهو « الكوثر » .

بعد ذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ » . . الشانىء هو المبغض ، والأبتر هو المنقطع ، وقلنا ان السورة انما جاءت لتعدل معايير البشر في تقييم الأشياء ، وفي تقديرها . . فتقدير البشر في الأشياء أن الولد هو صاحب حقيقة ذكر الانسان بعد موته ، فما دام الانسان له ولد فسيحمل الولد اذا كان ذكرا اسم أبيه ، ويظل

اسم أبيه بعد أن يموت الأب مذكورا على ألسنة الناس .

هذه هي مقاييس البشر في الذكر . أما مقاييس الحق في الذكر فمقاييس أخرى ، يريد الحق أن يلفتنا اليها ما هي هذه المقاييس ؟ . . هو أن يكون الانسان لا مذكور الذات والدم والنسب واللحم ، وانما يكون مذكور الأثر ، ومن حيث هذه ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون أبتر . لماذا ؟ لأنه موصول بعد أن يموت بما يوجد على ألسنة تابعيه ، وفي قلوب تابعيه ، وفي الأذان للصلاة ، فانه يذكر مع الحق سبحانه وتعالى ، ويصلى عليه في كل صلاة وحيثما ذكر اسمه صلي عليه ؛ وحيثما جاء حكم من الأحكام قلنا قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فانسان هذا أثره بعد موته ، لا يمكن أن يكون أبتر . . والأبتر هنا أنتم في دنياكم تعتبرون الموصول من له ذكرى في الدنيا ، ولكن هب أن أنسانا له ذكرى في الدنيا ، ثم انتهت ذكراه في الدنيا ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكره تعدى قوانين الناس في أن ذكره ليس في الدنيا ، وانما ذكره في الآخرة أيضاً .

كذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بأبتر ، لماذا ؟لأنكم أنتم تريدون أولادكم لترفعوا ذكركم وتحيوه والأولاد يأتون بعدكم . . محمد صلى الله عليه وسلم سيكون له ذكر في الآخرة وأنتم لا ذكر لكم ، ذكر سيء . . ومحمد ذكره لا يكون في الأعقاب ممن يأتي بعده ، ولكن ذكره سيرتفع يوم القيامة ارتفاعا يشمل البشرية كلها من آدم الى أن تقوم الساعة . . فكل واحد عند الشفاعة يتخلى ، الا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . اذن فذكره في الآخرة سيتعدى لا بمن جاء بعده ، ولكن أيضا بمن جاء قبله .

خلاصة الآية أنهم قالوا إن رسول الله حين مات ولده الذكر صار أبتر . .

فماذا قال الله ؟ قال : « إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » أي أنت لست بأبتر . فهل اكتفى الحق سبحانه وتعالى بأن يرفع عن محمد صلى الله عليه وسلم الوصف الذي أراد خصومه أن يلحقوه به ، وهو أنه أبتر ، فنفى أنه أبتر ، وأثبت أنه أعطي الكوثر ، ومن أعطي الكوثر ، فلا يقال له أنه أبتر . . يكفي في هذا أنه أعطاه ضد الوصف الذي وصفه به الكافرون .

ولكن الحق تسامى حتى شمل شيئا آخر . . هذا الشيء الآخر هو أن الخصم حين

يقذف الانسان بوصف يحمله عليه ضغنه وبغضه ، ثم تأتي أنت فترفع عن المقذوف هذا الوصف ، يكفي أن يقال : إنك رفعت عنه أنه أبتر لأنك أعطيته الكوثر . . ولكن الحق تسامى تعبيره في الآية فقال : بل العكس الشانىء هو الأبتر . . يبقى اذن أعطينا أمرين اثنين : فنفينا عن رسول الله انه أبتر ، لأنه أعطي الكوثر ، ثم نقلنا الدعوى الكاذبة اليهم هم أنفسهم . . اذن فهنا مكسبان الأول أنه نفيت الدعوى عن رسول الله بأنه أبتر ، ولم يكتف بهذا ، بل رد البتر اليهم هم . . اذن ما قالوه في رسول الله حوله الله سبحانه وتعالى اليهم « **ان شانئك** » أي مبغضك هو الأبتر « **ان شانئك** » هنا نلتفت الى الأسلوب لفتة وهو أنه جعل الشنأ والبغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي لا للمنهج الذي جاء به . . صحيح . . البغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لماذا ؟ لأنهم حينما غلبهم المنطق والبرهان ، وغلبتهم الحجة في أن القرآن شعر ، في أن القرآن سحر ، في أن القرآن كهانة ، البراهين دمغتهم ، فما كان منهم الا أن قالوا : ان القرآن صحيح قرآن ، ولكن من زعلنا أن القرآن نزل على محمد ، ولو أن القرآن نزل على غير محمد لكان من الممكن أن نتقبل ذلك القرآن : « **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** »[1] .

اذن فالوقفة ليست في القرآن ، ولا في منهج القرآن ، وانما الوقفة لأن القرآن جاء على يد محمد . اذن فالبغض لذات محمد . . وأيضا قالوا « **إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا** »[2] . . اذن فأقروا ان ما جاء به صلى الله عليه وسلم هو الهدى ، وما دام اقروا بأنه هو الهدى فلماذا لم يقبلوا عليه؟ . . نجد فيه تناقضاً . قالوا على القرآن إنه لا بأس به، ولكن من زعلنا أنه جاء على محمد ، اذن البغض لذات محمد . . وقالوا : « **إن نتبع الهدى معك** » اذن فالذي جاء به محمد هو الهدى . . لكنهم عارضوا أنفسهم . لماذا ؟ أذات محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت مبغضة قبل أن يأتي بمنهج الله ؟ . . لا . . تاريخه معكم ينقض ذلك . . لماذا ؟ لأنكم كنتم تسمونه الأمين ، تسمونه الصادق ، تتعاملون معه رغم أنكم كافرون بالمبدأ وبالدين الذي جاء به ، لا تأمنون أحدا على ودائعكم النفيسة الا محمد . . اذن فذات محمد مقبولة عندكم ،لكنكم تبغضونه والقرآن حقيقة ، وتقولون لأنه جاء على

(١) سورة الزخرف آية ٣١ .

(٢) سورة القصص آية ٥٧ .

محمد ، فيبقى ذلك تناقضاً، هذا التناقض من تضارب الحقد ، مرة يعزى الى المنهج فيكرهونه ، ومرة يعزى الى ذات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فحين يقول الحق « انَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ » يدل على أن البغض كان لذاته صلى الله عليه وسلم ، والبغض لذاته منقوض بما كان له في نفوسهم ، قبل أن يبعث ، كان له في نفوسهم كل تجلة ، وكل احترام ، وكل تقدير ، فما الذي جعل محمدا مبغوضا الآن ؟ انما هو المنهج . . وانتم تقولون ان المنهج هدى ولكن جاء على يد محمد . . هذا هو تناقض الخصم ، مما يدل على أن الهوى حين يغلب على العقل يبطل مقاييس العقل ، فمرة حين يلجم من ناحية يأتي من ناحية أخرى .

هنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « انَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ » نجد أن الحق يريد أن يرد عليهم أولا من جنس ما قالوه لماذا ؟ يعتزون بالذكر من الذين عاشوا لهم لأن ذكرهم سيصير مرفوعا . . لا . . سيصير هؤلاء الذكور الذين يؤمنون بمحمد فيما بعد كما قدر الله وعلم ، سيصيرون رافعين لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينسون ذكركم أنتم . . اذن الذي كنتم تعتزون به من الأولاد الذكور وسيرفعون ذكركم ، سينقلب الأمر بايمانهم الى أن يكون ذكر الله دائما على لسانهم . والا فما اعتزاز خالد بالوليد ؟ إعتزاز عمر بابن الخطاب ؟ والا فما اعتزاز عكرمة بن أبي جهل بأبي جهل ؟ . . اعتزازه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأن أباه لم يكن في سلسلة نسبه ، ولا في تاريخه . .

اذن الذين كنتم تعتزون بهم على أنهم ذكران يرفعون ذكركم أخذهم رسول الله منكم فصاروا ، رافعين لذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وللدليل على ذلك تجد في غزوة اليرموك مثلا عكرمة بن أبي جهل يقاتل مع خالد بن الوليد ، وبعد ذلك تأتيه طعنة نافذة ، فلما ذهب الى خباء خالد ، أخذه على ركبتيه ، فلما أخذه قال يا خالد : أهذه ميتة ترضي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . . فكأنه لم يكن في باله الا أن يرضى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أين أبوه ؟ أين ذكر أبيه ؟ . . لا شيء . . اذن فأنتم البتر حتى ممن كنتم تعتزون ببقائهم وأنكم ستذكرون بهم .

الوصف حينما يقول الحق « ان شانئك » أي مبغضك « هو الأبتر » يدور مع المعلول

وجودا وعدما . فيدل على أن كل من يبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيصير أبتر . . لكن ما الكلام فيمن نزلت هذه الآية وقت أن كان مبغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم هداه الله للاسلام فصار محبا لرسول الله ؟ . . نقول العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما . . فما دام الشنآن قد انتهى فان البتر قد انتهى معه أيضا . . اذن الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما نزلت هذه الآية ، اذ قالوا قولتهم هذه ، يبقى معناها أنهم انما بتروا لأنهم شنأوا رسول الله ، فاذا ما هداهم الله للاسلام فقد جب الاسلام ما قبله ، وأصبحوا غير بتر . لماذا ؟ لأنه ستكون لهم حياة منعمة خالدة في الدنيا ، وتكون لهم حياة أيضا مذكورة في الآخرة . . الا أن الظاهر أن الذين قالوا ذلك في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان ذلك اذعانا بأنهم سيموتون على الكفر . . ولذلك عندما نعدد مثلا : الأسود بن عبد المطلب ، مثلا أمية بن خلف . . العاصي بن وائل . . الوليد بن المغيرة . . كلهم ماتوا ولم يهتدوا الى الاسلام . . فكأن شانئك الذي قال هذه الكلمة مكتوب عليه أنه سيظل أبتر ولن يهتدي الى الاسلام .

اذن فهنا بتر في الدنيا ، وبتر في الآخرة ، ووصل في الدنيا ، ووصل في الآخرة . . ما دام هناك بتر ووصل ، وهناك مبتور وموصول ، اذن فهما فريقان ، والفريقان لا يمكن أبدا أن يتحد منهجهما في الحياة ، لا في تصور العقيدة ، ولا في الشريعة، ولا في طريقة التعبد ، ولا في منهج التفكير ، ولا في المبادىء . . هذا على ناحية ، وذلك على ناحية . . لذلك قال الحق بعد هذه السورة : « **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** » هذه السورة انما جاءت لتعبر عن المعنى الذي نعبر عنه حديثا في العرف الدبلوماسي ، بقطع العلاقات . . يعني لا يوجد مجال للتفاهم ، الا أن قطع العلاقات في العرف الدبلوماسي مرة يكون لأن الظروف الموجودة الآن لا تناسب أن نتلاقى ومن الجائز أن تجدّ ظروف بعد ذلك يمكن أن نتفاهم فيها . . لماذا ؟ لان البشر حين يقرون ذلك أن هذا الوقت ليس مناسبا للتفاهم وقد يأتي وقت آخر يكون مناسبا للتفاهم ، وأن ظروف البشر متغيرة ، وتغيير ظروف البشر لا يملكون فيها شيئا، أمور تجري عليهم ، وتفكيرهم أيضا ناقص لأنهم لا يعلمون ما يستقبل من الأحداث . . ولكن المسألة هنا ليست فيها ذاتية من

البشرية المحضة ، وانما فيها ذاتية محمد الممدودة من الله ، والله ليس عنده تغيير أحداث ، حين يقول في أصول العقائد شيئا ، لا يمكن بعد ذلك أن يتغير ذلك الشيء ، ويبقى يمكن أن نتفاهم على هذه المسألة فيما بعد . . فكأن الموضوع الذي فيه التفاوض مبتوت فيه الآن ، ولا أمل لاعادة الكلام فيه في المستقبل . .

يبقى اذن لا بد أن تأتي السورة لتؤكد هذين المعنيين ، ولذلك جاء التكرير في السورة « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » . لا حالا ولا مستقبلا ، وأنتم لماذا تفاوضوني. المفاوضة كانت على أساس . . يا محمد أنت تعبد آلهتنا مدة ونحن نعبد آلهتك مدة . . يعني يقسمون الزمن جزءاً لآلهتهم ، وجزءاً لاله محمد . . أو تسجد لأصنامنا وتعظمها ، ونحن نسجد لالهك ونعظمه . . إما أن نقسم الزمن في العبادة ، وإما أن نقسم العبادة في الزمن . . شيء من اثنين : نقسم العبادة في الزمن ، بمعنى أن هذا له مدة وهذا له مدة ، أو نقسم الزمن في العبادة ، بمعنى أننا نعبد الهك ، وأنت تعبد آلهتنا . .

المسألة متعلقة بالعبادة ، والعبادة هي الأصل الأصيل في العقائد . وهذه ليست من التشريعات التي تنسخ ، لا يتغير فيها الرأي ، لأن تشريعات العبادة لله ، ووحدانية الله وعدم شريك له ، أمر متفق عليه من لدن آدم في كل الرسل .

اذن هذه مسألة ليست من مسائل التشريعات التي تجد في الأحداث . . فهذه مسألة لا تتغير بتغير الظروف ، ثم لماذا هذا التفاوض ؟ نناقش المسألة . . هل أنا أعبد الله بذاتيتي من عندي أنا ، أم بمنهج الله ؟ ولكن أنتم تعبدون أصنامكم من ذاتية أنفسكم . . اذن فذاتيتي لا مدخل لها في الموضوع ، وذاتيتكم لها مدخل . . وأيضا هل سبق أني قبل أن أبعث عبدت آلهتكم حتى تطمعوا بعد ذلك فيما اذا كنت رسولا أن أعبد آلهتكم ؟ . . أنا قبل أن أكون رسولا لم أشترك معكم في هذه العبادة . . فكيف تطمعون بعد أن أكون رسولا أن أشترك معكم في هذه العبادة ؟ . . اذن جعلوا المسألة موضوع تفاوض ، هذه مسألة من الحمق . . ثم الخلاف ليس بيني وبين ذواتكم الخلاف بينكم وبين الله ، وأنا فقط مبلغ عن الله ، فالتفاوض ان شئتم لا يكون معي ، وانما يكون مع من يملك هذه المسألة ، لأنني لا أملك التقنين فيها ، أنتم تملكون التقنين ، لأن كلامكم باطل وتستطيعون تغييره ،

وتستطيعون أن تقولوا كذا وتعملوا كذا ، لكن أنا الكلام ليس من عندي ، أنا مبلغ فقط ، وليس لي رأي في هذه المسألة ، فذاتيتي ليس فيها رأي ، وأنتم لكم في ذاتيتكم ، أنتم أحرار فيها ، انما أنا لست حرا . . ولذلك تجد القرآن يحرص دائما على أن يجعل الأمر بـ « قل » نص من نصوص القرآن . . اذا قلت لانسان قل لفلان أن فلانا سيزورك ، إذا ذهب الرسول أيقول له قل إن فلاناً سيزورك ، أم سيذهب ويقول إن فلانا سيزورك ، يقول مقول القول ؟ يقول مقول القول ولا يقول القول « قل يا أيها الكافرون » يقول الله لرسوله قل ، فاذا ما ذهب الرسول اليهم يأتي بمقول القول ، على طول يقول يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . . ولكن من صميم النص القرآني « قل » حتى يفهم السامعون أن ذلك ليس من ذاتية محمد ، وأن محمدا ليس له أن يتفاوض عن الله ، ليس له أن يغير رأيا ، لأن ذاتيته في الموضوع لا رأي لها ، أنتم ذاتيتكم فيها تعبدون لها رأي ، لكن أنا ذاتيتي لا رأي لها ، وانما أنا مبلغ عن الله ولذلك في كل ما يتعلق بهذه الآيات يقول الحق « قل » وتصير « قل » من نص التبليغ فيقول الله « قل يا أيها الكافرون » وأصبحت « قل » مع أنه كان يكفي في المخاطب بقل أن يقول مقول القول دون أن يقول : « قل » . . فتأكيد القرآن على أن « قل » من ذات النص ، دليل على أنه مبلغ فقط ، وأن الرأيَ ليس رأياً . فلماذا تتفاوضون معي أن أعبد آلهتكم مدة وتعبدون إلهي مدة ، أو أنا أسجد لأصنامكم وأنتم تسجدون لإلهي . . المسألة ليست مسألتي . . التعبير « قل » فكأنني مبلغ فقط ولا ذاتية لي في هذه المسألة ثم المسألة بتاعة التفاوض أيضا منقوضة من جهة أخرى ، ما هي ؟ . . أنتم أقررتم بألوهية الهي ، وأنا لم أقر بألوهية أصنامكم . أنتم اذا سألناكم من خلقكم ؟ تقولون : الله . . من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ، سيقولون الله . . من أنزل من السماء ماء فأخرج به ليقولن الله اذن فأنتم مؤمنون ومقرون بوجود اله ، وأنا لم اقر ولم أؤمن بآلهتكم ، يبقى تكافؤ الفرص ممتنعاً . فكيف نتفاوض اذن ؟ . . أنتم مقرون بإلهي ، وأنا غير مقر بآلهتكم ، كيف نتفق اذن ؟ . لذلك قال الله له : « قل يا أيها الكافرون » . . يا أيها هذه عندما تجيء مرتين مرة للتفخيم ، ومرة للتحقير . . . لأن البعد على معنيين : إما بعد منزلة وإما بعد مكان عن الحضرة الطاهرة فعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « يا أيها الرسول » منزلة عالية

يخاطبه مخاطبة البعيد في علو المنزلة . . ويقول أيضا « يا أيها الكافرون » . . هذا بعد عن الحضرة اذن فجهة النداء منفكة ، وأيضا فسيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن اعلان قطع العلاقات والتفاهم والتفاوض بين المؤمنين وبين الكافرين . في ناديهم ، فحين يقول : يا أيها الكافرون على ما يقول يا أيها يبقى فيه تنبيه للأذهان لكي لا يفوت أحد شيئا ، فيطيل النداء لكي يسمع الكل ويجابههم في ناديهم يا أيها الكافرون ، ويخاطبهم بالقبيح ، كلمة يا أيها الكافرون ، لم يقل يا أيها الذين كفروا ، لأنهم لم يكونوا مؤمنين فكفروا ، وانما صفة الكفر لازمة لهم ، من قديم هم كافرون . . وكلمة الكفر هذه توحي بفطرية الايمان لماذا ؟ . . لأن حتى المادة التي أخذ منها الكفر من كفر ، وكفر يعني ستر ، فكأن فيه ظاهر ، ثم جئت أنت فسترته ، فكأن الكفر طارىء على الكفر طارىء على الفكر الانساني ، يعني الفكر الانساني بذاته ، وبطبيعته ، وبنقاوته ، وبصفائه ، مؤمن ، فالذي طرأ انما هو الكفر ، فاختير اللفظ الذي يدل على أنه كان شيئا ظاهرا فستر ، يبقى الذي كان ظاهرا فستر ما هو ؟ . . الايمان بالاله ، كأن الايمان بالاله فطري . . وأيضا لأن آدم تلقاه عن ربه ، وآدم طبعا بلغه ، ولما بلغه يبقى الأصل وجود الايمان بالفطرة ، وبالبرهان ، وبالدليل ولكن طرأت الغفلة مرة على الناس ، وطرأ بعد ذلك تقليد البيئات ، ولذلك تكلمنا مرة أخذ الميثاق عند قوله سبحانه وتعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ »[1] . . اذن فالمناهج الالهية المتلقاة من الحق سبحانه وتعالى ، عندما ربنا ما خلق الخلق وقال لآدم ، وأمد لسان آدم بما ينطق به ، وأمد عينه بما تراه ، وأمد أنفه بما يشمه ، أمد قلبه بما يعتقده ، أمد حياته بما ينظم حركته . . يبقى اذن لما علمه الأسماء كان من ضمنها كل هذا . . وبعد ذلك قال : « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى »[2] والمفروض في آدم أنه تلقى من الله ، وبلغ أولاده أن يبلغوا

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٨ .

غيرهم . . فمن أين ينطمس المنهج ؟ متى ينطمس المنهج ؟ . . ينطمس المنهج من الغفلة ، أول مرحلة هي مرحلة الغفلة ولماذا تأتي الغفلة ؟ . . لأن مناهج الله التي تنظم حركة الناس انما تقيد حركتهم، تقيد حريتهم وتقيد شهواتهم فالأشياء التي تقيدهم يفضلون عنها وينسونها ، يغفل اليوم عن جزئية ، ويكره عن جزئية ، وبعد ذلك تستمر الغفلة فيجيء الران على القلب . . كذلك قلنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . وحدثنا عن رفع الأمانة قال : ينام الرجل النومة ( يعني يغفل الغفلة لوحده ) فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ( الوكت عندما تحضر جمرة تقربها قليلا من الجلد لكن لا تلمس الجلد فتعمل بقعة لكن اذا قربت الجمرةمن الجلد أكثر تعمل عملية ثانية تبقبش . . فكأن فيه ملحظين اثنين : قال ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل آخر المجل كمجرد دحرجته على رجله فنفط فتراه منبترا وليس به شيء . ثم أخذ رسول الله ﷺ حصى ، ودحرجه على رجله . . قال حذيفة فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الامانة ، حتى يقال إن في بني فلان رجلا أمينا ( كأن الأمانة أصبحت نادرة ) وحتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان . ( يعني تتغير المقاييس ) . . وبعد ذلك في حديث آخر قال : كنا جلوسا عند عمر ، فقال : أيكم يذكر الفتن التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال الصحابة : كلنا سمعناه . . استبعد عمر أن يكون جواب سؤاله عند جميع الصحابة . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وماله . قالوا : نعم . . قال : لا ، تلك تكفرها الصلاة ، ويكفرها الصوم . وانما أعني التي تموج البحر . فسكت القوم . . قال حذيفة : أنا سمعته قال : أنت لله أبوك . قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تعرض الفتن على القلوب كالحصير ، عودا عودا ( كما ينسج الحصير ، عندما ننسجه نضع عودا وعودا آخر جانبه الى أن نصنع رقعة الحصير الكبيرة ، كذلك الفتن والغفلة على القلب ) فعرض الفتن على القلوب كالحصير فأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب

أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا . . وحدثته أن بينك وبينها باب يوشك أن يكسر . . قال عمر : اكسر لا أبا لك ، لعله يفتح ثم يعود . قلت : بل يكسر . . حديث ليس بالأغاليط .

اذن فالأصل الايمان ، بالفطرة وبالبرهنة ، وبالدليل وبما بلّغه آدم الى ذريته . ولكن الغفلة عندما تأتي ، يقوم الدين يتنسى شوية . لكن الغفلة من فرد قلنا قد ينبهه فرد آخر في المجتمع ، لذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتذكير الغافل « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين »[1] . . فاذا ما طم الفساد وأصبح لا مجتمع يأمر بمعروف ولا ينهي عن منكر . ماذا يكون الموقف ؟ لا بد أن تتدخل السماء من جديد ، برسول جديد ، بمعجزة جديدة ، لأن الخلق كلهم فسدوا .

اذن الغفلة تأتي أولا ، وبعدما تأتي الغفلة يأتي الجيل الذي بعد الغافلين ، يبقى عنده مؤثرين في ترك المنهج : الغفلة ، وتقليد الآباء على الضلال . . اذن القرآن عندما تكلم عن الموضوع ، جاء بعناصر الانصراف عن منهج الله ، وعن الطبيعة ، في قوله « أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم » . . اذن الله قطع الحجة .

اذن فقول الحق : « قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ » اختار هذا الوصف المأخوذ من كفر بمعنى ستر ، يدل على أن الأصل في الفطرة ، الايمان ، والكفر طارىء عليها ، وما دام الكفر طارىء ، يبقى هم مبدلون ومغيرون لمنهج الفطرة ، ولمنهج ما تلقى من الرسل السابقين .

« قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » . . اذن قلنا إن المسألة ليس فيها مجال للتفاهم ، لماذا ؟ لأن منهجكم الاعتقادي والتصوري في الألوهية مختلف عن منهجي ، ولأنني لا أعمل من ذاتي ، وأنتم عاملون منهجا من ذاتكم ، ولأنني أتلقى عن الله ، ولأنني لم يسبق لي مثل الاسلام ان اشتركت معكم في العبادة ، ولكنكم أنتم تعبدون ربنا وتقولون : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى »[1] اذن فالهوة بيننا

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٥

وبينكم كبيرة ، ولا نحتاج الى أن نلتقي في منتصف الطريق أبدا ، لأن الالتقاء في منتصف الطريق يكون بالنسبة لأعيار النفس أمام أغبار النفس ، انما هذه أغبار نفس بشرية أمام منهج الهي ، والله لا يتغير من أجل احد ، فيجب أن نتغير نحن من أجل الله . .

« قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ » يعني لا أمل في أن نستأنف المفاوضة ، لان استئناف المفاوضة معناه أن الظرف تغير ، والظرف في مسألة العقائد لا يتغير أبدا . لماذا ؟ . . لأنه منهج من الله موحد دائما ، فموقفي منكم الآن ، هو موقفي دائما . . « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » . . مادامت المسألة انفصلت هذا الانفصال ، وافترقت هذا الافتراق . يبقى اذن أنت لك مبدؤك ، وأنا لي مبدئي .

القرآن عندما يتكلم ، يتكلم الكلام الذي لا يمكن أحداث الحياة ولا واقعها ينقضه . كيف ؟ . . ثبت بعد ذلك أنهم دخلوا في دين الله أفواجا . . اذن مجيء سورة « اذا جاء نصر الله والفتح » يدل على أن ليس الأمر سيظل بأنني لي معبود ، ولكم معبود . الأمر سينتهي حتما الى أن معبودي سينتصر ومنهجي سينتظمكم جميعاً، لأنه ربما يطمعون ما دام لكم دينكم ولي دين هذا استقرار بأنه سيظل لنا دين ، ولهم دين . . نقول : هذا في المفاوضين فقط . انما غير المفاوضين ، ومن أصلاب المفاوضين ، سينقلون . . اذن يقول الله بعد ذلك : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » يدل على أن مسألة « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » لا يدل على أن الكفر سيظل معسكراً أمام الايمان طوال العمر ، بل فيكم أنتم ، ولكن سيأتي الوقت الذي لا يكون فيه الا دين واحد .

ويكون الدين كله لله . . فقال الحق بعد ذلك لكي يطمئننا : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

اذن فعلاقة سورة « النصر » لتبين أن الأمر في قوله سبحانه : « لا أعبد ما تعبدون

ولا أنتم عابدون ما أعبد » يدل على أن ذلك شأن المخاطبين له فقط ، وأما أن يظل الكفر له دين ، وأن يظل له عابدون ، فهذا أمر مقطوع ، لأن الناس بعد ذلك سيدخلون في دين الله أفواجا .

وقد جاءت أحداث التاريخ مؤيدة هذا ، ولذلك كان هذا النسق لسورة « النصر » مع أنها لم تنزل بعدها ولكنها جاءت بعد سورة « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون » .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

# الإخلاص والمعوذتين

بين الحق في سورة الاخلاص العنصر الثاني عنصر توجيه العبادة للاله الحق قال « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » . ولهذا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرن بينهما وبين سورة « الكافرون » دائما في سنة الفجر، وفي سنة الضحى ، وفي سنة مغرب ليلة الجمعة ، قرنا من أمرين وهو السلب أولا ، والايجاب ثانيا . . وقلنا ان كلمة الاخلاص نفسها مكونة من السلب ، ومن الايجاب « لا اله » . . وبعد ذلك أثبتنا فقلنا « الا الله » ولذلك كان بعض أهل المعرفة دائما يدعون الله سبحانه وتعالى أن يبقي حياتهم حتى يخرجوا من حيز النفي ومعنى أن يخرجوا من حيز النفي أنه يخاف أن تقبض روحه وهو يقول « لا اله » فيموت على هذا الوضع ،فكان يسأل الله أن يبقي حياته حتى يدخل في عنصر الايجاب ، أي يأتي بـ « الله » . . ولذلك قال بعض العارفين ان العبادة المحضة تبدأ بـ « لا اله الا الله » ثم تنتهي بـ « الله » قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . . فسئل لم ذلك ؟ فقال : لأن الذي يتصور الشريك هو الذي ينفيه ، الذي يخطر على باله أن هناك شريكا يبقى ينفيه أما الذي خلص في التوحيد ولا يتصور شريكا حتى يحكم عليه بالنفي يقول بنفسه « الله » وقال أيضا بعضهم ان نفي العيب عمن لا يستحق العيب عيب فاذا قلت « لا اله الا الله » فكأن بالك قد شغل ولو تصوراً اثبات شريك ثم نفيته ، والشريك لا يجب أن يخطر بالبال مع الله ، فاذا قلت « لا اله الا الله » فقد نفيت العيب عمن لا يستحق العيب . . كما تجيء في انسان ورع وتقول : أنا لم أره يشرب الخمر . كونك نفيت عنه شرب الخمر هذا نقص في حقه ، لأنه كان مظنة أن يشرب الخمر فاذا قلت فلان لا أعرف أنه لا يشرب الخمر ، يبقى كأنك لم تشهد له ، وان نفيت عنه شرب الخمر ، ولكنك جعلته مظنة أن يظن الناس أنه يشرب الخمر فنفيته عنه . فنفي العيب عمن لا يستحق العيب عيب .

وبعد ذلك قلنا إن السورة أخذت عدة أسماء ، وقلنا إنها سميت سورة الأخلاص

وبينا معنى الاخلاص وسورة الأساس وبينا أنها الأساس ، وسورة الايمان . . وقلنا أيضا إنها سميت بسورة البراءة لأنها براءة لقائلها ولمعتقدها من النار ، وتسمى أيضا سورة التجريد وسورة التفريد ، وسورة التوحيد . . الألفاظ الثلاثة التي هي التفعيل من جرد وفرد ووحد تؤول الى معنى واحد ، لأن معنى التجريد أن تنفي الأشياء عن جوهر شيء هذه الأشياء باختلاف ما تفسده .

وقلنا وكيف اذا أشركنا بالله نفسد المسألة ، لأن الله يقول : من أشرك معي شريكا فهو له فأنا أغنى الشركاء عن الشرك . يجوز أن الآلهة الأخرى تعتز بأن يكون الله معها ، انما الله لا يعتز بأن يكون أحد معه . فالذي يعتقد مع الله شريكا يذهب هو وشريكه . . فمعنى التجريد أن تخلص جوهر الشيء مما يشوبه ويختلط به ، ومعنى التفريد أيضا هو ذلك يعني أن تفرد . . ومعنى التوحيد أن توحد . . اذن فالتجريد والتفريد والتوحيد ، تؤدي الى معنى واحد ، وهو اخلاص الاله الحق مما يشوبه من فكرة اشتراك اله معه .

لكن كلمة التوحيد . . في أول وهلة تقول : وحدت كلمة القوم ، يعني صيرت كلمة القوم كلمة واحدة . أخذت مزاجا من كلام هذا ومن كلام هذا ثم صيرته شيئا واحدا ؟ . . لا . . أنت نفيت كلاما ، ثم أخذت منه كلمة واحدة ، فيبقى معنى كلمة التوحيد أنك نظرت الى عدة شركاء ووحدتهم وخلطتهم مع بعض ولذلك تبقى هذه الآية ترد على من يقول بالثالوث : الأب والابن والروح القدس ثم يعجنهم مع بعض عجينة وبعد ذلك يقول : اله واحد . . يبقى اذن معنى التوحيد أن الموحد لم يصنع التوحيد ، معنى الموحد أنك شهدت الله واحدا ، لم تأخذ الشركاء مع الله وجعلت منهم الها واحدا . . لا . . يبقى اذن التوحيد هو أن تشهد الها واحدا ، لا أن تجمع الهة ثم تجعلها الها واحدا . .

هذا التوحيد ليس من فعل الموحد . لأن الله واحد ، وجد موحد له أو لم يوجد . فالأصل والشأن والحال انه اله واحد ، قلت أنت ذلك أو لم تقله . اذن فأنت اذا وجدت انما صادفت بكلمتك وبعقيدتك الحق ، لا أنك انشأت التوحيد ، يعني لم يكن الله موجودا ثم وحدته أنت وانما الله واحد ، وجد موحد له أو لم يوجد . . ولذلك قلنا في قوله سبحانه وتعالى « شهد الله أنه لا اله الا هو » . . اذن فشهادة الله أنه لا اله الا هو شهادة الذات

للذات ، سواء قالها انسان أو لم يقلها . .

اذن فالشأن والحال والواقع أن الله واحد ، فان قلتها فقد صادفت الحق ، وان لم تقلها فهو واحد ايضا . ولكنك جانبك الحق . يبقى « **شهد الله أنه لا اله الا هو** » شهادة الذات للذات وشهدت الملائكة شهادة المشهد ، وشهد أولو العلم وأولو المعرفة . . وقلنا إن الآية هنا فيها دقة التعبير ، هذه الدقة كان المفروض أن يقول : شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو الايمان . ليس أولو العلم . . نقول لا . . انما الايمان ينشأ عن معرفة أنه لا اله الا هو اذن فالايمان هو المرحلة الثانية ، ليس أنك آمنت فعرفت . . أنت عرفت فآمنت . . لكن بعض الناس يقول : لا . . أنا أؤمن لأعرف، نقول له : فرق بين أن تعرف الله وأن تعرف عن الله . . هناك معرفتان : معرفة الله . . والمعرفة عن الله فيما يتعلق بذاته الواحدة بالمعرفة عن الله تتعلق بمنهجه الذي تبلغه . . فأنت ايمانك بين معرفتين المعرفة الأولى أنك عرفت أنه اله واحد فآمنت . فلما آمنت تلقيت عنه أحكامك ومنهجك اذن فالذي يقول ان المعرفة سابقة للايمان . أم الايمان سابق للمعرفة ؟ نقول لهم : ان هذا الخلاف ليس له طائل لأن الجهة منفكة ، ففيه معرفة متقدمة على الايمان ومعرفة متأخرة على الايمان ، أما المعرفة المتقدمة على الايمان فهو أن تعرف أولا أن الله واحد ، تؤمن بهذه القضية . . وما الفرق بين المعرفة وبين الايمان ؟ المعرفة كدليل ، والايمان مدلول عليه . . نقول : نعم لأن المعرفة عملية عقلية ، فالعقل حين يأتي لقضية من القضايا ويناقشها ويطرحها ويستدل عليها ، ينشأ من ذلك عقيدة ، العقيدة هي ما يستقر في وجدانك وقلبك ، بحيث لا يطفو مرة أخرى الى الذهن ليناقشها من جديد ، لم يعد محل مناقشة . . يبقى متى يصير الشيء ايمانا ؟ . . أن تمر على العقل فيبحثها ؟ من ناحية معرفتها ، من ناحية الاستدلال عليها ، فاذا ما انتهى الى ذلك ، آمن وصار مطمئن القلب الى هذه العقيدة ، وما دام مطمئنا الى هذه العقيدة لم تعد تطفو مرة أخرى ليناقشها العقل مناقشة أخرى . فاذا رجعت الى العقل ليناقشها مناقشة أخرى ، نقول انها لم تصل عندك الى مرتبة الايمان ، مازالت في مرتبة البحث عن الايمان ، أما اذا ما وصلت الى مرتبة الايمان واطمأن قلبك . فقد انتهت المسألة .

يبقى اذن المعرفة الأولى هي معرفة الأدلة التي توجب أن الله واحد ، وينشأ الايمان

بالاله الواحد وآمنت به ، عقلك مهمته في العقائد انتهت ، ومهمته في التسليم الى رسول الله انتهت ، ولذلك ليس لك فيما يصلك عن الله أو عن رسول الله ، الا أن توثق أصدر عن الله أو لم يصدر ؟. أما أن تبحث فيه بعقلك فليس ذلك محل الايمان .

أنت تقول : ربنا قاله أم لم يقله ؟ فان كان قاله يبقى على العين والرأس ، يبقى هذا هو المصدر الأول للمعرفة ، بعد ذلك قد يتسع عقلك لتناقش المسألة في حيثياتها ، كثير من الأمور التي تنظم علاقات المجتمع ببعضه ، الأمور التشريعية ، لكن الأمور التعبدية من الممكن أن تجد لها علة عقلية لأنك تمسك القانون الالهي ، وبعد ذلك نعرض عليه المصالح أو نعرض المصالح عليه فنجده يحقق المصلحة ، بحيث لو أن العقل البشري كان عقلا فطريا سليما من الآفات ، لاهتدى الى ذلك التقنين بنفسه .

ولذلك نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتقبل من عمر بعض المشورات ، بعد ذلك يأتي التشريع موافقا لهذه المشورات ، فكيف يشير عمر والرسول لا يشير ؟ . . ان الحق سبحانه وتعالى أراد بهذا ، أن يفهم الناس أن العقل متى صفت فطرته ، وصفا منهجه يستطيع أن يصل الى الدين فكره ، بدليل أن عمر يقول له الا نتخذ من هذا مصلى ، الا نتخذ كذا ألا نصنع حجابا . . اذن فالعقل ما دام عقلا سليما ، من الممكن أن يهتدي الى قضية التشريع من نفسه .

فالحق سبحانه وتعالى حين يعطينا المنهج . . المنهج نوعان : نوع العقل ليس مطلوبا منه أن يسأل عن حيثياته ويحلله ، ونوع أنت حر في البحث عن علله ، ابحث ما شئت ، قارن أي تقنين من قوانين السماء بما شئت من تقنين الأرض ، فستجد أن تقنين السماء أوفى غرضا ومصلحة من تقنين الأرض ، والدليل على ذلك أننا اذا استعرضنا القوانين الوضعية وجدناها تتعرض لوضع قانون ثم للتطبيق وعند التطبيق يتبين فساد التقنين . فماذا يصنعون ؟ يعملون له تفسيرا ، ثم يعدلون القانون . . فاذا نظرت الى أي قانون ينظم علاقة المجتمع ، ثم تتبعت الأساس القانوني ، مثل ما طرأ على الأساس من التعديل ، نجد أن كل تعديل يقرب من منهج السماء . اذن هذا يدل على ماذا ؟ . . يدل على أن الذي قنن كان ناقص الفكر في البشر فقنن لشيء وقد غاب عنه شيء ، أو أن حوادث الأيام التي جاءت ، أثبتت له الخطأ في هذه الزاوية ، فأحب أن

يعدل . .

لكن الحق سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافية ، والذي حين يقنن لا يستدرك عليه أبدا . . اذن فالمؤمن انما عمل عقله أن يأخذ المنهج من الله ، عقله فقط يوثقه ، أصدر عن الله أم لم يصدر ؟ حين يصدر عن الله أهلا وسهلا . . أما في الأمور التعبدية التي تخفى بعض عللها بالنسبة لنا ، نحن نقول حكمة كذا ، كذا . هذه الحكمة استثنائية فيما استطاع البشر أن يدركوه لكن الحكمة عند الله لا تحد بتعليل العقل . لأن حكمة كل تكليف عند من وضعه ، وما دام الحق هو الكمال المطلق ، وكماله لا يتناهى ، اذن له حكم لا تتناهى فيه . . أنت عقلك اصطاد بعض الحكم ولكنه لم يصطد البعض الآخر ، فاذن تقول انني استأنس أن تكون هذه حكمة من الحكم . . وهذا هو معنى التدين ، لأن التدين لو أجل لاقتناع الانسان بعلة الشيء ، لكان ايمانك بالعلة ، ولم يكن ايمانك بالآخر وقلنا إن الفرق في الدين وفي الأشياء الأخرى ، أنك قد تفعل الفعل وأنت مقتنع بأن هذا علة يوصل الى كذا ، أنت صنعته لأنه علة يوصل الى كذا لم تصنعه ، لأن الله هو الآمر . ولكن حين تغيب العلة ، وتتلقى الأمر من الآمر وتفعله ، يبقى أنت لم تفعله للعلة . وانما فعلته لأن الآمر هو الله . . وذلك هو اليقين . . ولذلك قلنا إن هذه من الصديقية . . صديقية الايمان ، منسوبة الى الصديق ، ومعناها أنه كان يتلقى الأمر من رسول الله فقط ، ولذلك يقول : أقاله أو لم يقله ؟ . إن كان قاله يبقى صدق ، اذن لم يناقش الأمر . . اذن فاذا أدرك كل انسان علة أي أمر من الأمور تم صنعه للعلة ذلك يقبحه في الايمان ، وانما أنا أصنعه لأن الله أمر به ، ولا بد له حكمة تناسب كماله المطلق ، الحكمة التي استخلصها على قدر عقلي أنا . . فاذن علتي في الاقبال على أي تكليف ، أن الله أمر به . . عندما أقول لك مثلا الوضوء ينظف فمن أقبل على الوضوء لأنه ينظف يبقى فسد تعبده ، نقول له : طيب يا أخي الوضوء ينظف طيب ولما نفقد الماء لماذا نحضر ترابا ونلوث وجهنا ؟ اذن المسألة ليست مسألة تنظيف أو غير تنظيف . . المسألة التماس أمر الله فيما جعله وسيلة للحضور بين يديه طاعة أدركت أنت له علة طيب اذا أحضرت عليه غرين وتوضأت وجاء الطين على وجهي . . يبقى لا نظافة ولا حاجة ، يبقى اذن أنت أقبلت على الوضوء لأن الله قال أقبل علي بالوضوء ، وادراك علل الأشياء يناقض عملية الايمان ، لأنك ربما ذهبت الى

الشيء لعلة المصلحة فيه والمراد أن تذهب الى الشيء لأن الله أمر به ، ولذلك تجد أن واحدا قد يصدق في تجارته ، لأنه جرب الصدق فوجده مجديا على العمل التجاري ، يحضر له الزبائن ، ويعطي الثقة فيه . . نقول له : لقد أخذت الخط الدنيوي الذي أقبلت عليه ، انما لم تأخذ الخط الآخر وهو أنك قصدت وجه الله . . قد يجوز أن واحدا أمينا ومع ذلك يخسر لأن الناس تغش في تجارتها . . تبيع وسوقه تنفق . . اذن لو ركدت سوقه يبقى يرجع في قضية الايمان . . لكن لو عمل العمل على أن الله أمر به ، يبقى واثقاً من أنه له ثوابه ، سواء أعطاه في الدنيا ربحا أو لم يعطه ، يبقي لا يخطئه الثواب . .

اذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يأمرنا بالأوامر التعبدية ، يجب أن يكون لعملنا حد محدود في البحث عن هذه الحكم ، لأن الايمان هو أن تؤمن بالأمر بناء على ايمانك بالآمر . . لو ضربنا مثلا وقلنا اذا جاء لي انسان وقال لي اذهب الآن مثلا الى الرياض ، أقول له والله صحتي متعبة وأنا لا أقدر الليلة . . يقول يا شيخ اذهب الى الرياض وقابل فلانا فان معه المصلحة التي كلمتني فيها واذا لم تلقه الليلة فسيسافر غدا في اجازة طويلة خمسة أشهر . . هل أذهب أنا أم لا ؟ اذهب . . يبقى أنا ذهبت احتراما لأمر الذي قال لي اذهب أو لعلة الأمر ؟ . . أما الذي قال لي اذهب الى الرياض فذهبت بدون أن أسأله . . يبقى الايمان يريد منا أن نؤمن بالأمر . . بانت لي علة آمره أو لم تبن . . هو له علة قطعا .

عندما يأتي الحق سبحانه وتعالى في سورة التجريد ، سورة التفريد ، سورة التوحيد ، يجب أن نفهم أننا لم ننشىء التوحيد ، وانما شهدنا التوحيد . . وفرق بين انشاء الشيء وحدث كذا أي من فعل ، وبين أن تشهده واحدا . .

سورة التجريد وسورة التفريد وسورة التوحيد . . وبعد ذلك جاء لها اسم سورة « الجمال » . ما هو الجمال ؟ . . الجمال الناس مختلفون في تعريفه . . انسجام تكوين الشيء انسجاما يرتاح له الطبع . . شيء منسجم التكوين انسجاما عندما يتوجه الطبع اليه يرتاح اليه . . وبعدين يقول : لا . . الجمال هو أن تنسجم المقدمة مع النتيجة . . يعني مثلا الجمال في الحرير أن يكون ناعما . . والجمال في المبرد أن

يكون خشنا . . الجمال في العين أن تكون واسعة . . والجمال في الفم أن يكون ضيقا . . اذن المسألة لا بد أن نرى المقدمة والنتيجة . . يبقى الجمال هو انسجام النتيجة مع ما ليس تستطيبه النفس ، لأن النفس قد تستطيب شيئا ، وتعطيه الاستطابة فرصة تستطيبه النفس ، شوف النفس التي تستطيع أن تكون حاكمة وتأخذ مجموع الأشياء فان الذي يحقق لنفسه شهوة ، لا شك أن نفسه استطابتها ، ولكنه لم يقدر ما يترتب على هذه الشهوة من آلام فلا تعزل هذا الزمن عن هذا ، لا بد أن تضم الزمنين مع بعضهما ، وقلنا مرة ، انه مثلا واحد عنده ولدان : ولد توقظه في الصباح فيصلي ويفطر ويذهب لمدرسته في أمان الله وولد آخر توقظه فينام وان أغلظت عليه يخرج من المنزل ويتسكع في الشارع أو يجلس على القهوة وهو كاره للمدرسة . . الاثنان كل واحد منهما يفعل ما تستطيبه نفسه . . هذا استطاب أن ينام وذلك استطاب أن يذهب الى المدرسة لكن واحدا استطاب النوم كلذة مؤقتة انما لم يقرن الزمن المستقبل بهذه اللذة . والآخر أخذ التعب وقام الى المدرسة وتعب وهو مستطيب هذا العمل ، لماذا ؟ لأنه لم يغفل الزمن المستقبل . . بعد مضي عشر سنين نجد هذا انسانا له مكانه وجاهه ، وهذا انسان صعلوك في المجتمع . . يبقى لا تأخذ الزمن بواقع اللذة فيه ( خذ الزمن بمجموع اللذة ذاتها ) وخذ الزمن بمجموع التعب وما يعقبه تأخذ المجموع . . وقلنا إنه ما دام الجمال أن النتيجة تكون مطابقة للمقدمة ، تقوم عندما تنظر في الكون تجد فيه أشياء الانسان لا يستطيبها ، مثلا : عميد الكلية أو ناظر المدرسة يستطيب أن ينجح طلابه . . هذا شيء تستطيبه النفس وتكون النتيجة حسنة . . نقول له : لا . . العاقل لا يستطيب أن ينجح كل طلابه . . العاقل يستطيب أن ينجح المجد ويرسب غير المجد . . يبقى الرسوب الذي آلم بعض النفس هذا ولم تستطبه ، هو عين الجمال . . لماذا ؟ . . لأنه لو نجح الكل الذي اجتهد والذي لم يجتهد . . حين سنأخذ ما تستطيبه أنفسنا ، إنها تفقد ما تستطيبه النفوس كلها بعد ذلك . . لا يوجد أحد يجتهد . . ما دام قد نجح الذي اجتهد والذي لم يجتهد . . يبقى اذن الجمال أن ينجح المجتهد ويرسب غير المجتهد . . هذا هو الجمال . .

اذن فالجمال أن كل شيء تأتي نتيجة منسجمة مع مقدمته .

كذلك هذه السورة لماذا سميت سورة « الجمال » . . قال : لأن الانسان اذا عاش في هذه الحياة وبعد ذلك نجد اناسا متفاوتين في مظاهر القوة ، متفاوتين في مظاهر الغنى ، متفاوتين في مظاهر النعمة . لو لم يكن هناك عقيدة تعمر القلب بأن الذي أجرى هذه الأشياء القدرية التي لا اختيار للناس فيها ، اله حكيم عادل ، وأن هذه لها حكمة ، وهذه لها حكمة ، وهذه لها حكمة ، كان الانسان يستقبل حياته بمنتهى السخط وبمنتهى التذمر . واذا استقبلها بمنتهى السخط وبمنتهى التذمر ، فسدت نظرته الى الحياة ، ونظر الى كل قوي عنه نظرة الحقد ، والى كل غني عنه نظرة الكراهية ، والى كل صحيح وسليم نظرة البغض . لكن حين يفهم أن هناك قدرا عاليا فوقنا ، وهذه لها حكمة وهذه لها حكمة قد أدركها وقد لا أدركها أقبل على الحياة وأنا غير موزع القلب . لماذا ؟ قلبي خال من الضغن قلبي خال من الحقد ، وأعتقد أن القدر الأعلى هو نظم الكون على هذا النظام ، ومن الممكن أن أكون غدا صحيحا ، وغيري يصبح غير صحيح ومن الممكن أن أكون غنيا وغيري فقيرا اذن عندما تفهم أن ذلك من قوة حكيمة ومن قوة عالية ، تنظر الى الكون نظرة جميلة وليس في الامكان أبدع مما كان . .

عندما تنظر وتجد الناس متفاوتين ، يمكن هذا التفاوت لا يعجب بعض الناس . . نقول له : لا . . هذا التفاوت هو عماد الكون . . لأن الله لا يريد من المجتمع أناسا مكررة ، انما يريد أناسا متكاملة ، وفرق بين أن يتكرر الأفراد وبين أن يتكامل الأفراد . . معنى التكامل أن يوجد في الانسان خصلة قوة ، وفي غيره في هذه الخصلة ناحية ضعف . . ويوجد فيه خصلة ضعف ويوجد في غيره خصلة قوة . . القوة في بعض المظاهر والعجز في بعض المظاهر ، ليس معناه أن الناس بالعجز المطلق ، وليس معناه أن هناك أناس مفروض عليهم بالقوة المطلقة ، أنت تنظر فقط الى زاوية واحدة ، لذلك الميزان فيه خلل . . انما يجب أن ينظر الى كل زوايا الحياة ، الى كل زوايا الانسان . لا تنظر اليه فقط الى أنه غني وأنت فقير ، أنظر الى ما وهبك الله من خصلة أخرى طيبة هو خال منها . . اذن فالتكامل والجمال انما ينشأ من أن

يكون انسان قوياً في شيء وانسان ضعيفاً في شيء والضعيف في هذا الشيء قوي في شيء آخر وأنت ضعيف فيه . . حين يوجد ذلك يبقى الالتحام الوجودي أمر لا مفر منه ، لأنني لو كنت قويا في كل مظهر استغني أنا عن الضعيف . .

ولذلك الناس لا يفطنون الى سر الجمال في قوله « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا » . . الناس ينظرون الى « رفعنا بعضهم فوق بعض درجات » انه ليس الا الغنى والفقر فقط . . نقول : لا . . الله لم يحدد البعض المرفوع ، ولم يحدد البعض المرفوع عليه ، بل جاء بكلمة البعض الشائعة في الإبهام . . « رفعنا بعضهم فوق بعض » . . من المرفوع ومن المرفوع عليه ؟ . . اذن لو نظرنا لوجدنا أن كل بعض فيه خصلة مرفوع فيها ، وفيه خصلة مرفوع عليه فيها ، متنوع ، بحيث أن مجموع كل انسان يساوي مجموع كل انسان . . ولكن الخلاف أنا آخذه في الدرجة هذه مائة وغيري يأخذ عشرة وأنا آخذ عشرة وهو أخذ مائة فان أردت أن تعمل حسابا دقيقا لا بد أن تأخذ مجموع الدرجات والزوايا المختلفة في الصحة، في المرض ، في السعادة في الأمن في الذكاء في الأخلاق ونرى كم أخذ هذا وكم أخذ هذا وتجمع المجموع ، عندما تجمع المجموع بحساب دقيق تجد أن مجموع كل انسان يساوي مجموع كل انسان ، ولا تفاضل الا بالتقوى . . يبقى عندما نقول « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » . . لا نقول الأغنياء على الفقراء فقط ، لأن المعيشة ليست غنى وفقرا . . « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم » فما هي المعيشة ؟ . . المعيشة عدة زوايا أشياء كثيرة جدا ، خذ هذه الزوايا كلها ، وبعد ذلك أعمل الدرجات فيها .

« وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا » . وقلنا ان الناس تفهم أن الغني هو الذي يسخر الفقير ، أو القوي يسخر الضعيف . . عندما ترى انسانا غنيا يستورد الشاي من هنا والسكر من هناك . . الخ فتجده مسخرا للفقير ، لأن كونه أخذ يفكر سنتين ثلاث ليعقد صفقة شاي من سيلان ويعمل لها اجراءات ، ويتفق الخ . . أنا لا أتذكر الشاي الا عندما ينفذ من عندي ، عندما ينفذ أشتري من المحل باكو

شاي ، لو لم يوجد انسان مشغول بالشاي من ثلاث سنوات الى أن يأتي به لي من هناك . . يبقى هو اذن مسخر لي ، لكن أنا لا أنظر الا الى التسخير الظاهر فقط عندما نرى انسانا بنى عمارة كبيرة ، نقول : العمارة هذه ٢٠ دورا ، والدور فيه أربع شقق ، والشقة ايجارها ٢٥ جنيه ، وتعمل عملية حسابية وتضرب وتقول : شوف يا أخي سيأخذ كام . . يقول له : آه . . لقد نظرت نظرة حمقى ، إنه قبل أن ينتفع منها بجنيه واحد ، كان قيمتها الكذا مليون التي بنى بها العمارة لو نظرت اليها فوجدت أن صاحبها الذي بذلها ، بذلها لأفقر طبقات المجتمع الذي يحمل التراب والذي ضرب الطوب ، والذي بنى والذي نجر ، والذي ركب الأدوات الصحية والذي ركب النور والذي دهن بالبويا كل هؤلاء هم الطبقات الفقيرة أخذت هذه النقود . . يبقى هو كان مسخرا لهؤلاء أم لا . . نعم . . أعاشهم خمس سنوات . . كم قطاع من قطاعات المجتمع ظل يعيشهم هذه المدة . . يبقى أنت لا تنظر الى التسخير الثاني ، لا بد أن تنظر الى التسخير الأول . وبعد ذلك يأتي انسان غريب مثلي متعاقد مع الجامعة يبحث عن سكن فيقول ان هذه الشقة ليس فيها « بحري » . . الشقة هذه غرفها ضيقة . . يبقى أنا كنت قبل أن آتي بعشر سنوات وربنا سخر لي واحدا وأخذ يبني لي عمارة ثم تبغدد عليه . . وهو مسخر لي أيضا . . مثلا واحد يجعل واحدا جالساً على قهوة ويسأله سؤالا . . ويجيب عليه بجواب . . يأخذ الجواب وينتهي . . لو عرف كم كلفتني الاجابة عن هذا السؤال من عمري ؟ كلفتني عشرين سنة . . أنا في هذه العشرين سنة كنت مسخرا له لكي يأخذ الجواب وهو ماشي . . اذن لا بد أن تنظر الى أن الوجود كله ربنا لم يجعله ناقصا ، انما جعله متكاملا . . متكامل بأن فلانا قوي في شيء والثاني قوي في آخر . ولذلك حين تجد نفسك في مظهر من مظاهر الحياة فوق أي انسان في هذا المظهر ، لا تنظر نظرة المتعالي عليه ، بل يجب أن تنظر نظرة وتقول : يا ترى ما هي الخصلة اللي يأخذ هو فيها عشرة على عشرة وأنا آخذ فيها صفرا ؟ . . هذه هي نظرة الايمان ، عندما تنظر هذه النظرة لا تنظر الى جهة فوقك ، صحيح جهة فوقك هو التميز ، لابس نظيفا . . الخ . . قل يا ترى ما في الخصلة التي عنده يأخذ فيها درجة وأنا آخذ فيها صفرا ؟ تقوم تردك عن تعاليك . . لماذا ؟ لأنها تؤدي بك الى ذلة النفس ، لأنه ليس هناك أحد ابن ربنا . . وما دام ليس هناك أحد ابن ربنا، وكلنا عبيده وكلنا خلقه ،

يبقى لا بد أنه أعطانا تكافؤاً ، لكن التكافؤ بعضه ساطع والناس تنظر اليه ، وبعض الناس لا تراه . . ولذلك نجد انسانا قد يكون غنيا جدا وبعد ذلك نراه وهو يأكل . . ويأكل قرصا من الشعير وقطعة جبنة . ويمكن بوابه جالس أمامه ويأكل الفول والبيض . . أنت لا بد أيضا أن تنظر الى هذه الزاوية ، هذه نعمة كبيرة فلازم دي يأخذ فيها كذا وأنت تأخذ هذا . . نقوم عندما تأخذ المجموع كله تجد الانسان يجب أن يعامل الكون كله بأدب « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ » . لماذا لا يسخر قوم من قوم ؟ لأن معنى أسخر أن واحدا في صفة سيكون أقل مني فيها ، أقول له : لا . . عسى أن يكون خيرا منك في صفات أخرى كثيرة أخذ هو فيها مائة على مائة وأنت آخذ فيها صفر . . يبقى اذن سأتعامل مع الكون كله بأدب . . وبشيء من الخضوع . . لأن الانسان كما قال الله : « إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَآهُ اسْتَغْنَى » فلا تنظر الى ناحية استغنائك بل أنظر دائما الى ناحية عجزك . ولذلك سئل بعض العارفين ، لماذا لا يوجد التكبر الا في الانسان ؟ لماذا الانسان وحده هو المتكبر ؟ قال : لأن الأجناس الأخرى لم تشهد من صفات الحق الا صفة الجبروت ، وصفة القهر كن فكان بدون اختيار له يا شمس كوني ، يا أرض كوني بدون اختيار له ، لكن تجلى الحق على الانسان من صفات اللطف والرحمة والمنة والعطف ، فلما تجلى بهذه الرحمة والمنة والعطف لم يشهد جبروته لو أنه شهد الجبروت كان يتضاءل ولا يتكبر أبدا ولذلك تجد مثلا المطايا . . انسان عنده مطايا كثيرة . . المطية هذه النهارده ساعملها ركوبة يعني أعمل لها سرجا ولجاما من فضة . وهذه أجعلها تحمل السباخ والقمامة ، ولا تقل ليه عملت، هذا و . . لأنها لم تشاهد من مظهرية الحق عليها الا صفة الجبروت كن فيكون . . لكن الانسان شهد صفات الرحمة ، وصفات المحبة وصفات العطف فلم يشهد صفة الجبروت فيه ، فلما لم يشهد صفة الجبروت ظن أنه كبير فيتعالى ، فأيضا عندما يتعالى لأنه لا يرى أكبر منه ، ولذلك عندما تجد انسانا متعاليا على قوم لأنه له سمة وله بدلة وهيئة ممتازة عن الآخرين ، ثم يدخل عليهم انسان أرفع منه في هذه الصفة ، ماذا يكون موقفه ؟ بعد ما يكون شامخا يتضاءل يعني هذا أفلح منه . . اذن فلا يتكبر انسان على انسان ، الا لأنه لم يشهد في الوجود مظهرا أكبر منه ولو أن المؤمن شهد الوجود الأكبر الحق الله ، واستحضره دائما لوجد نفسه ضئيلا . . اذن فالذي يتكبر معناه أنه لا يشهد عظمة الحق ، وما دام لا يشهد عظمة الحق ، يبقى صفة التميز فيه هي التي تجعله يتكبر ، انما لو أنه شاهد

ومستحضر عظمة الحق لوجد نفسه ضئيلا أمام ذلك الحق ، ولا يستطيع أن يتكبر على أي مظهر من المظاهر . . وما دام الهه واحدا . . يبقى اله واحد بجرياته على خلقه واحدة ، وبجرياته على خلقه بحكمة . . يبقى اذن يستقبل كل مظاهر الوجود باعجاب . . يستقبل كل مظاهر الوجود برضى .

من هنا ينشأ الجمال . . الجمال تبقى المقدمات منسجمة مع النتائج . . ولذلك سميت هذه السورة سورة الجمال ، كيف لا تكون سورة الجمال وهي التي تحدد كما قال القرآن نفسه في شرح مثل هذه . . « **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان** » هو يسألنا : واحد هو عبد العشرة هذا يقول له أفعل وهذا يقول له لا تفعل ، ولا يعرف من يراضي . ويا ليت الشركاء متفقون ، بل أنهم مختلفون ، لكن لو متفقين وناس طيبين لما واحد يأمره ويأمر الثاني يسكت . . عبد مملوك لعشرة ، والعشرة مختلفين هذا يقول الشرق وهذا يقول الغرب وهذا يقول له إعمل وهذا يقول له لا تعمل . . ماذا يعمل هو؟ يمزق حياته « **ورجلا سلما لرجل** » استدلال في منتهى الوضوح وفي منتهى الدقة وفي منتهى الاستيعاب . . وعندما تأتي عندي هذه الحقيقة أقول ان هذا الكون جميل وخلقه جميل ، عندما أنظر الى شيء أو مقابله لا بد أن أنظر الى دخولي أنا فيه ، انما لو تركته على مجريات حكم الله فيه يبقى جميلاً ، لكن ما يفسده ؟ حشرتي أنا فيه .

ولذلك أعجبني واحداً يقول ذهبت الى غابات كثيرة وأحراش فما وجدت فيها قذارة ، ولا وجدت فيها ريحة نتنة ، لم أجد القذارة الا حيث يوجد الانسان ، راحوا الى الفسحة وعملوا وليمة في قلب البستان تجد العظم المرمي ، وأعقاب السجاير بقية الطعام والورق فتعرف أنه جاء الى هنا انسان ، لو لم يجيء الانسان لبقيت جميلة ، حتى الحيوانات فادارة هذا نداء لهذا ، وكلها تبقى نظيفة ، لماذا ؟ لأنك لك اختيار انما ليس لك منهج ملتزم هذا لو كان لك اختيار معصوم بالمنهج كان يبقى صحيح جمال . . ولذلك كل شيء يدخل فيه الانسان على غير المنهج لا بد أن يفسده .

فاذن الكون عندما الانسان يعلم فيه أنه عبد لاله واحد ، وأن الناس جميعا سواسية لذلك الاله ، وأن ما يجري عليه من أحكام مقصودة من الحاكم الأعلى ، وأن لها حكمة سواء جهلتها أو عرفتها . . يقوم الانسان يستقبل كل مظاهر الوجود بالرضى ، فينشأ جمال

الوجود ، الذي بان للناس ، فقال ليس في الامكان أبدع مما كان يعني عندما تجد أمة متأخرة ، هذا هو الجمال ، متأخرة لأنها لم تعمل فكان المنطق الطبيعي أنها تتأخر ، يبقى هذا هو الجمال ، انما لو تقدمت وهي لم تعمل يبقى هذا عكس لقضية الجمال .[ اذن كل شيء في الوجود يعطيك جمالا ما دام ليس في الوجود الا يد الله سبحانه وتعالى ، وليس هناك اله آخر ينازعه فيها ، « لَوْ كانَ فِيهِمَا آلهةٌ إلّا اللهُ لفَسَدَتا » .]

وبعد ذلك يسميها سورة « المبرئة » مبرئة لأنها تبرىء صاحبها من الشرك ، تبرىء الذي لم يشرك من عذاب النار . . وسميت أيضا سورة « المعرفة » وما أساس المعرفة ؟ أساس المعرفة أن تعرف أنه اله واحد وتؤمن به ، وبعد ذلك تأخذ المنهج من الذي آمنت به ، منهج سليم ، صنع ذلك المنهج من خلقك خالقك يبقى ليس فيه استدراك عليه ، ولا غائب عنه جزئية ولا أي شيء .

وسورة « المعوذة » لأنها انضمت الى سورة « قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ » و « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » . . والتعويذ هذا يقتضي حاجتين : شيء تتعوذ منه لأنك خائف منه ، وشيء تتعوذ به . . أنت لما تعوذ من شيء الى شيء ، لازم تعوذ من شيء الى شيء أقوى منه ، لكأن سورة « الاخلاص » جاءت من الذي تعوذ به ، يبقى هو الاله الواحد ، وليس الذي تستعيذ منه اله ثاني يقدر يمشيه ، لا هــو الــه واحد ، ساعة تستعيذ به فلن يوجد من يستعيذ منه اله ثاني يعد له .[ يبقى أتعوذ بماذا ؟ « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » من هو رب الفلق ؟ هو الله الأحد ، يمكن هو بقي له رب وده له رب وبعد ذلك المسألة شطارة أرباب ، ان كنت أنا لست أخص واحدا وله رب أقوى من ربي ، تبقى المسألة مشكلة .]

[وتسمى سورة « المقشقشة » يعني ادخال الصحة في الشيء عندما لم يكن الجسم منسجم التكوين ، كيماويته غير منسجمة ينشأ مرض ، وكذلك عقيدتك في الوجود ، ان لم تكن فاهم العقيدة الحق في تصورك لواجد هذا الوجود ، وبعد ذلك تفسر الوجود على ضوء أن هذا كله آثار من آثار صنعته ، تبقى معتل العقيدة ، وما دام اعتلت العقيدة ، يبقى السلوك معتلا وما دام السلوك معتلا يبقى المجتمع خرب . . يبقى اذن المقشقشة يعني تعطيك الصحة في أساس تكوينك وهو العقيدة .]

سميت أيضا سورة « النجاة » والنجاة من النار وسميت سورة « النسبة » لماذا لأن عادة الناس حين يضعون الأسماء لمسمياتهم ينسبون كل مولود الى من يعرف به ، الى أبيه ، فلان بن فلان . . صحيح كلنا خلق الله ، لكن الله جعلنا شعوبا وقبائل لنتعارف ، ما معنى لنتعارف ؟ أنت أب وأنجبت ثلاثة ، هل تسميهم كلهم باسم واحد ؟ أم تسمي كل واحد باسم ؟ حتى ان كنت عندك أولاد وسميت كلهم محمد تقول محمد الصغير ومحمد الوسط ومحمد الشيخ ومحمد التاجر . . لا بد من وصف . . اذن ما دام هناك تعدد للأفراد لا بد من وجود تعدد للمسميات الدالة على الأفراد .

اذن عندما يقول ربنا « خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » ليس لكي يتمايز هذا الشعب عن ذلك ، لكن لكي يتعارفوا. وما هي فائدة التعارف ؟ علشان العمل لما ينسب يبقى ينسب الى من ؟ وما دام كل واحد عمله حينسب الى ذاته الشخصية ، يبقى كل واحد حريص أن لا يصدر عنه الا ما لا يلام عليه أو لا يعاقب بسببه . . يبقى اذن « وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقبائل لتعارفوا » وبعد ذلك قال « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » هذا هو الميزان الذي توزن به المسائل ، ليس بالشعوب ولا بالقبائل ولا بالأسماء اذن النسبة أنك تنسب الوليد الى أبيه ليتعرف به ، كأنه قطاع جديد نشأ في المجتمع نلحقه بقطاع معروف لدينا . .

كذلك قد تكون النسبة للتعرف بما هو أشهر ، من الجائز أنك تعرف الولد الصغير الذي ليس له متعلقات في الحياة الى أبيه ، نقول محمد بن كذا . . لكن من الجائز أن هذا الولد يبقى له شهرة فيما بعد وأبوه خامل بالنسبة اليه ، تقول : فلان هذا أبو فلان . . اذن مرة النسبة التي تعرف الشخص قد تكون بأبيه لأنه ليس له متعلقات في الحياة يشهر بها الا أبوه ، وبعدين قد توجد له متعلقات أخرى بحيث يصبح الأب نفسه يتعرف به . . ولذلك قالوا :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمري ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذي شرف
كما علت برسول الله عدنان

اذن فالنسبة مرة تكون الى الأب ومرة تكون الى الابن . .

الرسول صلى الله عليه وسلم ، سماها سورة « النسبة » قد يكون ذلك لموافقة سؤال السائل ، أو طلب الطالب . . لأنه طبعا أسباب نزول هذه السورة الروايات فيها كثيرة ، ولا مانع أن تتعدد الأسباب ، مثلا عامر بن الطفيل ندبته قريش الى أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أسئلة ، وقال له أنت شققت عصانا ، يعني فرقت كلمتنا ، يقال فلان شق عصا ، يعني فرق الكلمة ، وسببت آلهتنا ، وتركت دين آبائك ، فان كنت فقيرا أغنيناك ، وان كنت مجنونا داويناك، وان كنت قد هويت امرأة زوجناكها فقال صلى الله عليه وسلم أنا لست بفقير ولا مجنون ولا هويت امرأة ، ولكني رسول الله جئتكم لأخرجكم من عبادة الأصنام الى عبادة الله . هذه مهمته . ويعدين نظرا لأنهم كانوا يعبدون حجرا ويعبدون شجرا ، فتجمعوا لمعبودهم قالوا له : لماذا أنت غير راض عن الحجارة والأشجار ؟ قل لنا رأيك ما هو ؟ . . ذهب أو فضة أو حديد أو خشب . . وبعد ذلك قالوا : انسب لنا ربك ، يعني على النسبة المعروفة لهم فقال : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » جاء لهم النسبة تفاهما الأثنين « لم يلد ولم يولد ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » لها اسم آخر اسمها سورة « نور القرآن » . . القرآن نفسه نور ، هات نور النور قال لأن النور هذا في الحقيقة إن ذاته لا ترى ، انما ترى به الأشياء ، النور هو ذاته لا يرى ، وانما ترى به الأشياء ، فلكي ترى النور لا بد أن تأتي له بنور أقوى منه لكي يبان النور من النور أنا لا أرى النوز ، انما أرى به الأشياء ، فلكي ترى النور لا بد أن تجعل النور الذي رأيت به الأشياء الدنيا ، شيء تجيب له نور بينه هو . . يبقى القرآن نوراً لأنه يضع المنهج المستضيء الذي اذا سلكه الانسان يسير على بصيرة ، فكأن القرآن كله منور مشرق ، لكن النور بتاع ذلك النور سورة الاخلاص لأنها هي التي تربي العقيدة التي تأخذ منها المنهج . . يبقى اذن لماذا يكون القرآن نور « جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ » لأن السائر في الظلام يتخبط لكن السائر في النور يسير على هدى ، فكأن القرآن جاء بالمنهج والسبيل والصراط المتسقيم ومبينها ، لكن هذا النور وهو بيان المنهج له نور ، ما هو هذا النور ؟ هو « قل هو الله أحد » لأنني آخذ المنهج بثقة وأن هذا هو المنهج الصح ، والصراط المستقيم .

سميت سورة الولاية .. وما معنى الولاية ؟.. هناك الولاية لله الحق .. الولاية النصرة ، يعني من أراد له ناصرا ، فهو الله الأحد ، ان أردت ناصرا لك في أي أمر ، فهو الله الأحد .. يبقى لا تتوزع لأنك لو توزعت ستذهب الى غير موضوع .. « لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » .. يبقى اذن ان كنت تريد النصرة الحقيقية لا بد أن تكون مع ذلك الاله الواحد .

بعد ذلك نأتي الى عناصر السورة ، نجدها مركبة من أمر هو « قل » .. وبعد ذلك ضمير الغائب الذي يقولون عليه « هو » وبعدين لفظ الجلالة « الله » وبعدين « أحد » وبعدين « الصمد » « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .. يبقى كم عنصر فيها ؟.. قل ، وهو الله ، واحد وصمد ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .. يبقى ثمانية كلمة « قل » هذه . قلنا انك اذا استقبلت ممن يأمرك وهو عال عنك كلمة قل كذا ، يبقى كان يكفيك أن تقول مقول القول ، لما تقول لي اذهب الى فلان وقل له كذا ، هو لا يذهب ويقول لك قل كذا ، هو يقول لك مقول القول فقط .. اذن المطلوب حين يبلغ انما يبلغ مقول القول ، لا القول ، لكن اسلوب القرآن غير هذا ، يقول « قل يا أيها الكافرون » .. فكأن الرسول لا تصرف له في شيء مطلقا في هذه المسألة لا تلوموني ، أنا مستقبل هذا الكلام من الله ، ولذلك أنا أقول لكم الأمر الذي وجهه لي وهو قل هكذا .

يبقى اذن الاحتفاظ في النسق القرآني بقول الحق في كثير من الأحكام قل دليل على أن الرسول ملتقي ذلك القول تلقيا لفظيا . يعني ليس تلقي معنى ، ليس نفثا في الروع كالحديث .. لا .. حتى أن اللفظ الذي أمرني الله به هو هذا قل « قل » .

ولذلك تجد في « قل » هذه في القرآن بعض العجائب ، مثلا عندما يقول الحق سبحانه وتعالى للرسول عليه الصلاة والسلام « ويسألونك عن الخمر والميسر » ..

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ » .. « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ » .. « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ » .. « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ » .. « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا » .. كل سؤال يطرحه ربنا نجد أن الرسول تلقى الجواب من الله بـ « قل » « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى » ..

كأن المسألة ليس فيها اجتهاد لبشر ، هو الذي قال هكذا . . تقول ازاي . . والله لا نعرف . . « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ » مرة يقول « قُلِ الْعَفْوَ » . . « قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ » . . « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ » . . اذن الرسول أخذ الأمر التكليفي بـ « قل » وجاء مقول القول .

لكن يلاحظ أنه عند قوله « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ » الوحيدة في القرآن قال « فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً » قل بدون فاء لكن هذه قل مع ورود الفاء فقل ينسفها ربي نسفا هنا تجد أن هناك أسئلة سألها رسول الله وأجابه الله عقب السؤال ، وفيه سؤال ، قال له ستسأل هذا السؤال . . يعني قبل أن يسأل ، فكأن الفاء دلت على أن ذلك السؤال لم يسأل قبل الجواب ، ولكن ذلك رصيد من الله قاله اذا سئلت فقل ، يبقى الفاء دلت على أن فيه شرطا مقدماً . . يعني « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً » . . يعني لم يسألوك الآن ، وانما يسألونك ، وقلنا إن الاخبارات عن شيء مستقبل ممن يملك الا بفعله اعجاز ، يعني كان يقدروا الا يسألوه عن الجبال . . طيب لن نسأله لما نشوف حيبقى يجاوب « فقل ينسفها ربي » سيجاوب من ؟ . . لكنهم سألوا مع أن أكثرهم معارضون، والمعارض كان عنده فرصة أن يكذب ، يقول ربنا قال كذا ولم يحصل ، ومع ذلك سأل ، مثلما قال « سيقول السفهاء من الناس » وربنا استهاجهم وقال « السفهاء » لكي لما يهيجهم يقوموا يجبوا إن كانوا يقدرون أن يكذبوا كذبوا ، كان يقدر اليهود ما دام قال « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ » كانوا يقدرون الا يسألوا ، ولا يقولوا ما ولاهم عن قبلتهم وينتظروا مدة ويقولون القرآن بتاعهم قال « سيقول السفهاء » واحنا لا قلنا ولا عملنا . . لكن مع هذا وربنا سماهم سفهاء ، هم حريصون على أن يكذبوا محمدا ، من غبائهم قالوا « مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » في أمر كانوا يختارون فيه أن لا يقولوا .

وآية أخرى في القرآن خالفت النسق لكن من طريق آخر . . قل جوابا ليسألونك في القرآن بـ « قل » وكل قل بغير فاء الا « فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً » الا سؤال واحد ليس فيه الفاء ولا قل . « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ » . . لم يقل فقل إني قريب ، لأن السؤال عن المعبود يريد لحمل في العابد للمعبود مباشرة ، فكأن بمجرد سؤالهم يكون منه

الجواب « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي » . . لم يقل فقل وانما قال « فإني قريب » بمجرد السؤال أنا قريب . . يبقى اذن كل سؤال في القرآن أجيب عنه « قل » بغير فاء الا « فقل ينسفها » . . وآية واحدة وردت بدون قل لماذا ؟ التي تحقق المعنى التقاء العابد بالمعبود .

هذا هو معنى « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » . . هو مثلما يقولون في النحو ، بما نعرف أن هناك شيء اسمه ضمير الغيبة ، عندنا الضمائر ، ضمير غيبة ، وضمير تكلم ، وضمير خطاب . . الغيبة يعني شيء غائب عني ، وبعدين أقول هو هي ، هما ، هن كل هذه أشياء غيبية . . وبعدين المخاطب نقول : أنت ، أنتما ، أنتن . . المتكلم أنا ، نحن . . اذن الضمائر عندنا ثلاثة أنواع : غائب ومتكلم ومخاطب . . أما قرينة التكلم فالمتكلم ، عندما تقول أنا أفعل كذا ، لا يقول لك أحد أنت من لأنه ليس مع العين عين ، اذ قرينتها التكلم . . وعندما تخاطب أحدا تقول له أنت قرينتها الخطاب . .التكلم المتكلم هو الذي يقول ، والمخاطب لكن هو ما قرينه معرفتها قرينة تعريفها على معرفة كيف ؟ مع أن الضمير من المعارف ، لكن هو من المبهمات ، ولذلك قال ضمير الغائب هو يريد شيئا لتدلك على ما هو مدلول هو ، ونسميها مرجع الضمير . . تبقى هو لا تقال الا اذا كان لها مرجع . . أنا لقيت فلانا بالأمس وقال له هو كذا كذا . . اذن لا بد لضمير الغيبة لأنه مبهم من قرينة تدل على المطلوب منه .

ولقد تعرضنا قبل ذلك لهذه النقطة وقلنا إن ضمير الغيبة عندما يعود على المرجع مرة يعود على نفس المرجع ويبقى المراد به نفس مرجعه . . تقول مثلا : لقيت زيدا فأكرمته . . من الذي أكرمته ؟ هو نفس زيد هذا . . وتقول مثلا : تصدقت بدرهم ونصفه . . نصف من ؟ هل أخذت الدرهم الذي تصدقت به وقسمته نصفين وتصدقت بنصفه ؟ . الدرهم الذي تصدقت به ذهب . . فلما أقول ونصف فالدرهم السابق ليس له دعوة يبقى نصف مثله ، يعني درهم أخذت نصفه وتصدقت به . . اذن مرة يعود الضمير على نفس المرجع : ومرة يرد على جزء المرجع ، أو مثل المرجع . . قلنا في قوله سبحانه وتعالى « وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ » . . عمر من ؟ المعمر . . بقي واحد معمر له مائة سنة ، نقول ربنا يقدر يموته اذن . . استحالة بقي معمر خلاص . . « وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ » . . ليس عمر المعمر ، لأن هذه استحالة ما دام سنه بقي مائة سنة

نقول ربنا يقدر يموته وسنه عشر سنوات لا يمكن ، يبقى لا يعود على المرجع ، وانما يعود على جزء المرجع ، ما هو جزء المرجع ؟ لأن المرجع قد يكون مكونا من أشياء . . ما معنى معمر ؟ ذات ثبت لها التعمير . . ما معنى قائم ؟ ذات ثبت لها القيام . . فالمعمر هذه ذات وثبت لها التعمير . . فلما يقول « وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ » ليس من عمر الوصف ، من صفات فقط ، فكأن فيه ذاتين : ذات ثبت لها التعمير ، وذات لم يثبت لها التعمير ، فرجع الضمير على جزء مدلوله .

عندما يقول « قل هو » تقول هو من دون أن يكون هناك مرجع . . لا نعرف ما هو مدلولها من دون مرجع . فكأن اذا أطلقت هو لا يوجد لها الا مرجع واحد . . هو الله . . فكأن هو هذه مرجعها الايمان واليقين بأنه الله الموجود . . ومعنى هو الله . . كأن الحقيقة والحال والشأن هو الله . . فإنك عندما تقول هو وحدها ، يبقى يجب ألا تنصرف الى موجود آخر مع الله . . ومعنى هذا أنه أعرف المعارف ، ولذلك قال : أعرف المعارف الضمير ، لكن بعد اسم من ؟ بعد اسم الجلالة . . يبقى لفظ الجلالة أعرف المعارف . . فاذا قلت هو ولم يوجد مرجع يبقى ليس هناك الا الحق سبحانه وتعالى . . وأيضا فالحق غيب ، ولكنه غيب وصل بآثاره الى مرتبة الشهود ، فقط عندما تقول هو ، تقول أن القضية في ذاتها أن الله أحد ، ولذلك سموه ضمير الشأن ، أو ضمير القصة ، أو ضمير الحالة ، يعني الحال ان الله أحد قلت به أو لم تقل . . مثلما قلنا الله واحد ، وحد أم لم توحد . . فكأنه يقول : هو الذي هو ضمير الغيب ليدل على أن الله غيب . . لماذا غيب ؟ لأنه هو نور ، والنور ترى به الأشياء ، ولكن لا يرى هو حتى يأتي نور فوق يجعله هو المرئي ولا نور فوقه . . يبقى القضية الطبيعية أن لا نرى الله . . لو كان الها يدرك لما استحق أن يكون الها . . لأن الادراك لون من الاحاطة . . لأن مثلا اذا جئت بتمرين هندسة ، أو معادلة جبر . . وبعد ذلك يقول لك انسان حلها كذا . . معنى حلها ، يعني دخل حل المسألة في مقدور الحال، لكن عندما لا يعرف حلها ، تبقى لم تدخل في مقدور الحال . . فلو أن الله مدرك ، لانقلب القادر مقدورا والقادر لا ينقلب مقدورا أبدا ، لأنك لو أدركته ، يبقى دخل في نطاق قدرتك وما دام دخل في نطاق قدرتك ، يبقى صار مقدورا عليه . . يبقى لا بد من عظمته أنه لا يدرك . . يبقى كلمة هو تدل على أنه غائب . . وغيبته هي سر عظمته . . لماذا ؟ لأنه لو

كان له مشهد به وله يبقى لا يكون الها .

ولذلك قال : العجز عن الادراك . . كيف ؟ . . قلت سنأتي لطالب في الثانوي معادلة النسبية لاينشتاين . فيقول لا أعرف هذا الكلام . . يبقى فهم . : انما لو جئته مثلا بالنظرية ٢٠٠ مع أنه أخذ مائة نظرية فقط عندما ينظر الولد الذكي اليها يقول أنا لا أستطيع حلها . . لماذا ؟ لأنها ليست عندي في المقاييس التي درستها ، يبقى فاهم أم لا ؟ فاهم انما جاء واحد آخر غبي وأخذ يقول بما أن وأخذ يلخبط ليس فيها مفتاح . . الأول قال ليس لها مفتاح ، جئت بمسألة غلط لولد ليس لها مفتاح . . كل مسألة لها مفتاح ، فعندما تداري المفتاح عن الولد الذكي يقول لك هذه المسألة لا تحل . لماذا ؟ قال : لأن ليس لها مفتاح . . واحد ثاني بقي يحل فيها عشرة أيام . . يبقى من هو الغبي ؟ الذي يحاول الحل الذي لم يحل ؟ . . الذي لم يحل . . لأنه عجز عن الادراك فدل ذلك على أنه هو الادراك بعينه . . والذي أخذ يلخبط هو الغبي . . . مثل الذي قال عندنا فن حساب الجمل . . وهو الالف بواحد والباء باثنين يعملوا حساب الجمل ويجمعوا . . فقال له أتدرسون الجبر في الأزهر قال له : نحن ندرسه كويس . . قال له كيف ؟ قال لقد دخلت عندنا العلوم الحديثة . . قال له خذ مسألة ، فحلها قال له اقتنعت ؟ . قال : اقتنعت . . قال له : عندنا جبر من نوع ثان نطلع فيه الأشخاص . . أنت تطلع من تساوي كذا . . قال : كيف ؟ قال : باخرة قامت من نابولي قاصدة الاسكندرية الساعة كذا من يوم كذا . . وفيها كذا غرفة وكذا بحار . . فما اسم قبطانها ؟ . . اذن لو أن واحدا ذكيا قال له : هذا غير ممكن ، هذه ليس لها مفتاح . . يبقى فهم أم لم يفهم ؟ . . يبقى العجز عن الادراك يكون ادراكا . . فالذي يعتقد أن ربه لا يمكن أن يدرك أبدا يبقى هذا فهم ربنا أم لم يفهم ؟ . . يبقى فهم . . ومن يحاول تقول له أنك لم تفهم ربنا . .

اذن فكلمة هو ، ضمير غيب دل على أن الحق باطن في كونه وما ظهر من كونه في أسبابه هو من أثره فهو ظاهر بما خلق من أسباب ، وهو باطن بما له من ذات . . وبطونه سر عظمة كونه الها . . لأنه لو لم يكن باطناً ، ولو لم يكن غيبا ، لخضع لمقدرات ومدركات البشر ، وما دام خضع لمدركات البشر ، يبقى لا ينفع أن يكون الها ، لأنه بعد أن كان قادرا ، أصبح مقدورا عليه . .

لقد انتهينا إلى معرفة موطن الدليل في استهلال السورة . وقلنا أن ذلك دليل لا بد له من مرجع . ولكن لما كان الحق سبحانه وتعالى غيباً لا يدرك إدراكه يناقض الوهيته ، لأن الإدراك لون من الإحاطة ، ومن القدرة للمدرك على المدرك ولا يمكن أن ينقلب القادر مقدوراً أبداً . لذلك كان من عظمة الحق أن يكون غيباً عن الخلق . فإذا ما قيل « هو » يجب أن ينصرف الذهن إلى أنه لا يوجد وجود مطلق يرجع عليه لفظ « هو » إلا الله ، فكأنك إذا قلت « هو » تعين أنه لا يعود إلا الله ، لأنه هو الوجود المطلق لذاته .

وبعد ذلك قلنا إن الله سبحانه وتعالى حينما قال « قل هو » قال « الله أحد » العلماء حينما تكلموا عن عود ضمير الغيبة الى متأخر مع أنه يجب أن يعود الى متقدم ، لم يلحظوا أن لفظ « هو » يجب أن يكون حين اطلاقه منصرفا على الحق الذي لا يغيب ابدا وحينئذ لا يقال ان الضمير عاد على متأخر فاحتاجوا أن يقولوا إن الضمير إنما هو ضمير الحال أو ضمير القصة ، أو ضمير الشأن فما معنى ضمير الحال ؟ وضمير القصة ؟ وضمير الشأن ؟ فكأن الحق يقول : الشأن والقصة ، والحال ، أن الله أحد ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها ، فليست أحدية الله هنا بأن يعتقدها المعتقد بأنه أحد ، فهو أحد اعتقدت ذلك، أم لم تعتقده فكأن الحال أن الله أحد . . فمن اعتقد وآمن بها ، فقد وافق الحق وأثيب ، ومن لم يعتقدها ، فالحق باق لا ينقص بعدم اعتقاده .

اذن فالله أحد ، هي التي تشرحها آية « شهد الله أنه لا اله الا هو » وما دام الله قد شهد أنه لا اله الا هو ، وهي شهادة الذات للذات ، اذن فشهادة الناس لا تثبتها وانما تلتقي معها ، وهذا هو معنى ضمير الحال ، وضمير الشأن ، وضمير القصة .

وقلنا سابقا أن الله هو علم على واجب الوجود . والعلم حين يدل على مسماه ليس له معنى الا الدلالة على المسمى . فاذا كان للمسمى صفات قبل صفات ، فكأن الصفة وصف يطرأ على المسمى ، فاذا قيل « الله أحد » الله عزيز . الله قدير ، فكأن الصفة انما ذهبت الى ذات ، الذات يؤديها ويشخصها لفظ الله ولفظ الله هذا لم نعلمه بالعقل لأن وضع الأسماء لمسمياتها ، ليس من عمل العقل . فالعقل قد يدرك وجود وراء ذلك الكون

هو الذي خلقه ، وهو الذي يربيه ، الا أن ادراك العقل لذلك الوجود لا يعطيه الاسم ، لأن الاسم تواضع ، فلا بد اذن من مبلغ أن اسم القوة التي اهتدى العقل الى ضرورة وجودها لذلك الكون اسمها الله ، وقلنا ما دام الاسم الذي يدل على المسمى ليس من منطقة العقل ، بل لا بد أن يكون منطقة البلاغ ، فمن الذي بلغنا أن اسم القوة هو الله ؟ اذن لا بد من واسطة تبلغنا أن اسم القوة التي اعتقدت وجودها ضرورة لذلك الكون اسمها الله .

اذن فلفظ الله حين يكون علما على واجب الوجود ، يستدعي مبلغا به . والمبلغ لا يضع فيه شيئا ، وانما يبلغ عمن جعل لنفسه ذلك الاسم . اذن فلفظ الله حينما نقول أنه علم على واجب الوجود ، يقتضي مبلغا هو الرسول ويقتضي أن الرسول أيضا لم يضعه ، وانما جعله الله علما لذاته . وما دام الحق قد جعل ذلك اللفظ علما لذاته فوجب أن يكون ذلك العلم للذات منفردا كالذات ، بخلاف الصفة . فمثلا يقال الانسان حي ، والله حي ، والانسان قادر وله قدرة ، والله قادر وله قدرة . الانسان حليم والله حليم . تلك مرتبة الصفات ، ولكنها صفات تقال بالتشكيك . ومعنى التشكيك أن الصفة قد يكون اسمها واحدا ، ولكن معناها في مسمياتها مختلف . لكن اسم الموضوع علما على واجب الوجود ، يجب أن يكون منفردا كالذات ، بحيث لا يوجد اسم آخر يطلق على مسمى آخر ، كما أنه لم توجد ذات أخرى .

اذن يقتضي هنا أن يكون اسم الله ، متحدى به أيضا ، ومعنى متحدى به أن البشر تواضعوا على أن يضعوا اسماء للمسميات . اذن فوضع أسماء للمسميات أمر ليس جديدا على البشر . فهم يضعون كل يوم أسماء للمسميات التي تجد . فاذا كانوا يضعون أسماء للمسميات ولا حجر على الوضع . فلماذا لم نجد لفظ [الله] قد وضعه واضع على مسمى آخر غير الله .

ذلك لون من إعجاز آخر . ولذلك يقول الحق « **هل تعلم له سميا** » . يعني انظر في الوجود فهل وجدت سميا لله ؟ هل وجدت شيئا اسمه الله ، كما أن الله وضع لذاته علما هو الله ؟ الجواب : لا . . والناس الذين ألفوا أن يضعوا الأسماء لمسمياتهم نوعان : اما مؤمنون بذلك الاله ، وإما غير مؤمنين . أما المؤمن فما دام الله قد وضع لذاته علما هو

الله ، فلا يجترىء أحد من المؤمنين به أن يأخذ ذلك العلم ليضعه على غير الله ، مهابة وتقديسا . ولكن الذين يكفرون بالله ، ولا يؤمنون به ، ويحادونه ويلحدون فيه ، لماذا لم يجترئوا على أن يضعوا لفظ الله لأي مسمى من مسمياتهم ؟ أمران : الأمر الأول اما أنهم مصروفون بالقدرة القاهرة ، في أنهم لا يضعون ذلك الاسم . وما داموا مصروفين بقوة قاهرة على شيء لهم فيه اختيار ، ولهم في أمثاله قدرة بأن يضعوا أي اسم لأي مسمى ، ما الذي حجبهم وحجزهم ، ومنعهم ، أن يأخذوا ذلك الاسم ليضعوه ولو تحديا للمؤمنين لذلك الله ؟ كان يجب على المنكرين لله ، الذين لا يؤمنون به ، الذين يتحدون ويقولون ان العالم خلق بالصدفة ، العالم خلق بالطبيعة ، الله هذه كلمة خرافية كل هذا ، يتحدون المؤمنين ، فلو أنهم كانوا صادقين في التحدي ، لتحدوا وقالوا : أنتم تقولون هذا اسم الله فسنأخذ هذا الاسم ونضعه على أي شيء . ما اجترأ واحد من الملاحدة ولا من الكافرين ، ولا من المكذبين ، أن يأخذ ذلك الاسم ليضعه على شيء آخر .

أمران : إما أن يكونوا ارادوا ولم يمكنوا بصفة القهر التي لله ، فلم يجعلهم يتجرأون على أن يضعوا اسم الله على أي شيء غير الله . وإما أنهم غير واثقين بكفرهم ، بمعنى أن الكفر ليس في وجدانهم ، ولا في طبيعتهم ، ولا متيقنين بالكفر . . فهم حين يقبلون على أن يأخذوا لفظ الله ليضعوه ، يرجعون فيقولوا : لا . . المسألة هذه يمكن صحيحة واذا وضعته يمكن يحصل لي شيء ، ولو كانوا واثقين من كفرهم ومتأكدين من أنه لا اله ، لما جبنوا أن يضعوا ذلك الاسم على أي مسمى ومن الجائز أن يكون ذلك قبل وجود التحدي . فاذا نزل القرآن وقال هل تعلم له سميا ، والقرآن عورض في كثير من الأشياء فلماذا لم يعارضوا القرآن ويقولوا « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » لم تعلم له سميا فيما سبق لم نتنبه الى أن نضع ذلك الاسم ، ولكن بعد اطلاق التحدي : ما الذي جعلهم لا يطلقون ذلك الاسم على ذلك المسمى ؟ انها اما القوة القاهرة الصارمة التي حجزت الألسن ، وحجزت الواضعين على أن يأخذوا لفظ الله الذي وضعه الحق سبحانه وتعالى علما لذاته ، جعل القوة القاهرة تحجزهم أن يعبثوا ذلك العبث . واما أن يكونوا هم أنفسهم غير واثقين من كفرهم . فهم أيضا يتهيبون ويخافون ولو كانوا واثقين من كفرهم لما تهيبوا ، ولما تخوفوا .

وأيضا الذين يبحثون في اللغة ، يجدون أن المعاني تأتي أولا على البال ، ثم يوضع لها

اللفظ الذي يؤديها . فلا يوضع لفظ من الألفاظ في اللغة الا اذا اختمر المعنى أولا في الذهن فالمعاني التي لا اختمار لها في الذهن لا توضع في اللغة لها أسماء ولذلك قلنا سابقا إن الحق حينما يعرض أمور الجنة ، ما دامت الجنة معانيها ومدلولاتها لم ترها عين ، ولم تسمعها اذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، وما دام الأمر كذلك ، كيف يوجد في لغة الناس ألفاظا تؤدي معنى ذلك الذي لم تره عين ، ولم تسمعه اذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، وقاعدة اللغة أن اللفظ انما يوضع حين يختمر المعنى أولا في الذهن . وهم لا يعرفون المعاني التي في الجنة ، فكيف توضع لها في لغة الناس ألفاظا ، اذن لا يمكن أن يكون هناك ألفاظ تؤدي نعيم الجنة . ولذلك يقول الرسول « فيها ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » ما دام لا خطر على قلب بشر اذن من المحال أن توضع أسماء لنعيم الجنة .

ولذلك فان الحق عندما يعطينا صورة ، لا يقول إنني أعطيك صورة الجنة ، لأن ليس في لغتك ألفاظ تؤدي هذه المعاني ، لأن الألفاظ في لغتك انما وضعت لمعان مختمرة في ذهنك ، وهذه معان لا تعرفها . ولذلك يقول « مثل الجنة التي وعد المتقون » حينما أقول لك شيئا أقول لك « مثل » انما ليس الحقيقة . فاذا كانت الألفاظ في اللغة ، في كل لغة ، لغة المؤمنين ، ولغة الكافرين ، لا توضع الا اذا وجد المعنى أولا ، فوضع له اللفظ ليدل عليه ، فمن أين جاءت في اللغة كلمة [ الله ] ما دام لا يوجد لفظ في اللغة الا اذا كان المعنى وجد أولاً ثم وجد له اللفظ ؟ إذن وجود كلمة [الله] في اللغة ، يدل على أن الذهن عرفها قبل أن يعرف الاسم . وما دام الذهن عرفها قبل أن يعرف الاسم يبقى لازم نفهم أن أصل الانسان الأول الذي خلق من الله باديء ذي بدء ، تلقى العهد من الله وعرفه الله اسمه ، فنقله الانسان الأول الى نسله ، والنسل الى نسله ، فوجد اللفظ في اللغة .

اذن فالذي يقول الله غير موجود ، نقول له : هنا موضوع ، وهنا محمول ، أو هنا مبتدأ وهنا خبر ، المبتدأ ينقض الخبر . المبتدأ [ الله ] ينقض كلمة الخبر وهي ( غير موجود ) . لأنه لما نقول الله غير موجود . فكيف جاءت [ الله ] هذه في لغة الناس ، ان لم يكن لها معنى مسبق ؟ اذن وجود كلمة [ الله ] تنفي أن نقول : غير موجود ما دام قلت [ الله ] ووجد لفظ في اللغة نقول له : أنت كاذب . يبقى المبتدأ نقض الخبر ، هذا ما يؤدي لفظ الجلالة .

وبعد ذلك تأتي صفات نسميها أيضا أسماء . متى تنقل الصفة الى اسم ؟ تنقل الصفة الى اسم اذا بلغ الكمال في الصفة مبلغا بحيث اذا أطلق انصرفت الى الله . فاذا قلت فلانا غني . . يصح . . رأيت زيدا الغني يصح . . لكن اذا أفردت كلمة ( الغني ) فقط تنصرف الى الكمال المطلق في الغنى . . فحين تنصرف كلمة الوصف في اطلاقها الى الكمال المطلق يبقى مدلولها ( الله ) ، ما دام مدلولها ( الله ) يبقى انتقلت من باب الصفة الى باب الأسم ولذلك يقول « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » . . ما معنى الأسماء ؟ الصفات اذا قلت ( الحي ) على اطلاقه ينصرف الى الله، الغني على اطلاقه ينصرف الى الله ولكن من الجائز أن تصف انسانا مذكورا بغنى . أن تصف انسانا مذكورا بحياة . أن تصفه بقدرة أما اذا أطلق اللفظ فانه ينصرف الى الكمال للأطلق في الصفة . ومن هنا تكون الصفة إسما .

صفات الحق سبحانه وتعالى : أو اسماؤه الحسنى ، قلنا سابقا ، انها تنقسم قسمين : صفة للذات ، وصفة للفعل . ما الفرق بين صفة الذات وصفة الفعل ؟ صفة الذات هي التي لا يوجد لها مقابل في الأسماء . وصفة الفعل هي التي يوجد لها مقابل . فاذا قلت الله حي . تبقى ( حي ) صفة ذات . انما الله محيي . تبقى صفة فعل . لأن ( محيي ) يوجد مقابلها وهو ( مميت ) . لكن ( حي ) لا يوجد مقابلها وهو ( ميت ) . فاذا رأيت الصفة لا مقابل لها فاعلم انها صفة الذات واذا رأيت الصفة لها مقابل فاعلم أنها من صفة الفعل فتقول : الله عزيز تبقى صفة ذات . انما الله معز . ما دام ( معز ) يقتضي أن يوجد ( مذل ) . . ( محيي ) يقتضي أن يكون ( مميت ) . . ( قابض ) يقتضي أن يكون ( باسط ) ( خافض ) يقتضي أن يكون ( رافع ) . . لأن معنى الصفة في متعلق فعله ، ليس في ذاته . عزيز هو في ذاته ، وبعد ذلك يخلع العزة على من يشاء ويعطي الذلة لمن يشاء العزة على من يشاء ويعطي الذلة لمن يشاء . يبقى اذن هذه صفة ذات وهذه صفة فعل .

فاذا جاء الحق ليقول : [ الله ] ، أي علم واجب الوجود ، ويعطينا الحق وصفا هذا الوصف لا بد أن يكون قد وقع فيه خلاف . فلما يقول : « **الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد** » فكأن حصل انحراف في نقل لفظ الجلالة على أشياء ليست أحداً . وعلى شيء ليس صمدا ، وعلى شيء ولد ، وعلى شيء له نظير . فيريد الحق أن يعدل .

صحيح لفظ الله لم يطلق على شيء ، ما دام يقول الله أحد . فكان ذلك تثبيتاً لعقيدة . هذه العقيدة معناها أنها خولفت . . فكأن هناك عقولاً اعتقدت أن الله ليس أحدا ، عقول اعتقدت أن الله ليس صمدا ، عقول اعتقدت أن الله ولد وعقول اعتقدت أن هناك كفؤا لله فكأن لفظ الجلالة لا نزاع فيه ، ولكن النزاع فيما يأتي بعده خبر للفظ الجلالة .

فكلمة ( أحد ) هذه اذا نظرنا اليها وجدناها تتعلق لا بكونه واحدا ، فان الشيء قد يكون واحدا، ولكنك اذا نظرت الى تركيبه وجدته مركبا من أشياء. فكلمة(أحد) تنفي ذلك التركيب ، قد يكون الشيء في ذاته واحدا ، لا يوجد فرد ثان مثله ، انما هو في ذاته مركب من أشياء وما دام الشيء مركبا من أشياء ، يبقى الكل محتاج لأجزائه ، وكل جزء محتاج الى أن ينضم اليه الجزء ، فيبقى فيه احتياج في الاسم ، اذن فلما نقول واحد معناه نفى أن يكون هناك واحد مثله ، انما لم ينف عنه أنه هو في ذاته مركب .

فاذن كلمة الأحد تعطي كلمة واحد ، وواحد غير مركب ، يمكن سبق أننا تعرضنا لشيء اسمه الكل عند المناطقة الفلاسفة ، الكل أو الكلي ، يقابل الكل الجزء . ويقابل الكلي الجزئي . ما الفرق بين الكل والكلي ؟ والجزء والجزئي ؟ الكل يقال على كثيرين ، ولكن متفقين في الحقيقة . كلمة انسان ، كل تقال على من يحمل زيد وعمرو ومحمد وخالد وبكر ، حقيقتهم متفقة ، حيوان ناطق أم لا ؟ الحقيقة متفقة . . يعني الحقيقة في زيد ، هي الحقيقة في عمرو ، هي الحقيقة في محمد . اذن فهؤلاء أفراد لكل . فكلمة انسان كل ما معنى كل ؟ يطلق على كثيرين . انما الكثرة التي يطلق عليها ذلك الكل متفقين في حقيقة التكوين . وكيف تعرف الإتفاق في حقيقة التكوين ؟ بأن تجعل أحدهما موضوعا والآخر محمولا . اذا قلت زيد انسان . القضية صح أم لا ؟ عمرو انسان . القضية صح أم لا ؟ . اذن فالكل يطلق على أفراد ، الأفراد متساوون في الحقيقة ، وكل فرد يؤدي معنى الكل ، اذن ليس الانسان هو زيد وعمرو وبكر وخالد مجتمعين ، كل واحد منهم انسان . يبقى هذا اسمه كل .

ولكن ( الكلي ) يتفق مع الكل في إنه يطلق على كثيرين صحيح ، ولكن مختلفين في الحقيقة . قلت مثلا : الكرسي ، كلمة الكرسي ( كلي ) لماذا ؟ لأنه يطلق على أشياء كثيرة . . يطلق على الخشب ، وعلى المسامير ، وعلى الجلد ، وعلى البويا التي فيه ، وعلى

الغراء الذي يمسكه . اذن كلمة كرسي ( كلي ) وأطلق على أشياء كثيرة الا أن الأشياء الكثيرة ليست متفقة في الحقيقة . الخشب غير المسمار ، غير الجلد ، غير البويا ، غير الغراء . ولا يصح أن تقول : الخشب كرسي ، كما قلت زيد انسان . اذن فالكلي يطلق على أشياء متعددة صحيح الا أن أفرادها غير متفقة في الحقيقة . أفراد تجمعت فتكون الكرسي .

فاذا قلنا ( واحد ) هل هو ( كل ) أو ( كلي ) ؟ نقول : واحد ( كل ) . لكن لا فرد له الا الله . ولذلك يصح أنه يجيء للغير . لقيت رجلا واحدا . . واحد وعشرين يستعمل في العدد مثلا . اذن فيه أفراد ، الا أن ميزة اطلاقه على الحق أنه لم يعد كلا يطلق على أفراد متفقين في الحقيقة . فاذا كان واحدا لا يقتضي أن يكون كليا . هو واحد صحيح ولكن يصح أنه مركب من أشياء . التركيب هذا هو الممتنع . اذن فكلمة ( واحد ) غير كلمة ( أحد ) . . ( أحد ) تقول ليس كليا . و ( واحد ) لكن ليس كلا.. معنى واحد ليس كلا واحد ليس كليا . وجاءت هذه لماذا ؟ أعطانا الحق سبحانه وتعالى في هذه السورة الردود على النحل والمذاهب التي بعضها يقول : الأب والابن وروح القدس ـ هؤلاء ثلاثة ـ اله واحد . . يبقى الله ما مدلوله ؟ هو الله واحد صحيح ، لكن مكون كيف ؟ من أقانيم ما هي الأقانيم ، الأب والابن والروح القدس . يبقى تجمعت هذه وأصبحت الله . اذن فهو من ناحية ذلك واحد . هم قالوا ( واحد ) . نقول : نعم لكن ليس ( أحد ) . لماذا ؟ لأنه ما دام الأب والابن والروح القدس أجمعوا وعملوا معجنة وطلعوا لنا الله ، يبقى ليس ( أحد ) . وكلمة الأب تنقض ، لانه ساعة أن كان أبا دون ابن ليطلق عليه لفظ الله أم لا يطلق ساعة وجد الأب ولم يوجد الروح القدس ؟ لأن هذه كلها آثار منه ، الابن والروح القدس . . فالقوة أو القدرة التي جعلت الابن وخلقته . أكان يطلق عليها [ الله ] أو لا يطلق عليها أو ثلث اله ؟ اذن ما دام الابن والروح القدس موجودين بعد الأب يبقى [ الله ] ثابتة له قبل أن يوجد الابن ، قبل أن يوجد الروح القدس .

يبقى اذن وقعوا تلك الوقعة لماذا ؟ لأنهم خرجوا عن نطاق الأحدية . وان لم يخرجوا بقولهم اله واحد عن نطاق الواحدية . نقول : أنت حققت حاجة ، ولم تحقق حاجة ثانية فلما يجيء الحق سبحانه وتعالى يثبت ويقول : ما دام أحد يبني لم يلد . لماذا ؟ لأن معنى

ولد انفصل منه جزء . وما دام انفصل منه جزء . يبقى أجزاء ، ليس أحدا . ولم يولد . يبقى انفصل عن شيء ، نقول نحن رأينا في النحل أو الأديان المحرفة ، أنهم لما تكلموا ، تكلموا عن أن الله أب . قال : لا . . فاذا قالوا : أب ، وابن ، سيقولون : ولد أم يلد ؟ يبقى ولد . اذن « لم يلد » ترد على هذه « ولم يولد » ترد على ماذا ؟ لأن المعجنة التي عملوها هكذا . كيف ؟ لأننا قلنا ما دام الأب لازم يوجد قبل الابن . ما دام أب . الصفات التي خلقت وأوجدت أبنا هذه هل زادت بعد أن ضم اليه الابن والروح القدس . وأصبحت حاجة ثانية أن أصبحت حاجة ثانية أقوى من الأول ، يبقى الأول ناقص . ما كان يتأتى منه الخلق . فلما قال : اله واحد . فكأن اله واحد نشأت ممن ؟ نشأت من ثلاثة : من الاب ومن الابن ، ومن الروح القدس ، كأنه ولد من هذه الأشياء ، فكأن قولهم : الأب والابن وروح القدس اله واحد . يثبتوا فيها ماذا ؟ الوالدية والمولودية معا . الوالدية لأن فيه أب ، والمولودية لأنه نشأ من وجود ثلاثة أشياء ، أقانيم ثلاثة : أب وابن وروح قدس اله واحد . يبقى الاله تولد من ماذا ؟ من ثلاثة أشياء .

اذن قول الحق سبحانه وتعالى « لم يلد ولم يولد » تأكيد للأحدية . أما قوله « لم يلد » فنحن سمعناها انما لم نسمع منهم أنهم قالوا أن الله لم يولد . نقول كلامكم وقضيتكم تؤ ول الى هذا ، لأن ما دام تقول : الأب والابن وروح القدس اله واحد . يبقى الاله الواحد تولد من اجتماع الثلاثة . يبقى منطقكم وقولكم في الأقانيم واله واحد يدل على أنها فيها اثبات لوالدية ، واثبات لمولودية .

وبعد ذلك نقول : الوالدية تستدعي انفصال الولد منه ، والانفصال يقتضي جزء منه طلع ويستدعي وجود المجانس ، والغاية من الوالدية ، يعني يوجد ابن ماذا ؟ الابن يطلب عندنا لماذا ؟ لاستدامة الذكرى ، وللنفع لما الانسان يبلغ من الكبر ، اذن أثبتم العجز للأول حتى أوجد الثاني . لكي لما يشيخ يبقى يوجد عنده ابن . كلمة « الصمد » توسطت . فقال : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ » توسطت بين « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » لماذا ؟ لأن ما دام سينشأ والدية ومولودية كيف تنشأ ؟ الوالدية هذه كيف تنشأ ؟ من الأب ، يبقى اذن الأبنية التي نشأت من الأبوية . الصمد هو المقصود فيها . يعني لو لم يكن صمدا ومقصودا للأشياء لم تكن الأبنية تحتاج اليه في أن توجد الأبوة وتوجد البنوة .

اذن فكلمة ( صمد ) توسطت الأوصاف . وبعض العلماء يرى أن « قل هو الله أحد » قوله « الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » انما هي شرح لكلمة أحد . فما دام أحد يبقى يلزمه أن يكون صمدا . وما دام أحد يلزمه أنه « لم يلد » وما دام أحد يلزمه« لم يولد » وما دام أحد يلزمه أنه لا نظير له .

اذا جئنا بكلمة « صمد » نجد أن ألفاظ اللغة حين توضع لمعانيها ، قد يوضع اللفظ لمعنى . ثم يأتي الانتقال من معنى الى معنى ، وهو ما تسميه تاريخ الألفاظ ، ارتقاءات الألفاظ ما معنى ذلك ؟ مثلا في الفقه عندما يعرفون ( الغصب )، ما هو الغصب ؟ أخذ شيء عنوة من صاحبه ، هذا هو الغصب ، يختلف عن السرقة . لأن السرقة أخذ خفية صاحبها غير موجود انما هي غصب تجد كلمة الغصب التي قالوا عنها أخذ الشيء عنوة ليس أصلها في اللغة هذا ، وانما الأصل فيها سلخ الجلد عن الشاة الغصب هو في الأصل سلخ الجلد عن الشاة . وما دام الأشياء وملكيتها للنفس ملتصقة بها وواحد يجيء ويأخذها منها أقول لك هذا مثلما يسلخ جلده ، اذن هذا اسمه نقل للمعنى . .

هذا النقل اما أن يكون نقلا لغويا، واما أن يكون نقلاً عرفياً، نقلاً اصطلاحياً، ما معنى النقل العرفي ، والنقل الاصطلاحي ؟ إن أهل الاصطلاح أو أهل فن من الفنون يأتون الى اللغة فيأخذون منها لفظا كان موضوعا لمعنى من المعاني ، يتأتون لمناسبة بين ذلك وبين المعنى الذي أرادوه ، فيأخذون اللفظ . مثلا كلمة ( الصلاة ) ، هي في اللغة الأساسية الدعاء ، لما جاءت الهيئات المخصوصة هذه المبدوءة بالتكبير والمختومة بالتسليم . أخذ الشرع كلمة الصلاة من اللغة لتدل على ذلك المعنى الجديد بحيث اذا أطلقت في عرف الفقهاء انصرفت الى المعنى اللغوي أم الى المعنى الجديد ؟ الى المعنى الجديد . يبقى هذا اسمه العرف . . مثلا كلمة ( النحو ) في اللغة معناها القصد . فجاء أهل اللغة وأخذوا هذه الكلمة من اللغة ووضعوها الى القواعد التي تضبط أواخر الكلمة وتعرف لحالتها اعرابا وبناء وسموها كلمة النحو ، كلمة ( بلاغة ) معناها الوصول الى الشيء . علماء اللغة أخذوا هذا اللفظ ووضعوه الى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، بحيث اذا أطلق ذلك اللفظ انصرف الى المعنى الجديد ، فان أردتم عندهم أن تصرفه الى المعنى القديم ، احتاج الى قرينة ، يعني ان أخذت كلمة ( الصلاة ) وأنت تريد في عرف الفقهاء أن تستعملها في

الدعاء ، التي هي موضوعة له في اللغة . نقول : لا ، استعمال اللفظ في غير ما وضع له عند الاصطلاح ، فاذا قال الفقيه : تجوز الصلاة للمحدث . نقول : إنه قصد بالصلاة اللغوية التي هي الدعاء ، يدعو الله هو محدث . بقرينة ماذا ؟ بقرينة أن الذي قالها فقيه ، وما دام فقيه يبقى لا يقصد الصلاة التي هي الأقوال والأفعال المبدوءة بالتكبير والمختومة بالتسليم ، لأن هذه شرطها الطهارة ، يبقى تجوز الصلاة للمحدث ، انه قصد بالصلاة مطلق بعضا حين يلقاه .

ويمكن قلت لكم عن موضوع حذافة لما دخل على سيدنا عمر وقال له : كيف أصبحت كما يحيي بعضنا بعضا حين يلقاه .

قال حذافة : أصبحت أحب الفتنة . ( أنت تعرف من عمر ، عمر مد يده الى الدرة ) قال له : واكره الحق ، وأصلي بغير وضوء ولي في الأرض ما ليس لله في السماء .

سيدنا عمر جاء بالدرة وسيدفعها ليضربه ، فدخل علي بن أبي طالب وقال : ما لي أراك مغضبا يا أمير المؤمنين .

قال سألت حذافة : كيف أصبحت ؟ فقال كذا .

قال : صدق يا أمير المؤمنين .

قال : أو تقولها يا أبا الحسن ؟ .

قال : نعم ، أصبح يحب الفتنة ، يحب ماله وولده « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » اذن هو أخذ الفتنة على معنى آخر ، ويكره الحق ، يكره الموت ، ومن منا يحبه يا أمير المؤمنين ؟ . . استعدادا له ، ويصلي بغير وضوء على النبي صلى الله عليه وسلم . ( هذا هو الشاهد ) ويصلي بغير وضوء ( يعني مطلق الدعاء والصلاة على النبي ) وله في الأرض ما ليس لله في السماء : له زوجة وله ولد .

قال : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

اذن المسألة انتقلت من مدلولات الى مدلولات ، ولذلك قلنا مرة إنه لما سيدنا عمر سأل القوم الذين يجالسهم قال : أيكم يذكر الفتن التي ذكرها رسول الله قال الصحابة كلنا

يذكرها .

فظن عمر أنهم يعنون لونا من الفتنة وهو يريد نوعا آخر قال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وماله .

قالوا : نعم .

قال : لا، تلك تكفرها الصلاة ، ويكفرها الصوم . وانما أعني الفتن التي تموج كموج البحر .

فسكت القوم وبعدين حذيفة اليمانْ تقدم وقال : أنا سمعته .

اذن فاللفظ يستعمل استعمالين : استعمال في اللغة ثم ينقل نقلا آخر . فاذا ما نقل نحوا آخر عند أهل الاصطلاح . نقول : صار اذا أطلق ذلك اللفظ انصرف الى المعنى الجديد . فان أردت أن ترجعه عند أهل الاصطلاح الى المعنى الأول ، يبقى نقلت اللفظ عما وضع له وضعا ثانيا ، واحتاج الى قرين .

كلمة « الصمد » من هذا اللون . ما هو الصمد ؟ الصمد نعرفها ، المقصود . لكن هل جاء ذلك المعنى أصالة ؟ نقول : لا . . ولكنه في الأصل الشيء المصمت الذي لا جوف له . الغاب ليس له صمد . لماذا ؟ لأنهم كانوا قديما لما يجيئوا يعملوا عصي الرجل الذي يحمل الجنبتين . كانوا يعمدون الى الأشياء القوية التي لها جوف لكي تستطيع أن تتحمل النقل . اذا ذهبوا يجيئوا بأشياء لها جوف . . ولذلك كانوا حتى يسموا الجبان . البنخوب . أو يسموه البداع . مثل البوصة ، تراها سمينا انما قلبه فاض . . فكانوا حين يقصدون الأعواد لشيء ثقيل قوي يقصدون الى المصمت الجوف .

اذن فقلت كلمة ( صمد ) من المصمت الجوف ، الى القوي الذي يقصد لذات قوته ، واشتق منه فلان يصمد للشدائد، فلان صامد لكذا . اذن في الأصل هو مصمت يعني جوفه غير خال . ما دام جوفه ليس خاليا فيعمد اليه في الأشياء التي تحتاج الى قوة ، ثم تركنا هذا المعنى وأطلق لفظ الصمد على كل ما يقصد للقوة فيه .

اذن كلمة ( الصمد ) التي اختارها الحق سبحانه وتعالى تعني كلمة أنه هو الذي

يقصد اليه في الحوائج . لماذا ؟ لقوته على انفاذ المقصود من أجله . القصد هذا إما اضطراراً وإما اختيارا . اضطرارا كالأشياء المسخرة ، التي تستمد قوتها بقيومية الحق فيها ، ليس بالخلق . لأننا قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الأشياء لم يخلقها ثم انفلتت منه بل ظل مهيئا عليها . ويعطيها المدد بالقيومية . فاذا أعطاها المدد بالقيومية تبقى هي دائما قاصدة المد بها . لأن لولا القيومية تنتهي . ثم أطلقت على المقصود اختيارا أيضا ومعنى المقصود اختيارا ، أبلغ من المقصود اضطرارا . لماذا ؟ لأن المختار عنده بديلات . فهو يجد أن البديلات خانته ،والبديـلاتلا تؤدي مطلوبه . فهو اذن يلجأ الى شيء لا بديل له . حين يفزعه الخطب يصمد الى الحق سبحانه وتعالى .

ولذلك قلنا إن الانسان قد يخدع بمظاهر القوة في نفسه ، ولكنه حينما تنفض عنه أسباب القوة لا يسلم نفسه رخيصا ، بل لا بد قهرا عنه يسأل : يا رب . . يعالج والدواء والأطباء لم ينفعوا يلجأ ويقول : يا رب . . مسه الضر في البحر وليس فيه أسباب يقول : يا رب « **اذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه** » لا تسلم نفسك ، فيبقى هذا مرة يكون عن اضطرار ومرة يكون عن اختيار . فالاختيار عند المؤمن والاضطرار عند غير المؤمن .

اذن فقول الله سبحانه وتعالى « **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ** » صححت تصور العقيدة عن الحق سبحانه وتعالى ، عن القوة ، وما دام الله ، واحد ، وليس فيه غيره . والصمد المقصود في الحوائج ، وليس له كفؤ يقوم بديله . اذن يجب أن تلجأ في كل أمورك اليه . . يبقى هو لا وجود على الحقيقة الا وجوده ، ولا فاعل على الحقيقة الا فاعله . فان أردت أن تكون سليم العقيدة ، تفسر الوجود على حقيقته ، فيجب أن تعتقد أنه لا فاعل في الوجود الا الله . وما دام لا فاعل في الوجود الا الله ، يبقى الخلق كله ما عرفته وما لم تعرفه صادر عن الله ، وصادر عن الله ليس بقانون ( كن ) فقط ، وأيضا استيفاؤه بقيوميـة الله .

اذن القانون لم ينفلت من الحق . لأن من الجائز أنك تعمل صنعة ، أو تربي انسانا تربية حسنة ، ثم بعد أن يتربى ينفلت منك ، تعلمه العلم ، وبعد ذلك يصبح عالما بذاته ليس كل مسألة يجيء ويسألك فيها . تعلمه الرماية ، يصبح ويمكن يرميك .

اذن أنت عديت قوتك اليه لكن ليس عندك القوة التي تسلب منه هذه القوة حين تريد . لكن الحق على خلاف ذلك، يعطيك الخلق ويسلبه . يعطيك القوة ويسلبها . لكن العبد إذا أعطى قوة لعبد فهو حر ، يعطي أو لا يعطي . إنما حين يعطي لا يستطيع أن يسلبها . إذن فصفة القيوسية ثابتة لله سبحانه وتعالى .

الانسان يرى في الحياة قويا ، ويرى ضعيفا . ويرى عادلا ، ويرى ظالما ، ويرى شرا ويرى خيرا ، وحين يرى الشر يعرف بعض مصادر الشر ، ولا يعرف بعض المصادر ، وهبه يعرفها ، يقدر على بعضها ولا يقدر . اذن فالأغيار الملتبسة بالانسان هذه ستجعله عرضة أن يعيش في الكون هذا دائما خائف ، دائما حذر ، يخاف وهو قوي أن يضعف يخاف وهو غني أن يفتقر ، يخاف وهو صحيح أن يمرض .

اذن ما دام فيه أغيار موجودة ، ولو في الغير تعطي له صورة . فالانسان عارف أن هذه أغيار . اذن فالذي يورثه الهم ماذا ؟ ما الذي يورثه الهم ؟ الذي يورثه الهم أن يكون في مرتبة من مراتب الكمال ، ثم يخاف اما أن يترك هو الكمال أو يتركه الكمال ، والناس لا يخلو أمرهم من مؤمنين : إما أن تترك الغني ، أو الغني يتركك . غني بما يترك الغني فتموت . أو يتركك الغني فتفتقر . كذلك الصحة ، كذلك المرض ، اذن الحياة فيها أغيار كثيرة وهذه الأغيار خلقها الحق سبحانه وتعالى لترد الانسان الغافل اليه . ما دام ترد الانسان الغافل اليه ، فدائما يكون ذكر الله على باله . وما دام ذكر الله على باله ، أعداء الله من الشياطين ، ومن الخناسين والخ لا يجرؤ ون عليه . فكان من المناسب أن الحق سبحانه وتعالى ، يعطي عناصر الطمأنينة للانسان ، عناصر الطمأنينة للانسان حتى يأمن وحتى لا يخاف . حتى لا يرتعب ، وحتى لا يأخذ الحياة بهمها . نقول له : أنت لست وحدك في الوجود . الذي خلقك ورباك . أعطاك أسبابا ، وأعطاك أشياء إعمل بأسبابك وبعد ذلك اذا عزت الأسباب وزال السبب . لكن الأسباب عطاؤه ، لا تترك الأسباب وهي عطاؤه ثم تطلب ذاته . ما دام أنت لك هذا الرصيد من القوة القاهرة ، الأحد الصمد الذي « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » اذن الخلق جميعا بالنسبة اليه سواء لأنه ليس له ابن

يجامله . اذن العبد حينما يستحضر التصوير العقدي لاله ، يقوم يأخذ الأسباب ، ولا ينشغل إلّا بزوال هذه الأسباب . لأنه حينما تزول عنه الأسباب ، واثق من أن وراءه المسبب .

الانسان تصيبه أحداث . هذه الأحداث مرة تصيبه من الخارج ، ومرة تصيبه من داخله . اما التي تصيبه من الخارج فهذه مسألة ليست داخلة في نطاقه ، التي في نطاق تكليفه ، ونطاق اختياره الأشياء التي تصيبه من داخله ، يعني مثلا تلميذ أهمل في مذاكرته ، وفي حضور درسه ، وفي الاستماع الى أساتذته ، يبقى هذا يرسب لكن تلميذا مجتهدا ، وعنده هذه العناصر مستوفية ، وجاء يوم الامتحان وحصل له دوار أو أي شيء آخر. المسألة خارجة عن ارادته . . الأشياء الخارجة عن الارادة مما يصيب الانسان ويخرجه عن انسجامه مع الخير في الوجود ، نسميها مصيبة . لكن لو هو عرفه أنه ليس له فيها اختيار . ولا له فيها إرادة ، ولا له فيها عمل ، وجاءت من خارجه . يجب أن يعتقد أن هذه جاءت لحكمة يريدها الذي أنزلها . لكن أنا لا أنظر للأشياء على المدى القصير ولذلك بلغتنا في القرآن إلى هذا المعنى « قل لنا يصيبنا الا ما كتب الله لنا » القياس أن المصيبة علي ، كأن الحق يقول لك : تنبه أيها الانسان أمر لا دخل لك فيه ، ولا أرادة لك فيه ، وهو جاء لك من الخارج ، اعلم انه جاء لك لا عليك . و « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » ليس علينا ، حينما تأتي الأشياء خارج ، تبقى هذه أمر يريده الحق لي يجري على صنعته ما يصلحها فما دام يجري على الصنعة ما يصلحها ، يبقى هذا لمصلحتي أنا . لكن أنا لا أنظر هذه النظرة لو قال ( عليكم ) كانت تبقى الحكاية . اذن لا يوجد شر الا ما يجلبه الأنسان على نفسه باختياره ، انما شيء يجيء له من غير ارادته ، ومن غير اختياره ، ومن غير تدبيره ، يجب أن يقتنع بأن هذه له لصالحه . لكن فيه أشياء تنشأ منه ، هذه هي مصيبته هو . هي هذه العملية التي يحاسب عليها .

لذلك ما دام الله هو الأحد ، وليس لنا مفزع الا هو ، وهو الصمد المقصود ، ولم يلد ولم يولد يعني ليس له فينا عصبية . ونحن كلنا بالنسبة اليه سواء من رحمته بنا أن علمنا كيف نعوذ به ، ولنلتجىء اليه من الشرور التي تأتي من خارجنا ، ولا ارادة لنا فيها ، ومن الشرور التي تأتي من داخلنا ولنا فيها ارادة .

فجاءت السورة الأولى « قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق اذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد . ومن شر حاسد اذا حسد » أمور لا دخل للانسان فيها أبدا . فهي هابطة عليه من علو . تبقى هذه المصائب . فعلمنا كيف نعوذ منها . .

وشرور تنبع من نفسنا ، فجاءت السورة الثانية فقال « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس، اله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس » لأن ما دام سيقعد يوسوس ويعمل يبقى معناه أنه يريد أن يخرجني عن المنهج . وما دام يريد أن يخرجني عن المنهج وأنا مكلف به ، وربنا خلق لي اختيار ، وخلق لي ارادة ، ورتب جزاءه على الأعمال الارادية ، لا على الأعمال الاضطرارية يبقى أنا ان طاوعت الخناس هذا يبقى أنا الذي جئت له بنفسي .

[ فكأن السورة الأولى يستعيذ بها الانسان من الشرور التي تلحقه من خارج . . وسورة « قل أعوذ برب الناس » يستعيذ بها من الشرور التي تأتي من الداخل ، التي هي داخلة في منطقة الحساب ، وفي منطقة التكليف . ]

فحينما يقول الحق « قل أعوذ برب الفلق » جاء بالناحية الأولى . وهنا مثلما قالوا : الاستعاذة تقتضي مستعيذا ، وتقتضي مستعاذا به ، وتقتضي مستعاذا منه . « قل أعوذ » بمن تعوذ ؟ « برب الفلق » اذن نفس المستعاذ به جاء بالاسم الذي شجعك على أن تستعيذ.

جاء حيثية لك يقنعك بأن لا تستعيذ الا به . لماذا ؟ لأنه رب الفلق . . ما هو الفلق ؟ . الفلق اما أن يكون الصبح ، والصبح أبو النور والنور أبو الهداية ، الانسان يمشي فيه على بصيرة . وإما أن يكون الفلق هو ما ينفلق عنه الوجود والحياة . . مثل « فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ » وسواء كان الفلق بمعناه الأول ، أو بمعناه الثاني ، فما دام الرب الذي أوجد النور لتسير في حياتك على هدى ، الرب الذي أوجد الوجود وخلقه ذلك الخلق المبدع ، يبقى هو الذي يجب أن يستعيذ به « قل أعوذ برب الفلق » قال « من شر ما خلق » كأن الذي خلقه ربنا بعضه فيه شر ، معناها هكذا . وأنت تستعيذ من شر ما خلق ، لأنه ما دام موجودا ، يبقى ليس للشر المحض ، ولا للخير المحض . يبقى فيه زوايا شر ، فيه زوايا خير .

نقول : أنت اذا نظرت الى تذليل الله للأنعام والحيوانات والخ . . فيه حيوانات مستأنسة ، يعني الانسان يستأنسها ، ويأخذها في خدمته ، ومذللة له ، وحيوانات ثانية غير داخلة تحت قدرته . الجمل الكبير العريض هذا ، الصبي الصغير يسحبه ويحمله ، ويمشي وراءه . . ثعبان صغير ، عندما يظهر ألف رجل يجروا . . ما هي الحكاية ؟ هذا ذلل ، ذلك لم يذلل فكأن الله أبقى بعض عناصر الوجود من حيواناتها لفهمك أنك أنت لم تذلل هذه الأشياء بقوتك ولا بقدرتك . ولا بحيلتك ، لو لم يذللها ، ما ذللت لك بدليل أن الشيء الضخم الكبير تقدر تذلله وتستأنسه ، وشيء بسيط صغير ربنا لم يذلله لك لا تقدر تجيء ناحيته . فكأن شواذ هذا التوحش جاء لحكمة ، هذه الحكمة لكي تعرف أن الذي خلق هذه الأشياء . ليس بمجرد خلقها . قال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ » ( يقول العلماء كلمة العطف بالفاء ) فهم لها مالكون هذه ليست منسجمة . لماذا ؟ لأن التملك لم يجيء بالنسبة للخلق ، ليس الخلق والتملك ، انما الخلق والتذليل . ولذلك قالوا : الفاء هذه عاطفة جملة محذوفة هنا ، يجب أن تعرف بالحداقة . ما هي ؟ « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ » كأن الملكية ناشئة عن التذليل ، وليس عن الخلق والا كان كل حيوان مخلوق كنت تقدر تذلله . . لا . . يبقى هذه أبقاها لكي يفهمك أن المسألة ليست بشطارتك . المسألة ليست بقدرتك . وفيها أيضا فوائد كثيرة . مثلاً الثعبان ، بدأنا نعرف فوائده لما أخذنا سمومه ، لأن فيه أمراض فتاكة فنأخذ سمه لعلاجها . اذن هو فيه خير اذن متى يوجد منه الشر ؟ حين يتعدى الى غير ما خلق له . ولماذا يجعله يتعدى الى غير ما خلق له؟ المسألةليست كلها تعدي دائم ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حتى لا يظن الانسان المكرم الذي سخر له الكون أنه مستغني عن ربه فلازم وهو نائم ، أو سائر في أحراش ، يخاف أن تطلع له حية بسيطة تلدغه فدائما يقول : يا رب . لأن قواه لا تقدر تحتاط منها .

اذن هذه كلها لفت وربط لمن ؟ ربط للانسان . كل المخاوف المستورة هذه ربط للانسان بمن ؟ بالخالق فاذا أردت أن تستعيذ من هذه الأشياء فقل : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ » هذه داخلة فيها خلق ولكن هنا يأتي التخصيص بعد التعميم لزيادة المزية في الأشياء « من شر غاسق اذا وقب » ما هو الغاسق ؟ الغاسق هو الليل انتهوا على أن معناه

الليل وما معنى « اذا وقب » ؟ يعني دخل بظلمته في كل شيء ، وما دام دخل بظلمته في كل شيءٍ ، فقد ستر عن الانسان مظان الشر ، وحش مفترس، حشرة سامة ، هامات ، عدو ، متلصص ، كل هذا كان النهار كاشفه ، لكن لما يجيء الليل يبتدىء وليس عندك القوة التي تدفع بها هذه الأشياء، الذي يتربص لي ويريد أن يضربني . لا أقدر عليه فأقول « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ » لأن الظلمة ستجيء فتستر الأشياء .

هنا لما قالوا : ( غاسق ) يعني الليل ، ( يوقب ) يعني اذا عم بظلمته الكون . كما قلنا سابقا اللفظ له تاريخ وله مراحل . الأصل في الغاسق ، الدافق . والأصل في الوقب ، النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء ثم تسيل فاذا بلغ من شدة المطر أنه يعمل حفرة في الجبل ، يبقى هذا مطر غزير شديد جدا وما دام مطر شديد جدا لا ينشأ الا عن غيم وسحاب . . والغيم والسحاب هذا يكون كاسيا . والليل الذي تستقبله وفي نيتك أنه ظلام . لا تستغرب الظلام في الليل . لكن في النهار والشمس طالعة وبعدين تجد السحاب كسى الكون ، وبعد ذلك نزل المطر ، الظلمة في النهار هي هذه الملفتة ، وانما في الليل هو طبيعته هكذا . . فكأنهم أخذوا ( الغاسق ) الذي هو الليل المظلم حين يتدفق ويسيل ويشمل الكون ، من الماء الدافق الذي ينزل ينقر في الجبل ، ولا ينزل بهذه القوة وينقر في الجبل الا اذا كان غزيرا ودائما وطويلا . لأنه لما يظل ينقر معناها أنه يحتاج لمدة طويلة . يبقى فيه غيم الغيم حجب الشمس ، حجبة الشمس عملت ظلاما . الظلام في غير موضعه . يبقى أخذوا من هذه الظلمة .

وبعدين قال لنا حكاية « وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » كلمة النفاثات هذه تشعر بالتأنيث فلما جاءوا يفسرونها قالوا : الساحرات . لماذا وهل لا يوجد ساحرون ؟ فاضطر بعض المفسرين أن يقولوا : الاستعاذة من النفوس الساحرة . سواء كانت لرجل أو امرأة . يعني النفوس التي تسحر . . طيب نفذت من هذه الحكاية . .

« النفاثات في العقد » ان فسرناها بأنهن الساحرات أو السحرة على اطلاقهم هنا العلماء وقفوا موقفا من هذه الآية وموقفا « وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » في الآية التي بعدها . قالوا هذه السورة جاءت لنا بنقطتين وقف العقلانيون فيهما . كيف يوجد شيء يسحر ، وشيء يحسد . فأنكر العقلانيون السحر ، لماذا ؟ لأنه لم يخضع لقضية عقلية عندهم . . وانكروا الحسد

أيضا . لأنه لم يخضع لقضية عقلية . والمدرسة العقلانية مثلما يقولون عنها : لهانية حسنة . النية الحسنة ان في بداية العصر الحاضر ، والنهضة الحاضرة وكون جذبنا بريق النهضة ، والعلوم الجديدة التي بدأ الشرق العربي ، والشرق الاسلامي يتصل بها بواسطة الغرب . فتنت العقول بهذه الأشياء . وبعد ذلك جاء الاسلام في بعض قضاياه الغيبية ، فأراد هؤلاء العقلانيون أن يقربوا المسائل العقيدية التي لا تتفق مع منطق العلم التجريبي والواقعي ، ومنطق الأشياء . فصاروا يؤ ولون فيها . وكأنهم أرادوا أن تكون كل قضايا الدين لازم داخلة تحت نطاق التجربة . . ولو هذه المسائل داخلة تحت نطاق التجربة لما كانت المسألة في حاجة الى رسول ولا ايمان بالله ، ولا أي حاجة من هذه . مسألة العقل يقول بها ، والتجربة تقول بها . . مثلما قلنا هل هناك كهرباء روسي ؟ وكهرباء أمريكية ؟ لا . لا توجد كهربة روسي . ولا كهربة أمريكية . الأمر الذي دخل للتجربة ودخل للتعقيد العلمي والعملي . ليس فيه خلاف . فان كنت تريد المسائل كلها تمشي هكذا يبقى هذا الدين ليس له لزوم . لكن أنت ما دام تدينت وآمنت بأن فيه اله قوي ، وله كذا وكذا وله كذا . يبقى عقلك لا يكون حجة على ما خلق . خلق أشياء أنت لا تعرفها . ويطمئنك العقل نفسه على سلامة هذه القضية ، لأن كثيرا من الأشياء لم تكن داخلة تحت نطاق الحس ولا تحت نطاق التجربة ، وبعد ذلك دخلت تحت نطاق الحس وتحت نطاق التجربة . اذا كان حدث زمان من عشرة قرون أو من عشرين قرنا بأن فيه ميكروب ، والميكروب حجمه كذا ، ويعمل قدر كذا ، وينفذ من كذا ، ما كان أحد صدق هذه المسألة . فلماذا لا يكون الغيب الذي كان للعلم المادي قديما ثم صار مشهدا الآن ، وسيلة للمؤمن في أن عقله ليس حجة في أن يحكم على وجود لأشياء لأنه أدركها ، ولا يعتقد بوجود أشياء حين لا يدركها . . نقول : لا . . كن منطقيا مع عقلك فانك الآن قد شهدت بوجود أشياء هذه الأشياء كانت فيها ، لو حدثت بها قديما ، ما كنت تصدقها وأصبحت الآن مشهدا . فلماذا لا تكون هذه الوسائل بالنسبة لك ، الأشياء التي كانت غيبا زمان ثم صارت مشهدا الآن تجريباً . لماذا لا تكون وسيلة لك على أنه يقول لك : يا انسان عقلك ليس مقياسا في فهم الأشياء . بل ان عقلك يفهم منها على قدره ، وكل يوم تزيد أشياء جديدة ، فخذ من هذه مقدمة على أن عقلك لا يكون هو الحكم على الأشياء. عقلك ليس له إلا أن يوثق ذلك، أصدر ذلك عن الله ، أو لم يصدر؟ وبعد ذلك كيفيتها ، أو تعقلها المسألة ليست قضيتها القمة ؟ قضية القمة أن تؤمن بآله قوي قادر ،

وبعد ذلك هو قال أو لم يقل ؟ قال . اذن تأخذها أنت مثلما هو قال . وبعد ذلك ابحث . فاهتداء عقلك لبعض الأسرار قد يجعلك تؤمن عن يقين وعن ثقة بأشياء لم تشهدها . ولذلك المحجوبات عن البشر قلنا عليها نوعين اثنين : نوع مستور هو في علم الله ، ونوع في غيب الله ، الشيء الذي بدا العقل يكتشفه بمقدمات موجودة في الكون ووصل اليه ، كان غيبا قبل أن يصل اليه ، انما ليس غيبا مطلقا لماذا ؟ لأن فيه مقدمات يوصلك اليه المكتشفون ، والمخترعون ، والمبتكرون هؤلاء . هل جاءوا من أول الأمر وأخذوا القضايا من ألفها الى يائها ، أم أخذوا ألف باء واحد . وباء جيم الثاني وجيم دال الثالث وو . . سلسلة وحلقات فأنت لما تنظر الشيء الذي كان خفيا ، ثم وجدت مقدمات العقل البشري أخذ يرتبها الى أن وصل اليها . نقول : هذا ليس غيبا مطلقا ، هذا غيب عنك ، انما قد يكون مشهدا .

ولذلك قلنا : ان الحق سبحانه وتعالى حينما تناول هذه القضية كونيا قال في آية الكرسي « اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » يحيطون . . نسب الاحاطة الى من ؟ للبشر ، لكن باذن الله . . فكأن كل غيب عن البشر له مقدمات في الكون له أجل أن يظهر . فقد يتفق أجله مع استعمالك المقدمات لتصل اليه ، وقد لا تستعمل المقدمات ولكن جاء أجل الله لهذا السر أن يظهر فيجيء لك بها صدفة أو غلطة . . كثير من الاختراعات ظهرت صدفة أو غلطة . . فكأن الله اذن أن يظهر ذلك السر . ولكن مقدماتك أنت لم تستعمل فلما جاء الميعاد ربنا أظهرها غلطة أو صدفة . وقد تصادف المقدمات وتظهر النتيجة .

اذن الذي يغيب عنك وله مقدمة في الكون يستطيع العقل أن يرتبها ليصل الى المجهول ، هذا كان غيبا ، ثم صار مشهدا ، لكن الغيب المطلق ، هو الذي لم يدع الله له مقدمة في وجوده لتصل اليها . هو هذا الذي قال فيه « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول » . كأن هذا الغيب هو الذي لم يترك الله له مقدمة تدل عليه . ومادام لم يترك له مقدمة تدل عليه ، فلم يجعل للبشر فاعلية ولا ارتباط قال « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا » يظهر هو ، اذن أنت ليس عندك مقدمات لكي تحيط به علما أبدا ، بل هو يتفضل ويعطيك هذه المقدمات .

لما تعرضوا للنفاثات في العقد ، بعضهم قال : السحر هذا ليس له وجود ، نقول : يا

شيخ أنت كأنك تصادم الأحاديث ، وتصادم النص القرآني ، ولا تجعل عقلك مصادم للنص ، لأنه لا يصح أن يوجد اجتهاد مع نص أبدا بل يجب عليك أن تستعمل عقلك ان كان شاطرا جدا جدا في أنك تقرب الأشياء بأشياء اسمها ( العلم البرزخي ) يعني علم يأخذ من هنا بعضا ومن هنا بعضا ويقرب لك المسائل . . لما تقرأ آية « وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » يبقى نص في : أن فيه حاجة اسمها السحر . وأصله ليس عملية بشرية ، أصله عملية علوية . هم علموها للبشر وبعدين البشر يتناقلها « وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ » . . من اشتراه كان فيه صفقة ، والصفقة ليست من اجتهاد البشر ، بل علوية التعليم . لماذا ؟ لأن الحق يريد أن يلفتنا الى قضية ، هذه القضية أن الجن وان كان له قانون أخف وأقوى من قانونك ، أنت لا تقدر تنفذ من الحائط ، هو ينفذ . . أنت الزمن والمسافة لهما مقدار عندك ، وهو ليس لهما مقدار عنده ، هو يقدر يتغلغل فيك ويجري فيك مجرى الدم ، وأنت لا تقدر . . القانون الأشف ، والقانون الأكبر والقانون الألطف ، من الذي أعطاه له خالقه . وطبيعة خلقه من النار يعطيه هذا . الانسان مخلوق من طين ففيه كثافتها ، وهو مخلوق من نار ففيه شفافيتها ، ومثلما قلنا سابقا ان المخلوق من طين ، لو جئت بتفاحة ووضعتها خلف الجدار لا يتعدى طعمها الى فمه ، حتى تأتي التفاحة وتأكلها . . انما لو وضعت جذوة من النار خلف الجدار بعد مدة تجد آثارها . لو وضعت جذوة نار هنا ، بعد مدة تجد أثرها ذهب هناك من غير أن تنتقل . اذن مادام هو مخلوق من النار ، يبقى أخذ من النار قوانينها ، وأنت مخلوق من الطين يبقى لك قوانين ، لكن يريد الحق أن يلفتنا الى شيء ، هو أن العنصر هو الذي لا يتحكم ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى ليستطيع أن يهب الأدنى خواصاً أعلى من الأعلى خواص فالمسألة ليست عنصرا يتحكم ، هي عنصر بقانون السببية يعطي ، لكن حينما يريد الحق للأدنى يعطيه .

ولذلك قلنا في قصة سليمان ، لما قال « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » . . هل تكلم بشر عادي ، سكتوا . من الذي تكلم ؟ ليس جنا عاديا أيضا ؟ بل عفريت من الجن . كأن الجن أيضا فيه لبخه وفيه شاطر . مثل الانسان تماما . فلم يتكلم انس عادي ولا شاطر ، ولم

يتكلم الجن العادي وانما تكلم الجن المعلم . فكأن ثلاث مراحل انتهوا من غير كلام ؟ انس عادي لم يتكلم انس شاطر لم يتكلم . جن عادي لم يتكلم . « **قال عفريت من الجن** » . لأن نفس طرح السؤال يخيف . يقول « **أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين** » . كأنه بلغه الخبر أن بلقيس وركبها فصل عن اليمن وجاء في الطريق . هو يريد واحد يذهب يفك العرش من اليمن يجيء قبل أن يجيئوا هم . انهم عندهم المجيء فقط ، هذه المسافة . والذي سنرسله يفك العرش عنده الذهاب ، والرجعة ، والمدة على ما يفك العرش ؟ يبقى أي انسان يجازف بنفسه ، لازم يكون جن عفريت . لما جاء الجن العفريت تكلم ، أعطى زمنا يناسب قانونه ، « **أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** » مقامه هذا يظل ساعة اثنين ثلاثة ، هو هذا الذي يحدده . يعني يظل تجلسه للقوم كم ساعة ؟ ثلاث أو أربع ساعات ، يبقى هذا هو توقيتها . « **قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك** » . . انس عنده علم من الكتاب سيأخذ قانونا أقوى من قانون من ؟ من قانون الجن ، يبقى الجن لم يأخذ شطارته هذه بعناصر تكوينه ، انما بارادة الخالق له أن تمشي عناصر تكوينه . انما يقدر أن يعطي للأدنى وهو الانسان قوة تفرق هذه المسألة .

فكذلك مسألة السحر ، الجن شاطر ، يقول : لا . . أنا أستطيع أجعل من الانس ما يسخر الجن . ويا ملائكة انزلوا وقولوا للناس : إن الأشياء لا تأخذ قوتها بمطلق قانونها ، فالذي خلقها يستطيع أن يعطي ميزة ذلك القانون للأدنى . مثل في الملائكة وآدم . الملائكة انظر خلقهم ماذا ، وآدم من الطين وو . . . الخ . وبعدين ربنا قال اسألهم ، لما علم آدم الأسماء قال له اسألهم « **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا** » اذن أعطى الأدنى وهو آدم أشياء لم يعطها للأعلى . وهذه حرية الموجد ، عظمة الموجد ، والا لو كان كل شيء عنصره يتحكم فيه ، يبقى الموجد هذا يعني . . الموجد يقول : لا ، العنصر صحيح بقانون السبب العادي ، لكن أنا اذا أردت ، اعطي الأدنى قانونا فوق الأعلى . يقول : « **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت** » يبقى الملكان أعطوا للجن ، والجن أعطى للانس . آه . . فيه حاجة مثلما نسمع الاصطلاح الآن الذي يقول : تكافؤ الفرص . أنا انسان وأنت انسان وهذا انسان تعرف ماذا يجعلني أسير مؤدبا في المجتمع ؟ ان فرصنا متساوية . لما أجيء بقوتي أضرب واحدا فلما ،

يجيء واحد أقوى مني يضربني ردا ، فأنا أبقى مؤدبا على من دوني لكي يكون الأعلى مني مؤدبا بالنسبة لي . بدليل لما الانسان يتفرعن ولا يجد أحدا عنده يبقى طاغية اذن فالتوازن موجود في المجتمع من تكافؤ الفرص .

كلنا جالسون وليس عندنا مسدسات . لكن واحدا جاءت له قوته ومعه مسدسه ، سنتفاهم معه بأدب ، لأنه أصبح زائدا عنا . لكن لويعلم أنني معي مسدس سيعاملني بأدب .. اذن تكافؤ الفرص هو الذي يعمل التوازن في المجتمع . لما يكون المجتمع ليس فيه تكافؤ فرص يبقى الأقوى يطغى .

فالانسان بقانونه عايش مع الناس ، بقانون واحد ، وبنظام واحد ، الجن قانونه أشف ، صحيح ربنا يقول : أنا أقدر أعطيك أنك تسيطر على الجن وتبقى أقوى منه ، لكن هذا ليس في مصلحتك . لماذا لأنه سيعطيك قوة أكثر من بني جنسك فيختل تكافؤ الفرص . اذا أعطيتك قوة أكثر من قوة الذين يعيشون معك . . مثلا يجيء الولد يقول لك : أعطني مسدسا ، فلا تعطيه . لماذا ؟ لأنه يلعب مع أولاد ، ويمكن ولد معه يسبه أو أي شيء من هذا ، فيضربه الولد بالمسدس لأنه عنده فرص أكبر . انما الولد لو لم يكن معه مسدس ، يخاف أن يضرب الولد الذي سبه حتى لا يضربه الآخر . انما هذا عنده قوة . . فربنا يقول : أنا أستطيع بقدرتي أن أعطي للأدنى قانونا فوق الأقوى ويتحكم فيه ، لكن لمصلحتكم لا أحب هذا . لماذا ؟ لأن قانون تكافؤ الفرص سيختل ، سيعطيك طغيانا . ونحن قلنا إن الانسان قد يحكم حكما في وقت الأخذ ، لا يستطيع انفاذه وقت الإعطاء . يقول : لا سآخذه واستعمله مع اللصوص فقط هات لي مسدسا ولن أستعمله الا مع اللصوص . أنت قلت هذا ساعة الأخذ ، انما لما يصبح في يدك لا تقدر تحكم نفسك . لعلك تجيء لحظة غضب منك فتتصرف به تصرفا آخر . فيقول : « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة » فتنة لماذا ؟ لأننا صحيح نقدر نعلمك هذه ، ولما نعلمها لك ستفتن بالقوة ، وبأن أصبح لك قوة أكبر من بني جنسك . كونك لك قوة أكبر من بني جنسك سيعطيك فرصة أوسع ، الفرصة الأوسع ستجعلك تتعامل مع الوجود ليس بفرصة المتكافىء فهذا يؤدي بك الى أن ترتكب شرورا ، تقول : لا . . . علمني فقط السحر وأنا لن استعمله الا في الخير نقول : كل الذين تعلموا قالوا هذا ، وبعدين انزلقوا واستعملوه في الشر . . وبعد ذلك يقول لك : لا تفتكر أنك لما تأخذ

الفرصة القوية هذه ، وتقدر تعمل بها كل حاجة أنها تغير مجرى ما قسمه الله لك . ولذلك تجد المشتغلين بهذا اللون ، تنظر في سحنتهم ، شكلهم حتى شكل العفاريت . في حالهم فقراء وبائسين يعمل ، ومهما يعمل وهو عايش فقيرا ليس عنده جلبابا يلبسه . يموت لا يوجد شيء عنده ، أولاده دائما مصابين . لانه كان فاهما أنه لما يأخذ فرصا أقوى ؛ ان هذه الفرص الأقوى ستعطي له .

ولذلك القرآن يلفتنا هذه اللفتة ويقول « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » لا تفتكر أنك لما تأخذ هذه الفرصة أنك ستقدر على كل شيء . . لا . . ستطغى وبعد ذلك لن تجيء لك خيرا أكثر أبدا . . اذن فلا مانع أن الحق سبحانه وتعالى يعطي بعض خلقه خصائص ، هذه الخصائص تسخر له الجن فيجيء الجن القادر على التشكل للمرأة الجميلة ، ويتشكل بأقنعة صورة قبيحة ويعمل قناعا على وجه المرأة الجميلة فيقول الواحد أنا أراها قردا أمامي ما المانع ؟ما دام الجن يتشكل يقول مثلا : جئت لها ناحيتها لم أجد لها كذا . . تقول : وماذا في هذا ؟ يجيء الجن يتشكل بقطعة لحم ويسد الحكاية . . اذن هذا أمر ممكن ، ما دام الجن يتشكل . . اذن المهمة في التمائم أو الكلمات التي تستعملها لتسخر الجن . الجن لما جاء الحديث والرسول عليه الصلاة والسلام قال : طلع لي الجن وأردت أن أربطه بسارية المسجد لكي يتفرج عليه صبيان المدينة . .

نعم . . لأنه مادام تصور بغير صورته ، وحكمته الصورة ، يعني لو تصور بصورة حمار أو انسان ومعك مسدس وضربته ، يموت وهذا هو السبب والضمان الذي عمله ربنا للانس من الجن . والا كان الجن الشياطين فزعوا الدنيا كلها ، يجعلوا حياتنا كلها نكد . انما هم فاهمون أنهم ليتمثلوا بشيء مخيف ، الصورة تحكمهم . فلو تنبه الانسان الى أن الصورة حكمته فبدلا من أن يجري خوفا يجيء بمسدس أو سيف ويضرب به الجن فينتهي . الصورة لما تحكمه هي هذه التي رحمنا الله بها من الجن . ولذلك يسموه الخناس « الوسواس الخناس » الذي يتنبه له يهرب منه ، والذي يغفل عنه يظهر له . لماذا ؟ لأن فيه قانونا يحكمه ايضا . فهذا هو الضمان الذي عمله ربنا للانسان . اذن ما دام من الممكن أن يكون هذا ، فعنصر الشيء لا يتحكم فيه ، وانما يتحكم فيه خالق ذلك العنصر ، وقدرته ، لو أنه يعطي كل حاجة ما تؤ هلها العناصر ، لكانت هي الحاكمة ولكن الحق سبحانه وتعالى لا تحكمه العناصر ، فيستطيع أن يعطي الأدنى خصائص

ومواصفات الأقوى ، وبعد ذلك يعطيها لك ولكن يقول لك : هذه فتنة . ستستعملها ستزيدك طغيانا ، ستزيدك جبروتا ، لأن تكافؤ الفرص سيختل ، وأنت الذي يحكمك مع الكون الذي تعيش فيه ، الفرص المتكافئة . اذن على هذا لا مانع أن يوجد السحر . لكن هل السحر يؤثر في الحقائق ؟ قال : هذا هو الكلام . هو لا يؤثر في حقائق الأشياء ، وهذه سبق أن شرحناها في مسألة قصة سيدنا موسى ، سيدنا موسى جاء بمعجزة من نوع السحر ، لأن جماعة فرعون سحرة . القرآن يعطي اشارات فيقول « سحروا أعين الناس » كأن السحر تخييل للرائي وحقيقة المرئي واحدة . « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » تخييل . بدليل أن ربنا سبحانه وتعالى لما حب يعمل بروفة لسيدنا موسى في العصا . البروفة أمامه لأنه سيذهب يواجه فرعون وهو لا يعرف شيئا عن السحر . قال له : اعمل البروفة أمامي مثلما تجيء بفريق الكرة وتظل تمرنه قال له : ماذا في يدك ؟ قال : عصا . قال له : ألقها . . فألقاها أصبحت حية . وطبعا لما أصبحت حية لازم يخاف منها . « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى » لماذا ؟ يريد ربنا أن يقول : أن موسى لما ألقى العصا ، أنا لم أعلمه سحرا ، وانما علمته قلب حقائق ، فالحقيقة عنده صارت العصا حية . لكن الساحر لا تصير العصا عنده حية ، تظل عصا والنظار يرونها حية . اذن « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى » أعطتنا اللقطة الطبيعية ما دام أوجس في نفسه خيفة موسى ، يبقى هذا ليس من السحر ، قلب لحقيقة الشيء . لذلك لما جاء قوم فرعون والقوا والخ . . وبعدين موسى ألقى العصا قالوا « أمنا برب هارون وموسى » لماذا تعدوا موسى ؟ لأن المسألة ليست مسألة موسى . أن كان موسى ساحراً فنحن سحرة . والساحر يرى الشيء على حقيقته . ونحن لم نر هذه العصا على حقيقتها ، انقلبت في حقيقتها حية اذن المسألة ليست منه . المسألة هذه من قوة ثانية تقدر تقلب الحقيقة . « **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** » انتقلوا نقلة كبيرة . لماذا لم يقولوا كما قال فرعون « **إنه لكبيركم لذي علمكم السحر** » . لأن هذه ليست من طريقتهم أبدا . فلما تغيرت الحقيقة قالوا : هذا ليس سحرا هذه مسألة راجعة لقوة تقلب الحقائق .

اذن فالسحر تخييل فقط ، هذا التخييل يعطيك ان الشيء تغير . لكن اذا جئت لحقيقة الشيء تجده لم يتغير .

قضية أخرى تريد أن تتعرض وهي ، وهو مسألة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سحره

لبيد بن الأعصم . . المسألة واردة في البخاري ( فلما ترد في البخاري تبقى على العين والرأس ) فيجيء الغيورون الجماعة العقلانيون يقولون : لا كون النبي ينسحر مسألة تشككنا فيما جاء به . نقول تشكك فيما جاء به اذا غيرت في طبيعة العقل . لأن مهمته من طبيعة العقل . وعمر سحر ما جاء وأثر في طبيعة العقل ، انما هو أثر في القوى الثانية . ولذلك السيدة عائشة تقول : حتى يخيل لنا أنه فعل الشيء ولم يفعله . . وما دام يخيل يبقى لم يتحقق . ولماذا تجيء هذه المسألة ؟ لأن كيد الكفار كان نوعين : نوع علنا ، وهذا شأن القوي ، يواجهك . ونوع استتاراً ، وهذا شأن الضعيف يعني التآمر فيجيء الحق سبحانه وتعالى فيقول : الوسيلة التي يقدروا أن يعملوها إن كانت بقوة التكافؤ لن تجيء . . يعني قوة انسان لانسان ، لن ينتصروا . وان كان بوسائط ما عندهم ويقدروا يسخروا قوى ثانية فأنا أستطيع أن أقول للرسول عليها . وعلى علاجها وأفضح شأنهم ، فضح شأنهم لازم يكون له آثار . والا فانهم يقولوا : نحن لم نسحر . . لو لم يجز فيه السحر لقالوا : لم يحصل أننا سحرنا لكن لما يجيء فيه شيء من التغيير في ماديته وفي جسمه وو . . الخ . يفهم ويوثق أنه حصل سحر . وبعد ذلك يكشف السحر . قلنا ان النبي لما كان يجيء يقول حكما لا نص فيه ، بعد ذلك يعد له الله كذلك هنا ويبينه له الله . اذن هذه مسألة لا تقدح في هذه العملية .

بقي شيء آخر وهو في السورة الثانية . . في مسألة الحسد أيضا وقفوا فيها من مسألة « من شر حاسد اذا حسد » ما هو ؟ الحسد تمني زوال نعمة المحسود . هذا له علاقة مادية بالعين ؟ يوجد عميان يحسدوا . وكيف تجيء هذه ؟ ربنا يعطي لواحد سلاحا ؟ وهل ربنا يعطي لواحد سلاحا بندقية وسيفا وو . . . ويمكنه من آخر . ما الذي يحجب انسانا عنده كل أنواع الأسلحة من أن يعتدي على غيره لازم ايمانه بالمنهج . . اذن فالانسان حتى في الفرص العادية ، الفرص المادية ، يبقى عنده قوى يستطيع أن يفتك بها كما ينتك الحسد ، ومع ذلك فيه ناس تستعملها وناس لا تستعملها . فلا تقل انه أمده . مثلما أمد القوي بكل أسباب الطغيان ولا يطغى . وأمد واحدا وبعدين يطغى . . اذن هل الحسد هذا متعلق بارادة الحاسد أم أمرا قهرا عنه ؟ هذه هي الوقفة التي فيها التكليف . لما الانسان يحقد على ذي نعمة تقول له : الحقد هذا اختياري أم مكره عليه ؟ لا شك أنه لا يحسده الا اذا كان الايمان عنده ضعيفا . . لأنه لو فهم أن العطاء كله من الله يبقى لا يحسد . لأن الذي يحسد هذا أول ما يعترض على الله . اذن فالمنهج الأساسي عند الانسان يمنعه من أنه يحسد .

اذن لا بد في الحاسد من قصد الحسد ولذلك طلب منا أننا حينما نر نعمة على نفسنا أو على غيرنا أن نقول : بسم الله ما شاء الله لا قوة الا بالله .

اذا قيلت هذه عند كل نعمة ، لا يضار صاحبها . لا حاسد ولا محسود . فالانسان الذي يرى نعمة على الغير ، وهو يتمنى في نفسه أنها تزول يبقى كارها أم لا ؟ يبقى اذن لن يمنع نفسه من استعمال السلاح بضده وهو « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . لكن لو أن تكوينه الذي هو اذا اتجه للشيء يقوم يضره ، بعد ذلك عرف ذلك في نفسه نقول له : هذه ستقع منه مرة واحدة . لكن اذا عرف نفسه ، أنهم يعرفون أنفسهم ، وكان تقيا ، وكان مؤمنا ، بمجرد ما يرى نعمة عند الغير يقول : ما شاء الله لا قوة الا بالله . ما دام قال ذلك زال من نفسه تمني . اذن ففيه عنصران اثنان : قوة طبيعية في الحاسد وشيء ارادي وهو أن يتمنى أن يضر . مثل الذي عنده المسدس تماما . شيء مادي مسدس ، وبعد ذلك رغبة منه في استعماله . . لكن قد يوجد عنده مسدس ولا تكون عنده الرغبة في استعماله . فيبقى الحسد هو التمني وبعد ذلك ما دام يتمنى زوال النعمة . طيب اذا كان متمني زوال النعمة هذه وفي يدك أنك تفقد هذه النعمة ، شيء متمنيه وفي يدك أن تخلص منه ، تستعمله أم لا تستعمله ؟ يبقى اذن سيجيء الحسد من عنصرين اثنين : العنصر الأول هو أن توجد عنده الطاقة . الصورة الثانية أن توجد عنده الارادة . تقول : لماذا فعل الله هذا ؟ أقول : ولماذا يعطي ربنا بعض الناس قوى مادية يستطيعون أن يطغوا بها . تلك هي الفتنة ، وذلك هو الابتداء .

وما دام الحق قد علمنا أن نستعيذ منه بهذه الأشياء . يبقى لا بد أن يكون لكل هذه الأشياء شر ، ولا بد أن يكون له ضرر ، فهمناه أو لم نفهمه .

الذي ينكر هذا يقول لا . . « وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » شره انه اذا حسد احتو تآمر على أن يزيل عنك النعمة .

« والنفاثات في العقد » ليسوا هم الذين يسحرون . فمن هم اذن ؟ ما معنى العقد الشيء المرتبط . فينفثوا في عقدة بين الزوجين عقدة النكاح بينهما ، ينفث فيها سمه . يعني ماذا يعمل ؟ لكي يحلها ؟ وبماذا يحلها ؟ بالنميمة . وبالوشاية ، وبالكيد و . . . الخ لكي يفسدها . نقول ثبت غير هذا ، وما من انسان الا وفي محيطه أشياء من هذه ، وما دام الحق سبحانه وتعالى قد علمنا

أن نستعيذ به من ذلك يبقى معناه أنه شيء دقيق . وشيء خفي ، وشيء لطيف لا يقع تحت دائرة احتياطنا ولذلك فلا يعيذك منه الا الله . ما دام قال « **قل أعوذ برب الفلق** » . . و« وقل أعوذ برب الناس » يعني معناه أنه أمر لا ينجيك منه الا الرب . ولو أنها أمور تتعلق بمستويات القوانين المادية وو . . . الخ . . لكان من الممكن أن يكون عند الانسان ما يدفعها . أما أن يعلمنا الله بأنه لا يمكن دفع هذه الأشياء التي تحدث أثرا ضارا في النفس الا الله معناها أنها تعز على البشر ولذلك قال : في الظلام الذي يخفي الأشياء . وبالوسوسة وهي الاحتيال والتلصص والتلطف على النفس البشرية حتى تقبل على الشر .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بسورة الاخلاص . وأن يقينا من المصائب بقوة « **قل أعوذ برب الفلق** » ، وأن يقينا شر نفوسنا وشر الشيطان بحق « **قل أعوذ برب الناس** » .

* * * *